السّماع

عند صُوفيّة الإسلام

د . فاطمة فؤاد

تصدير

أ. د. عاطف العراقى

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

السماع
عند صوفية الإسلام

السماع
عند صوفية الإسلام

د. فاطمة فؤاد

تصدير

د. عاطف العراقي

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ

وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا

وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ

لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾

سورة الأنفال [آية ٢٠ – ٢٢]

الإهـــــداء

الى آســتاذى الجليــل

الدكتــور / عاطف العراقى

الذى منحنى شرف التلمــذة عــلى يديه وشــملنى بفيض نصائح المفكر الجليل لتلميــذة فى رحابة صــدر وتواضــع ٠

الى آســتاذى الجليــل

الدكتــور / **علاء أحمد حمروش**

صاحب الروح المستنيرة بنور الايمان ، والخالدة بذكراها العطرة الطيبة ٠ والراضية بقضــاء الله تعــالى ٠

فى ذكرى وفاته الأولى ٠

أهــديهما أول ثمــرة من ثمـــرات بحثى العلمى المتواضع تقديرا لأســتاذيتهما وســيرا عــلى نفس الطريق ٠

تصدير
د. عاطف العراقى

تحتل دراسة التصوف مكانة كبيرة فى فكرنا الفلسفى العربى الاسلامى . نقول هذا اذا وضعنا فى اعتبارنا التمييز بين دائرة ضيقة محددة ودقيقة للفلسفة العربية ، وبين دائرة واسعة لتلك الفلسفة . ان الدائرة الأولى لا يدخل فى اطارها الا الفلاسفة فقط ، فلاسفة العرب أمثال الفارابى وابن سينا والبغدادى (أبو البركات) فى المشرق العربى، وابن باجه وابن طفيل فى بلاد الأندلس أى المغرب العربى . أما الدائرة الثانية الواسعة الفضفاضة فاننا نستطيع أن ندخل فى اطارها ، بالاضافة الى فلاسفة العرب ، أصحاب الفرق الاسلامية كالمعتزلة والأشاعرة والخوارج والشيعة ، أى علم الكلام ، وصوفية الاسلام وسواء مثلوا التصوف السنى والذى اعتمد على المصدر الدينى الاسلامى بالدرجة الأولى ، أو عبروا عن التصوف الفلسفى ، أمثال الحلاج والسهروردى المقتول وابن عربى وابن الفارض وابن سبعين ، والذين أضافوا الى المصدر الدينى الاسلامى ، مصادر خارجية أجنبية كالمصدر اليونانى أو المصدر الفارسى أو المصدر الهندى .

التصوف اذن يدخل فى اطار الفلسفة العربية بمعناها الواسع . وكم بذل الصوفية ــ وبصرف النظر عن اختلافنا معهم فى المنهج أساسا ــ الكثير من المجهودات وقدموا لنا العديد من الكتب والرسائل التى تقوم على المنهج الذوقى القلبى الوجدانى ، فى حين اعتمد المتكلمون على المنهج الجدلى ، واعتمد الفلاسفة بالدرجة الأولى على المنهج العقلى البرهانى وخاصة عند آخر فلاسفة العرب ، ابن رشد عميد الفلسفة العقلية فى بلداننا العربية .

ويحتاج التصوف الى العديد من الدراسات ، فمازلنا نجد تراثا ضخما للصوفية ، وما زلنا نختلف حول رأى أو أكثر من الآراء التى قال بها هذا الصوفى أو ذاك من صوفية الاسلام .

ومن هنا كانت سعادتنا حين أقدمت الباحثة فاطمة فؤاد على دراسة موضوع من الموضوعات الصوفية ، وهو موضوع السماع ، هذا الموضوع الذى نجد الآراء العديدة والمختلفة حوله . وقد بذلت الباحثة فى دراستها ، جهدا ، وجهدا كبيرا ، اذ أن هذا الموضوع كان فى الأصل رسالتها للدكتوراة والتى نوقشت بقسم الفلسفة بكلية الآداب ببنها ـ جامعة الزقازيق ـ وأشرفت على بحثها مع زميلى وصديقى الأستاذ الدكتور علاء حمروش رحمه الله تعالى برحمته الواسعة . وكم كان يود أن يظهر هذا البحث الى عالم النور ولكن ماذا نفعل ازاء القضاء والقدر . أقول ان الدكتورة فاطمة فؤاد قد بذلت جهداً كبيراً فى دراستها لموضوع السماع عند صوفية الاسلام . ورجعت الى العديد من المصادر والمراجع ، وسواء كانت مصادر ومراجع قديمة ، أو كانت مراجع حديثة تهتم بدراسة التصوف وقضاياه .

واذا كنا من جانبنا نختلف مع الباحثة حول رأى أو أكثر من الآراء التى ذهبت اليها ، كما نختلف معها حول منهج الصوفية ، وبحيث نقول اننا لا نرتضى بالمنهج العقلى بديلا ، الا أن هذا الاختلاف يعد شيئا طبيعيا ومتوقعا . أن الخلاف من طبيعة الفلسفة والتفلسف ، وخاصية من خصائص الفلسفة ، وبحيث لا نجد فيلسوفا من الفلاسفة ، منذ نشأة الفلسفة فى القرن السادس قبل الميلاد ، قد اتفق مع فيلسوف آخر جملة وتفصيلا .

وقد قسمت الدكتورة فاطمة فؤاد ، كتابها الى مجموعة من الفصول والعناصر والنقاط . قدمت لفصولها بالحديث عن أهمية الموضوع الذى اختارته مجالا للبحث والدراسة ، كما أشارت الى المنهج الذى سارت عليه فى دراستها لموضوع السماع عند صوفية الاسلام .

أما بالنسبة لفصول الرسالة والتى تقدمها اليوم للطبع والنشر ، فقد استطاعت تقسيمها تقسيما دقيقا الى حد كبير ، يدلنا على درايتها بموضوع كتابها .

كشفت فى الفصل الأول من كتابها عن تطور معانى السماع عند صوفية الاسلام ، واذا كنا نجد أكثر من معنى للسماع ، فقد أشارت الى هذه المعانى المختلفة ، وذلك من خلال الرجوع الى العديد من المصادر والمراجع ، وهذا يدلنا على سعى من جانبها نحو الالتزام بالبعد الأكاديمى الجاد بدرجة ملحوظة .

أما الفصل الثانى من كتابها ، فقد تناولت فيه دراسة السماع والناحية النفسية ، اذ من الواضح أن موضوع السماع يرتبط ارتباطا وثيقا بالجانب النفسى ، وخاصة اذا وضعنا فى الاعتبار أن التصوف فى

أساسه يعد معبرا عن الجانب الذوقى الوجدانى وكم كان ابن سينا على سبيل المثال حريصا فى تصوفه على ابراز هذا الجانب ، وخاصة حين تحدث عن السمـــاع وهو بصدد دراسة درجات العارفين والتى تتمثل فى الارادة والرياضة والأوقات والوصول التام . لقد تحدث عن السماع والألحان فى دراسة لدرجة من درجات حركات العارفين ، وأعنى بها درجة الرياضة .

واذا كانت باحثتنا قد درست فى الفصل الثانى من كتابها ، ارتباط السماع ، بل قيامه على الناحية النفسية الوجدانية القلبية ، فانها خصصت فصلا من كتابها ، وهو الفصل الثالث لدراسة موضوع السماع والترقى الأخلاقى . وكلنا يعرف الصلة الوثيقة بين الجانبين ، وارتباط كـــل واحدة منهما بالأخرى . لقد رجعت الى العديد من المصادر والمراجع فى تحليلها لهذا الجانب الذى استغرق فصلا بأكمـله ، وان كنـا نرى أن العديد من آراء الصوفية فى هذا الجانب ، بالاضافة الى الجوانب الأخرى من فكرهم ، كان يحتاج الى وقفة نقدية من جانب الباحثة ، ولكن غلب على دراستها الدفاع عن آراء الصوفية بوجه عام .

انتقلت باحثتنا الدكتورة فاطمة فؤاد فى الفصل الرابـــع فى كتابها الى تحليل موضوع الســـماع من خـــلال علاقته بالمقامات والأحـــوال وميزت بين المقامات من جهة ، والاحوال من جهة أخرى ، وذلك على النحو الذى نجده فى كتابات الصوفية ، وكتابات من اهتموا بدراســـة آرائهم . واذا كانت الباحثة قد عولت بالدرجة الأولى على المصـــادر الرئيسية فى دراستها لموضوع هذا الفصل ، فان هذا يكشف عن الجهد الذى قامت به فى الدراسة والبحث والتحليل والمقارنة بين العديد من الآراء .

أما الفصل الخامس والأخير ، فقد كان موضوعه ، السماع والتحقق بالمعرفة والوجود . والجهـد فى هذا الفصل من جانب باحثتنـــا يعـد واضحـــا وبارزا .

ونظرا لالتزام الباحثة بالاطار الأكاديمى فى الدراسة والتحليل ، فقد وجدت لزاما عليها ذكر قائمة بأسماء المصادر والمراجع التى استعانت بها فى دراستها وهذا ان دلنـــا على شىء ، فانما يدلنا على أمانتها العلمية فى البحث والدراسة .

ان الكتاب الذى تقـدمه اليـــوم الدكتورة فاطمة فـــؤاد ، مفـــيد للباحثين والدارسين والمهتمين بالفكر الفلسفى العربى عامة ، والتصوف على وجـــه الخصوص . وأرجـــو لباحثتنا كل تقدم فى المستقبل نحـــو البحث والدراسة ، وهى تملك أدوات البحث ، والمجال أمامهـــا يعـد

مفتوحا ، اذا ما أكثر الموضوعات الصوفية التى تحتاج الى عـــدد ضخم من الباحثين والدارسين وحتى نستطيع فهم تراثنا القديم فهمــا دقيقا وموضوعيا وبحيث نأخذ منه ما نأخذ ، ونرفض منه ما نرفض . نأخذ الجانب المشرق الوضاء منه ، ونبتعد تماما عن الجانب المظلم منه والذى لا يتفق مع مطالب حياتنا التى نحياها ، وحياتنا عند الدخول فى القرن الجديد ، القرن الواحد والعشرين .

اننا من جانبنا لا نتردد فى القول بأن هــذا البحث الذى تقــدمه الدكتورة فاطمة فؤاد للنشر والطبع ، يعد خطوة على الطريق ، وكلنا أمل أن تواصل باحثتنا مسيرة الدراسة والبحث .

والله هو الموفق للســـــداد .

عاطف العراقى
مدينة نصر فى العاشر من ديسمبر
عــام ١٩٩٦ م

مقـــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه • وبعد •••

فالسماع عند صوفية الاسلام هو احدى الرياضات الروحية التى يمارسها المريد من أجل التطهر والصفاء ، ولكنه على ما فيه من تطهر وصفاء وما يثيره فى الشعور والعقل من متاع ، لم يعن به الباحثون العناية التى تكفى للكشف عن معانى السماع وتطورها عند صوفيـــة الاسلام ، وعما اذا كان لهذه الرياضة من آثار قيمة فى حيـــاة الفكـــر والروح والدين ، وهو لما يتمتع به من هذه الأهمية وما يثيره فى النفس من هذا المتاع قـــد أقبل عليه كثير من المستشرقين وعلماء التحليـــل النفسى ، وقد درسوه دراسة علمية منظمة كان من نتائجهـــا الكثير من البحوث الخصبة ذات القيمة والأهمية العلمية والدينية والاجتماعية •

وقد عنى هذا البحث بدراسة السماع عند الصوفية خاصة وأنه يناقش قضية لم تحظ بالاهتمام الواسع من جانب الباحثين فى الفـــكر الاسلامى بصفة عامة ، والفكر الصوفى بصفة خاصة ، حتى يتسنى لنا معرفة حقيقة السماع عند الصوفية وموقف الاسلام من ســماع الغنـــاء ، وكذلك موقف الصوفية من أنواع السماع المختلفة ، حيث تعددت الآراء حول سماع الغناء فمنهم من أباحه ومنهم من عارضه ، ومنهم من أباحه مع الكراهة ، واستدلوا على ذلك بالأحاديث النبوية الشريفة ، كمـــا أن للسماع عند الصوفية جوانبه النفسية والأخلاقية ، بالاضافـــة الى جوانبه المعرفية •

فالسماع هو العمود الأساسى فى الايمان بالحق ورسوله ، مثله فى ذلك مثل البصر ، اذ لا يحب العبد الشىء الا عن طريق السماع عنه أو المشاهدة له ، ومن ثم فان السماع شرط أساسى فى الايمان لا يمكـــن اهماله أو اغفاله •

ولكن السؤال الذى يطرح نفسه الآن هو :

— أى نوع من أنوع السماع يكون العمود الأساسى فى الايمان ؟

— نقول أولا : هو السماع الحق الذى لا يثير الشهوات ولا يحرك الأهواء وخبائث النفس ووسواسها ، فمثل هذا السماع يعارضه الشرع ويخرج بصاحبه الى ارتكاب المعاصى والذنوب ، ولكن السماع الحق هو سماع آيات الذكر الحكيم ، وكذلك سماع الأشعار ، وكل ما يحث على العبادة ، والطاعة من غير الخروج عن حدود السماع ، والتفهم لمعانى المسموع وتدبر معانيه .

ودراسة موضوع السماع عند الصوفية ليس بالأمر الهين ، وبدافع من الرغبة الصادقة فى العناية بتراثنا الاسلامى حاولت جاهدة دراسة تطور معانى السماع عند صوفية الاسلام ، كما عالجت المعانى الاصطلاحية للسماع عندهم وربطها بالكتاب والسنة ، وألقيت الضوء على السماع من الناحية النفسية وما يعانيه المستمع من مشاعر وأحاسيس واستمتاعه بسماع الأصوات الجميلة والموسيقا العذبة للترويح عن نفسه من أعباء الحياة ؛ اذ أن النفس تستلذ النغمات الطيبة وتستجيب لها .

فالسماع هو احدى الرياضات الروحية التى يمارسها المريد من أجل التطهر والصفاء ، ومحاولة تخلى النفس عن أخطائها وتذكرها الدائم للحق تعالى .

ولقد أقدمت على اختيار هذا الموضوع بالرغم من العديد من الصعاب ، وجمعت من مصادر هذا البحث كل ما تيسر ، وتأنيت فيه ما وسعنى الجهد احساسا منى بأهمية موضوع السماع ، خاصة وقد انتشرت مجالس الذكر والشرب والفساد فى الموالد تحت شعار السماع الصوفى .

كما عنينا فى هذا البحث أيضا تتبع أقوال الصوفية على اختلاف عصورهم ومذاهبهم فى السماع من ناحية الظاهر ومقارنة بعضها بالبعض الآخر ، مما يظهرنا على التطور التاريخى لهذه الظاهرة ودورها فى بناء الطريق الصوفى ، كما لم يغفل البحث أيضا المقارنة بين آراء كل الصوفية والفقهاء .

أما عن منهجنا فى هذا البحث ؛ فهو المنهج التاريخى ، من خلال عرض نصوص الصوفية حول معانى السماع على مر العصور ، وكذلك المنهج التحليلى الذى يقوم على تحليل النصوص واستعراضها بطريقة موجزة مؤيدة بالكتاب والسنة .

ويتألف البحث من مقدمة وخمسة فصول ، فبعد أن استعرضنا فى المقدمة أهمية الموضوع ومنهجنا فى دراسته ، جعلنا الفصل الأول لموضوع السماع عند الصوفية من حيث تطور معانيه ، وبدأناه باستناد السماع الى مصدر اسلامى من الكتاب والسنة ، وعما يمكن أن يكون لدى الزهاد فى القرنين الأول والثانى للهجرة من معانى السماع ، بالاضافة الى اعطاء لمحة سريعة عن السماع وآلته من الناحية الطبية ، ثم التعريف بالسماع واظهار العلاقة بينه وبين الأذن ، وفى الفصل أيضا معالجة للمعانى الاصطلاحية للسماع عند الصوفية السنيين والمتفلسفين فى القرنين السادس والسابع مع ربطها بالكتاب والسنة ، باعتبارهما المصدرين الأساسيين للتصوف الاسلامى الخالص .

ويأتى بعد ذلك الفصل الثانى لمعالجة ظاهرة السماع من ناحيتها النفسية ومن حيث صلتها بما يعانيه الصوفى من مشاعر وأحاسيس داخلية مختلفة أثناء قيامه بباقى الرياضات والمجاهدات البدنية الأخرى ، وقد حاولنا أيضا تحديد دور النغمات فى نفس السالك ، اذ أن النفس تستلذ وتطرب بالنغمات والأصوات الجميلة .

أما الفصل الثالث فعالجت فيه ارتباط السماع بالسلوك من الناحية الأخلاقية ودور السماع فى الترقى الأخلاقى بالسلوك من خلال ترك سماع مجالس السوء والفحش ، والمسارعة الى مجالس العلم والحكمة ، وكل ما من شأنه أن يعلى بالانسان من الناحية الأخلاقية ، وكذلك تعرضت — أيضا — للعديد من الآداب التى لا بد لكل مريد من الالتزام بها فى مجالس السماع .

ويجىء بعد ذلك الفصل الرابع ليتناول ارتباط السماع بالمقامات والأحوال ، وكيف أن المريد لا ينتقل من مقام الى مقام الا اذا تحقق فى المقام الذى هو فيه ، وكذلك الحال ، ومن بين هذه الأحوال حال الفناء والبقاء والوصول والقبض والبسط وغير ذلك ؛ اذ جعل الصوفية السماع هو الوقت الذى لا يضيعه المريد فى الباطل وانما يسمع ويحقق فيه ما يسمعه بحيث لا يعارض آداب الكتاب والسنة ، فالسماع اذن وسيلة وأداة لوصول المريد الى الحق تعالى .

وتنتهى فصول البحث بفصل خامس تناولت فيه صلة السماع بالمعرفة الكشفية التى يصل اليها الصوفى فى نهاية الطريق من خلال الوجد الوارد عليه من قبل الحق تعالى ، وفناؤه عن كل ما حوله وتحققه بالمعرفة الالهية ، كذلك حاولنا الربط بين المعرفة الحاصلة عن السماع

وتصورهم للوجود ، كما فسرنا التصورات المختلفة فى تفسير الوجود التى يقدمها لنا صوفية الاسلام وارتباطها بالسماع مثل القول بالوحدة والاتحاد والحلول عند صوفية الشطح ، ووحدة الوجود عند أصحاب الوحدة .

واختتمت هذا البحث بتعقيب وخاتمة ، لخصت فيها أهم النتائج التى توصلت اليها وبينت أثرها من قيمة فى الحياة من الناحيتين الروحية والعملية ، وفى النهاية عرضت أهم المراجع العربية والأجنبية .

تلك المامة موجزة بأهم العناصر التى تتألف منها فصول هذا البحث الذى أتقدم به الى قسم الفلسفة بكلية الآداب ببنها للحصول على درجة الدكتوراه فى الفلسفة .

ولعلى بهذا أكون قد قمت بواجبى نحو الكشف عن موضوع السماع عند صوفية الاسلام ، وتطوره خلال العصور المزدهرة للتصوف الاسلامى .

ولقد سعدت بمن أشرفوا على هذا البحث : أستاذى الجليل والمفكر العظيم الأستاذ الدكتور / محمد عاطف العراقى ، أستاذ الفلسفة العربية بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ، وأيضا أستاذى الفاضل والأب الروحى لكل أبنائه الأستاذ الدكتور / علاء أحمد حمروش ، أستاذ الفلسفة الاسلامية ورئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب ببنها ، جامعة الزقازيق ورئيس المركز القومى لثقافة الطفل بالهرم ، فلقد فزت بالكثير من جهدهما ووقتهما فى تصحيح بعض الأخطاء العلمية والمنهجية، وتحليل بعض النصوص والكشف عن معانيها الغامضة على ، فجزاهما الله عنى وعن أخوانى الباحثين خير الجزاء وأطال الله فى عمرهما .

والله الموفق واليه يرجع الأمر كله . . . ،

الفصل الأول

تطور معانى السماع
عند صوفية الإسلام

- تمهيد :

أولا : تعريف السماع ·

ثانيا : السماع والكتاب والسنة ·

ثالثا : معنى السماع عند زهاد القرنين الأول والثانى للهجرة ·

رابعا : معنى السماع عند صوفية القرنين الثالث والرابع للهجرة ·

خامسا : معنى السماع عند الصوفية السنيين

سادسا : معنى السماع عند الصوفية المتفلسفين منذ القرنين السادس والسابع للهجرة ·

سابعا : موقف الفقهاء ورجال الدين من السماع خاصة عند الصوفية ·

تمهيد :

اذا أردنا بداية أن نعرف شيئا عن رياضة السماع وتطورها والعوامل المؤثرة فيها ، أو عن السماع عند العامة والخاصة وما يثمره في نفوسهم وارتباط ذلك السماع بالكتاب والسنة ، فانه يتضح لنا اختلاف الصوفية حوله في الظاهر ، ولكنهم في الحقيقة متفقون على أن الأصل والمصدر الأساسي واحد الا وهو الكتاب والسنة ، وان استدعى القياس، ولهذا حاولنا أن نوضح في هذا الفصل تطور معاني السماع عند صوفية الاسلام ابتداء من الزهاد في القرنين الأول والثاني للهجرة ثم صوفية القرنين الثالث والرابع للهجرة والصوفية السنيين من أصحاب الطرق ، وكذلك الصوفية المتفلسفين حتى نهاية القرنين السادس والسابع للهجرة .

والكلام في السماع ومعانيه المختلفة وأقسامه ومراحله وسلوك النفس وآدابها وقت السماع ، خط مشترك بين صوفية القرنين الثالث والرابع جميعا ، وكتبهم حافلة بالكثير من أقوالهم في ذلك ، ومن بين هذه الأقوال المتعمقة في السماع قول أبي بكر الكتاني(ت ٣٢٢ هـ) : « سماع العوام على متابعة الطبع وسماع المريدين رغبة ورهبة ، وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعماء ، وسماع العارفين على المشاهدة وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان ، ولكل واحد من هؤلاء مصدر ومقام » (١) .

---

(١) عبد الرحمن السلمي : طبقات الصوفية ، طبعة الخانجي ١٩٥٣ م ، ص ٣٧٥ ، وانظر ايضا السهروردي ، شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد : عوارف المعارف ، الجزء الخامس من احياء علوم الدين ، مكتبة الحلبي عام ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م ، ص ١٦٦ .

(هو محمد بن على بن جعفر الكتاني وكنيته أبو بكر ويقال أبو عبد الله وأبو بكر أصح ، أصله من بغداد صحب الجنيد وأبا سعيد الخراز وأبا الحسن النوري ، واقام بمكة الى أن مات سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة ، انظر الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ١٧٢ ، وانظر طبقات الصوفية ، طبعة ليدن ، ص ٣٨٦) .

والسماع لا يقتصر فقط على الغناء الموسيقى والانشاد وانما يمتد الى سماع القرآن الكريم ومجالس العلم والمعرفة ، وهذا النوع الاخير من السماع ليس هناك خلاف على اباحته ، اذ أن الحق تعالى أمر العباد بسماعه والانصات له وتدبر معانيه وفهمها ، اذ يقول الحق تعالى :

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢)

لكن الاختلاف الذى دار بين الصوفية حول سماع القرآن وما يثمر عنه الوجد كأن يغشى على صاحب الوجد أو يصفق أو يبكى بصوت مرتفع أو يرتمى على الأرض بسبب سماعه لآيات الذكر الحكيم ، فمن العلماء من يبيح ذلك ، ومنهم من ينكره ، لكن الالتزام بالهدوء والثبات والخشوع فى الاستماع الى القرآن فيه وقار واقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة .

أولا : تعريف السماع :

السؤال الذى يطرح نفسه فى البداية هو : ما هو السماع ؟ وما هى آلته وما هى الخصائص العامة التى اذا وجدت فى سماع ما صح من جانبنا أن نصفه بأنه السماع الصوفى (الشرعى) ؟ .

نقول ـ بداءة ـ ان السماع بوجه عام « حس الأذن ، ويرد كثيرا بمعنى ما يصل الى السمع كالموسيقا والانصات اليها ، ... ، ويقال فى أصول اللغة والنحو (السماعى) وهو ضد القياس ... ، ويرد فى علم الكلام هو و (سمع) بالمعنى نفسه ، ويكون بذلك ضد العقل .. ، ولكن أهم استعمال للسماع بالمعنى الاصطلاحى هو بلا شك استعمال الصوفية له » (٣) .

فالسماع اذن له فائدة عظيمة لا تقل اهمية عن فائدة الابصار ، فالسمع هو وسيلة من وسائل المعرفة واللذة ، فعن طريق السمع يعرف العبد ربه وما يجب عليه تجاه ربه من عبادات وطاعات ، من خلال

---

(٢) سورة الاعراف : آية (٢٠٤) .

(٣) خورشيد (د. ابراهيم زكى) : دائرة المعارف الاسلامية أصدرها باللغة العربية احمد الشنتناوى ، وابراهيم زكى خورشيد ، مكتبة دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ج ١٢ ، ص ١٨٨ .

سماعه للقرآن الكريم ومجالس العـلم والذكر والوعظ ، وكل ما مـن شأنه يحث على الطـاعة .

وقد حفلت كتب الصوفية بالعديد من الأقوال التى توضح ظاهرة السماع وفائدتها من الناحية الدينية وأيضـا من الناحيـة العمليـة والاجتماعية والأخلاقية ، كما حفلت مؤلفات علماء النفس بالعـديد من الأبحاث والدراسات التى توضح حاسة السمع وآلتها الأذن ، والوصف العلمى والتفصيلى لمكونات الأذن الرئيسية ووظائف كل من هذه الأجزاء « والمنبه الصوتى هو عبارة عن موجات هوائية تصل القوقعة عـن طريق الطبلة والعظيمات والسائل الليمفى الموجود فى الأذن الباطنية »(٤) .

والسماع له مفهوم عام يشمل كل ما يسمعه الانسان من موسيقـا عذبة وغناء وأصوات مطربة ، ولا شك أن الانسـان يستمع ويستلـذ بسماع الأصوات الجميلة والموسيقا العذبة للترويح عن نفسه وازالـة هموم الحياة واعبائها من قلبه ، فالنفس تستلذ النغمات الطيبة وتنفعل بها انفعالا فطريا .

وقد وردت العديد من التعريفات العامة للسماع ، منها تعريـف الجرجانى بأن السمع هو « قوة مودعة فى العصب المفروش فى مقعـر الصماخ تدرك بها الأصوات بطريقة وصول الهواء المتكيف بكيفية الصوت

---

(٤) مراد (د. يوسف) : مبادىء علم النفس العـام ، دار المعـارف ، القـاهرة ، ١٩٤٨ ، الطبعة الاولى ، ص ٦٢ ، ٦٣ ، وانظر ابن سينا : رسالة القوى الانسانية وادراكاتها ، مطبعـة كردستان العلمية ، ١٩٥٠ ، ص ٣١٤ ، وانظر أيضا د. أحمد عكاشة : علم النفس الفسيولوجى ، دار المعـارف ١٩٦٨ ، صص ٩٢ : ٩٥ .

حاسة السمع وآلتها الاذن ، ومن أجزائها الرئيسية الطبلة وسلسلة العظيمـات ثم الأذن الباطنية وهى تقوم بوظيفتين : الاحساس بالتوازن وآليتـه الكييس والشكيـة والقنوات الهلالية الثلاث ، والاحساس بالاصوات وآلته القوقعة (الطبلة ـ المطرقة ـ السندان العظم ـ العدس ـ الركاب ... ، والذبذبات الصوتية التى تدركها الأذن البشرية يتراوح سلمها بين ٢٠ ، ٢٠٠٠٠ ذبذبة فى الثانية ، انظر نجاتى (د. محمد عثمان نجاتى) : الادراك الحسى عند ابن سينا ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٨٠ م ، الطبعـة الثالثة ، ص ١٠٥ ، وانظر ابن سينا : القانون فى الطب : ج ٣ ، ص ٣٥٤ ، وانظر ابن سينا : الشفاء ، ج ١ ، ص ٤٤٦ .

الى الصماخ السماعى فى اللغة ما ينسب الى السماع · وفى الاصطلاح هو ما لم يذكر فيه قاعدة كلية مشتملة على جزئياته » (٥) ·

ويشرح لنا أرسطو كيف تتم عملية السماع فيقرر أن الأذن هى العضو الخاص بالسمع وأن الحيوان لا يستطيع أن يسمع بجميع أجزاء جسمه ، ذلك لوجود هواء بداخل الأذن يتحرك بتحرك الهواء الخارجى ، وهذا ما يؤكده بقوله : « هناك هواء يوجد متحدا اتحادا طبيعيا بعضو السمع ، وحيث أن عضو السمع فى الهواء ، فاذا تحرك الهواء الخارجى تحرك الهواء الموجود داخل الأذن كذلك ، وهذا هو السبب أن الحيوان لا يسمع بجميع مواضع جسمه » (٦) ·

مما سبق يتضح لنا أن آلة السماع هى الأذن ، وأن باقى الأجزاء الموجودة بالجسم لا تتمتع بالسماع ، لما فى الأذن من هواء داخلى يتحرك بتحرك الهواء الخارجى ، وأن الأصوات نوعان : طبيعية ، وغير طبيعية ، والطبيعية هى أصوات الريح والخشب والجمادات ، أما الغير طبيعية فهى أما حيوانية ، أو غير حيوانية ، فالحيوانية هى أصوات الحيوانات ، أما غير الحيوانية فهى أصوات الناس سواء كانت مفهومة كالكلام أم غير مفهومة كالضحك والبكاء .

ولحاسة السمع ما للحواس الأخرى من قيمة عقلية فهى تدرك الأصوات البعيدة مما يتيح فرصة الاستعداد لمواجهة الموقف بطريقة ناجحة ، كما أن السمع أيضا وسيلة من وسائل الادراك والأمن وهو يفوز بذلك على حاسة البصر،وهذا ما يوضحه علم النفس الفسيولوجى : « السمع كالبصر ، يتيح لنا استقبال المؤثرات الحسية الناشئة من

---

(٥) الجرجانى (الشريف على بن محمد) : التعريفات ، المطبعة الوهبية ، القاهرة ، ١٢٨٣ هـ ، ص ٨٢ ، وانظر الغزالى (أبو حامد) : معارج القدس فى مدارج النفس ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٤٥ ــ ٤٦ ، وانظر أيضا ابن رشد : كتاب النفس ، تحقيق د· أحمد فؤاد الاهوانى ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٠ م ، ص ٣٥ ·

(٦) أرسطو : كتاب النفس ، تحقيق د· أحمد فؤاد الأهوانى ، مراجعة الأب جورج شحاتة قنواتى ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٨١ م ، ص ٧١ ، وانظر العراقى (أ· د· محمد عاطف) : مذاهب فلاسفة المشرق ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨ م ، الطبعة السادسة (كما بين لنا أيضا اخوان الصفا كيف تتم عملية ادراك القوة السامعة للأصوات على اختلاف أنواعها أن الاصوات نوعان : حيوانية وغير حيوانية ذراعان طبيعية وآلية ··· ، وانظر اخوان الصفا الرسائل ، مطبعة نخبة الأخبار ، القاهرة ، ١٣٠٥ هـ ، ص ١٣٧) ·

مصادر بعيدة ومع أن صلاح أحوالنا أقل اعتمادا على رهافة أسماعنا منه على حدة أبصارنا الا أن السمع وسيلة هامة للادراك والأمن »(٧).

هذا هو التعريف العام لمفهوم السماع وآلته من وجهة نظر علماء النفس ، أما عن تعريف السماع من الناحية الشرعية ، فهو ما سوف نتعرف عليه من خلال عرض آراء للأئمة الأربعة ، وكيف نحكم على أن هذا السماع شرعى أم لا .

ثانيا : السماع والكتاب والسنة :

هذا عن السماع عموما ، أما عن تعريف السماع من وجهة نظر الشرع واعتماده على مصدر اسلامى من الكتاب والسنة فهو أن « السمع احساس الأذن بالأصوات ، والسمع كمفردة من مفردات القرآن جاء فى ٢٢ موضعا » (٨) ، قال تعالى :

﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (٩) .

وقوله تعالى :

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (١٠) .

أو يكون السمع بمعنى الأذن نفسها ومنها قوله تعالى :

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١) .

---

(٧) د. أحمد عكاشة : علم النفس الفسيولوجى ، دار المعارف ، ١٩٦٨م ، صص ٩١ : ٩٥ .

(٨) د. أحمد عطية : القاموس الاسلامى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م ، جـ ٣ ، ص ٤٩٧ .

(٩) سورة الشعراء : آية (٢١٢) .

(١٠) سورة الكهف : آية (١٠١) .

(١١) سورة البقرة : آية (٧) .

أو يكون بمعنى الادراك والفهم عن طريق المسموعــات ... أو يكون السمع كذلك بمعنى الطاعــة قــال تعالى :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (١٢) .

كما ورد عدد من الأحاديث النبوية الشريفة التى تحث على السماع وتدعو اليه ، منها قول البراء بن عــازب : (ســمعت رســول الله ـــ ﷺ ـــ يقول « حسنوا القرآن بأصواتكم ، فان الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا » (١٣) .

وينصح الرســول ـــ ﷺ ـــ القــارىء بتحســين الصــوت فى القراءة ؛ ذلك لأن الصوت الحسن يجذب انتباه السامع ويجعله يتفهم معانيه .

وفى الخبر أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ كان ينتظر عائشة (رضى الله عنها ـ فأبطأت عليه ، فقال ما حبسك ؟ فقــالت : يا رســول الله كنت استمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتا منه فقــام ـــ ﷺ ـــ حتى استمع اليه طــويلا ، ثم رجــع فقــال : « هــذا ســالم مولى أبى حذيفة ، الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثله » (١٤) ، واستمع رسول الله أيضا الى قراءة أبى موسى الأشعرى فقال : « لقد أوتى هذا مزمارا من مزامير آل داود » فبلغ ذلك ابا موسى فقال : يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا) (١٥) . (١٦) .

---

(١٢) سورة الأنفال : آية (٢١) .

(١٣) ابن حنبل (الامام أحمد) : مسند ، دار المعــارف ، القــاهرة ، ١٩٥٨ م ، ص ٣ ، وانظر صحيح البخارى ، آداب ٩٠ ، وانظر صحيح الترمذى ، آداب ٦٩ ، أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث البراء بن عازب ، وانظر أبى طالب المكى : قوت القلوب فى معاملة المحبوب . مكتبة الحلبى ١٩٦٤ م : جـ ١ ، ص ١٢٦ .

(١٤) أبو طالب المكى : قوت القلوب فى معاملة المحبوب ، مكتبــة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، جـ ١ ص ١٢٦ .

(١٥) التحبير : التزين والتحسين .

(١٦) ابن قيم الجوزية : روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، مكتبة الحلبى ١٣٠٤ هـ ، ص ٢٦٧ : ٢٦٨ ، وانظر قوت القلوب : جـ ١ ، ص ١٢٦ ، وانظــر صحيح مســلم ، وانظر القشيرى (عبد الكريم بن هوزان) ، تحقيق د. عبــد الحــليم محمود ومحمود ابن الشريف دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٧٤ جـ ٢ ، ص ٦٤٣ ، وانظر د. محمد مصطفى حلمى : علم التصوف ، القــاهرة ، ١٩٨٣ م ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، وانظر السهروردى (شهاب الدين أبو حفص عمر) : عوارف المعــارف ، الجزء الخــامس من احياء علوم الدين ، مكتبة الحلبى ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٨ م ، ص ١٥٦ .

فالسماع لا يقتصر على القرآن الكريم فقط وانما يمتد ليشمل سماع الاشعار والأناشيد الدينية التى تثير السعادة والبهجة الروحية من خلال القيام بالواجبات والأوامر الالهية ، وهذا ما يؤيده الحديث الشريف : روى الأوزاعى عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنهما اجمعين ان ابا بكر — رضى الله تعالى عنه — دخل عليها وعندها جاريتان تغنيان وتضربان على الدفين ورسول الله ﷺ مسجى بثوبه فانتهرهما فكشف رسول الله ﷺ عن وجهه وقال : « دعهما يا أبا بكر فانها أيام عيد » (١٧) .

فالسماع اذن مباح شرعا وله شواهده الصحيحة من الكتاب والسنة ، وذلك ما توضحه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية السابقة ذكرها ، هذا بالاضافة الى القياس الذى قام به ائمة الفقه الأربعة فى محاولة التعرف على السماع الحق (الشرعى) الذى يدعو اليه الحق تعالى وكراهة السماع الشيطانى المخرج عن حدود الشرع (سماع الغناء) ، فقد سئل أبو مصعب مالك بن أنس عن السماع ، « فقال مالك : ما أدرى ، اهل العلم ببلدنا لا ينكرون ذلك ، ولا يقعدون عنه ، ولا ينكره الا غبى جاهل أو ناسك عراقى غليظ الطبع » (١٨) .

اما عن رأى الشافعى ، فانه يذكر فى كتاب ادب القضاء « أن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل والمحال ، ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته » (١٩) .

---

(١٧) روى هذا الحديث بصيغ متعددة ، أخرجه البخارى فى صحيحه (باب العيدين) ، وروواه ابن ماجه فى سننه عن عائشة ، جـ ١ ص ٦١٢ (باب الغناء والدف) ، وانظر الرسالة القشيرية جـ ٢ ، ص ٦٣٩ ، وانظر السراج (أبى نصر) : اللمع تحقيق د. عبد الحليم محمود ، طه عبد الباقى فى سرور دار الكتب الحديثة بمصر ١٣٨٠ هـ — ١٩٦٠ م ، ص ٣٤٥ ، وانظر السهروردى : عوارف المعارف ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٧٤ م ، ص ٩٧٤ ، وانظر أبو الفضل (كمال الدين) ، الامتاع بأحكام السماع ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٦٨ تصوف ، ميكروفيلم ١٢٣٢٥ ، ص ٣٦ ، وانظر الاسكدارى (محمود بن محمد) : كشف القناع عن وجه السماع ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٦٤ فقه تيمور ، ميكروفيلم ٥٠٠٩٥ ، تاريخ النسخ ١٢٨٢ هـ — عدد ورقة ١٥ ، ص ١٠ .

(١٨) ابن القيسرانى (طاهر المقدس) : كتاب السماع ، تحقيق أبو الوفا المراغى ، مكتبة لجنة احياء التراث الاسلامى ، القاهرة ، ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م ، ص ٤٦ .

(١٩) ابن قيم (الجوزية) : حكم الاسلام فى الغناء ، تحقيق ابى حذيفة ابراهيم ابن محمد ، مكتبة الصحابة بطنطا ، ١٩٨٥ م ، ص ١١ ، وانظر كتاب السماع : ص ٤٦ ، ٤٧ ، وانظر ايضا احياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ٢٤٣ .

اذن فالغناء نوع من أنواع اللهو والخبائث التى أنكرها الشرع ودعا الى تركها لما فيه من اثارة الشهوة وأضاعة الأوقات فى الباطل وارتكاب الذنوب ، وهذا ما يوضحه أبو حنيفة عندما جعل سماع الغناء من الذنوب بقوله : « ويجعله من الذنوب ، وكذلك مذهب أهل الكوفة — وسفيان وحماد — ابراهيم — والشعبى وغيرهم .. » (٢٠) .

كما روى عن عبد الله بن أحمد بن حنبل أنه قال « سألت أبى عن الغناء فقال : الغناء ينبت النفاق فى القلب ، لا يعجبنى » ، ثم ذكر قول مالك (انما يفعله عندنا الفساق) » (٢١) .

أما عن اعتبار السماع من أهم شروط الايمان . وارتباطه بالطاعة والعمل بها فليس القرآن الكريم وحده الذى ذكر ذلك وانما كذلك الانجيل والتوراة وجميع الكتب المقدسة ، « فان سماع كلمة الله وقبولها لا يعنى الاستماع اليها باذن مصغية فحسب ، بل يتضمن فتح القلب لها أيضا ، والعمل والطاعة لها تلك هى طاعة الايمان التى يتطلبها سماع البشارة ... ، الا أن الانسان لا يريد أن يسمع وتلك هى درامته (مأساته) ، أنه أصم عن نداءات الله ، وأغلق الأذن والقلب — تلك هى الخطيئة التى واجهها يسوع عند اليهود : « انكم لا تطيقون الاستماع الى كلامى .. ، من كان من الله سمع كلام الله ، فاذا كنتم لا تسمعون فلأنكم لستم من الله ، أن الله وحده فى الواقع هو الذى يستطيع أن يفتح أذن تلميذه » (٢٢) .

فان صح فهمنا لهذه الآيات الكريمة والأحاديث وآراء الأئمة الأربعة من ناحية ، ومذهب الصوفية فى السماع وأنه مختلف فى المظهر متفق فى الجوهر من ناحية أخرى ، استطعنا أن نلتمس لمذهب الصوفية هنا مصدرا قرآنيا لا شبهة فيه ، ولا اختلاف حوله ، وها هى أقوال الصوفية فى السماع ابتداء من الزهاد الأوائل حتى الصوفية المتفلسفين فى القرن السابع الهجرى ، تدل على أن المصادر الأساسية عندهم هى الكتاب والسنة .

ثالثا : معنى السماع عند زهاد القرنين : الأول والثانى للهجرة :

فاذا انتقلنا الى تتبع معنى السماع عند زهاد القرنين : الأول والثانى للهجرة ترى أن البذور الأولى لرياضة السماع كانت موجود عندهم ، فالسماع نسمة روحية تثيرها نفحة الهية فى أصوات تعمل على هياج

(٢٠) حكم الاسلام فى الغناء : ص ١١ ، وانظر عوارف المعارف ، ص ١٦٢ .
(٢١) حكم الاسلام فى الغناء ، ص ١٤ .
(٢٢) معجم اللاهوت الكتابى ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٨٦ م ، ص ٤٣٢ — ٤٣٣ .

ما فى القلوب ، فان هبت هذه النسمة على قلوب طاهـرة وأرواح صـافية تحقق لهذه القلوب المعرفـة الالهية ، وأن هبت على نفوس دنسـة وقلوب محجوبة أثارت من داخلها الغرائز الحيوانيـة والنزعات الشهوانية ، « فالسماع ، اذن ، هو احدى الرياضات الروحية التى يمارسها المريد من أجل التطهر والصفاء وهذا لا يثبت عليه الا أقدام العلماء وقيل السماع مقدحة سلطانيـة لا تقع نيرانهـا الا فيمن قلبـه محترق بالمحبة ونفسه محترقة بالمجاهدة » (٢٣) .

كما يذهب الزهاد الأوائل الى أن السماع يثير مشاعرهم فى الاقبال على الله ـ تعالى ـ والحب له ، ولذلك قسموا الناس فى السماع الى ثلاث درجات ، وأعلى هذه الدرجات هو من كان ساكناً فى سماعه بحيث لا يؤدى سماعه الى اضطراب أو اهتزاز أو غشية ، بل يتدبرون بتفهم معانى المسموع فى هدوء وصمت ، وهذه الدرجة من السماع تثمر فى القلب ما يسمى بالوجـد (٢٤) .

فالسماع الذى يتدبر معانيه ويتفهمـه المريـد هو سماع القرآن الكريم ، أما اذا كان هذا السماع من أجل التلذذ أو شـهوة فهـذا

---

(٢٣) السهروردى (عبد القاهر أبو النجيب) : آداب المريدين ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تصوف ١١٧ مجاميع ـ ميكروفيلم رقم ٥١٨٢٨ ، ١٧٤ ورقـة ، ص ٤٧ ، وانظر تحقيق هذا المخطوط (محمد فهيم شلتوت ، القاهرة ، بدون تاريخ طبع ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، وانظر عوارف المعارف ، ص ١٧٨ ، وانظر « أبو حامد الغزالى » : مكاشفة القـلوب ، الى حضرة عـلام الغيوب ، مكتبـة مصر ، القـاهرة ، ١٩٨٠ م ، ص ٣٦١ ، وانظر قوت القلوب ج ٢ ، ص ١٢٣ ، وانظر ابن عبد السلام (عز الدين) : حل الرموز ومفاتيح الكنوز ، مكتبة جريدة الاسلام ، القاهرة ، ١٣١٧ هـ ـ ١٨٩٩ م ، ص ٦١ ، ٦٢ ، وانظر ابن عجيبـة الحسنى : الفتوحات الالهية فى شرح المباحث الأصلية ، مطبعة الجمالية ، عام ١٣٢١ هـ ـ ١٩١٣ م ، الطبعـة الثانية ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ .

(٢٤) الوجد : قال السراج ، اختلف أهل التصوف فى الوجد : ما هو ؟ فقال عمرو ابن عثمان المكى رحمه الله لا يقع على كيفية الوجد عبـارة ، لأنها سر الله تعـالى عنـد المؤمنين الموقنين وقيل أيضا : ان الوجد مكاشفات من الحق ، ألا ترى أن أحدهم يكون ساكنا فيتحرك ويظهر منه الزفير والشهيق ؟ وقد يكون من هو أقوى منه ساكنا فى وجده لا يظهر منـه شىء من ذلك ، وقال الله تعـالى : (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ...) سورة الحج آية ٣٥ ، انظر أبى نصر السراج الطوسى : اللمع ، تحقيق د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى سرور ، مكتبة دار الكتاب الحديثة بمصر ، القاهرة ، ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠ م ، ص ٣٧٥ ، وانظر احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ ، وانظر الجرجانى : التعريفات ص ٨٢ ، وانظر د. ذكى مبارك : التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق ، مطبعة الرسالة ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨ م ، ط ١ ، ص ٧٣ ، وانظـر أيضـا القشـيرى : الرسالة القشيرية ، ص ٥٧ .

ما يرفضه الزهاد الأوائل خوفاً من أن يصبح عادة تشغل المريد عن عبادته ومراعاة قلبه .

وللسماع عند الصوفية شأن عظيم حتى قيل أن السماع لقوم كالغذاء يتقوى به على الطى والوصال ، ويثير عندهم من الشوق ما يذهب عنهم ألم الجوع ولهب العطش ، وهذا لا يصلح الا لقلب صاف من الأكدار . **فاذا تطلعت نفسه الى الغذاء عدل بها الى السماع** فأثار منه مواجيده ، فشغله ذلك عن الطعام وهو (أى السماع) لقوم كالداء أى يصبح عادة تجعل النفس تسعى دائما الى تحقيق شهواتها ويذهب هيبتها ، وفيه هلاك النفس وقسوة القلب وفساده ، ولقوم آخرين وسيلة للترفيه والترويح عن النفس من متاعب الحياة ، لهذا قيل : « السماع لقوم كالغذاء ولقوم كالدواء ولقوم كالداء ولقوم مروحه » (٢٥) .

كما أدرك الزهاد الأوائل اهمية الأساس العقلى للسماع ، فجعلوا اهتمامهم موجهاً اليه ، وذهبوا الى أن اى سماع لا يقترن بالتعقل والتفهم والالتزام بأوامر الشرع : فلا جدوى منه ولا طائل تحته ، وهذا أعلى درجات السماع التى يؤكدها الحسن البصرى (ت ١١٠ هـ) بقوله : « فالعقل متبوع فيما لا يمنع منه الشرع والشرع مسموع فيما لا يمنع منه العقل لأن الشرع لا يرد ما يمنع منه العقل ، والعقل لا يتبع فيما يمنع منه الشرع ، فلذلك توجه التكليف الى من كمل عقله » (٢٦) .

فالعقل يتبع كل ما يدعو اليه الشرع من حلال أو حرام ، وكذلك الشرع يسمح بكل ما لا يمنع منه العقل ؛ ذلك لأن الشرع لا يرد ما يمنع منه العقل ، أى انهما وجهان لشىء واحد هو السماع الحسن .

---

(٢٥) السهروردى (ابو نجيب) : آداب المريدين ، ص ٥٠ ، وانظر أيضا الشهروردى (أبو حفص شهاب الدين) : عوارف المعارف ، ص ١٩٧ .

(٢٦) البصرى (أبى الحسن) : كتاب أدب الدنيا والدين ، المطبعة الأميرية ، ١٣١٤ هـ — ١٩٢٣ ، ص ٣٦ ، ٦٩ . (أبو سعيد الحسن البصرى ، كان والده من أهل مسيانه فسبى ، فهو مولى الانصار ، وكان من ابرز زهاد البصرة واحد كبار الزهاد فى القرن الأول وأوائل الثانى للهجرة ، توفى سنة عشر ومائة للهجرة ، انظر الشعرانى (عبد الوهاب) ، الطبقات الكبرى ، مكتبة صبيح ، القاهرة ، ١٣٤٣ هـ ، ج ١ ، ص ٣٩ . وانظر ابن العماد . شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، الطبعة الثامنة ، دار المعارف ، ١٩٨٠ م ، ج ١ ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ ، وانظر نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ، ج ٣ ، ص ١٢٨ ، وانظر محمد مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الاسلام ، دار احياء الكتب العربية ، ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م ، ص ٧٢ ، وانظر الشعرانى (عبد الوهاب) : المنن الكبرى ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٢٢ تصوف ، ميكروفيلم ٣٣٠٦٠ ، بدون ترقيم صفحات .

ويربط الزهاد الأوائل أيضاً بين السماع ومجاهدة النفس اذ يجب على المريد أن يزهد فى سماعه بأن يترك حظوظ الدنيا التى يثريها السماع وأن يتذكر الحق تعالى فى سماعه والشوق الدائم اليه من خلال سماع القرآن الكريم وسماع الأشعار والأناشيد الدينية التى تحثه على الطاعة والقيام بأوامر الحق ونواهيه ، وتشوقه الى الجنة وترهبه من النار ، وهذا ما يؤكده قول عطاء بن أبى رباح (ت ١١٥ هـ) : « أن من سمع فظهرت عليه صفات نفسية ، وذكرته حظوظ دنياه ، فالسماع عليه حرام ، ومن سمع فظهر له به ذكر ربه وتذكر به أجل ما شوق الله اليه ، وأعده لأوليائه فهو له ذكر من الأذكار » (٢٧) .

وهكذا يرى الزهاد الأوائل أن اباحة السماع تتوقف على نوعية السماع ، فاذا كان موضوع السماع يعمل على مجاهدة النفس ويقظتها والتخلى عن أهوائها ، كان هذا السماع حسناً ، أى أن من صح فهمه وحسن قصده وتخلى عن الشهوات ، وتطهر من دنس وخبث النفس لا يكون سماعه حراماً ولا فعله خطأ ، وعن ابن جريج أنه كان يرخص فى السماع « فقيل له أيؤتى به يوم القيامة فى جملة حسناتك أو سيئاتك فقال لا فى الحسنات ولا فى السيئات لأنه شبيه باللغو (٢٨) قال تعالى :

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (٢٩) .

---

(٢٧) قوت القلوب : جـ ٢ ، ص ١٢٣ .

(هو عطاء بن أبى رباح ، حج عطاء سبعين حجة وتوفى بمكة سنة خمس عشرة ومائة ، انظر الطبقات الكبرى ، جـ ١ ، ص ٤٣) .

(٢٨) اللغو : ما يلهى عن الله ، ويقال اللغو ما لا يوجب وسيلة عند الله ، ويقال هو ما صدر عن قلب غافل ويقال هو ما يوجب سماعه اللهو انظر القشيرى (عبد الكريم بن هوزان) لطائف الاشارات ، تفسير صوفى كامل للقرآن الكريم ، تحقيق ابراهيم بسيونى ، دار الكتاب العربى ، ١٩٦٨ ، جـ ٥ ، ص ٧٣ .

(٢٩) سورة البقرة : آية (٢٢٥) .

فهو من المباحـــات وأما الطلخانات فهو من البدع التى لا بأس بها اذا أصبحت الية فيها ودعت الحاجة اليها (٣٠) ٠

فالسماع ــ اذا ــ على ضربين : ضرب يتعلق بالمستمع ، منبعه نفس المستمع وقلبه الملوث بحب الدنيا يستمع تكلفا لطلب جاه بأن يشار اليه بالمشيخة وغلبة الحال والوجد أو منفعة دنيويـــة من مـــال أو طعام أو سمعه ، وذلك مذموم لما فيه من التلبس على العـــامة باظهار ما ليس فيه ٠

وأما الضرب الثانى منه فمحمود وهو التكلف الراجـــع الى نفس السماع بأن يتكلف فى تحصله وهو طلب حصول حقيقة السماع وهذا ليس بمذموم كمن يطلب الوجد بالتواجـــد وذلك على حـــد قول مالك بن دينار (ت ١٣١ هـ) : « ان الصديقين اذا قرىء عليهم القرآن ، طربت قلوبهم الى الآخرة » (٣١) ٠

يتضح لنا أيضاً أن الزهاد يصطنعون السماع للوصول الى حـــال الوجد (٣٢) وهو حالة نفسية يشعر الانسان خلالها بأن قلبه معلق بالحق تعالى وأن روحه تميل الى اتصال به من خلال الشوق والحب الذى يسيطر على كل جوارحه وحينئذ تصدر عنه شهقة أو رعـــدة أو تفيض عينه بالدموع أو يغشى عليه ، وفى نفس الوقت يفنى عن نفسه وجميع ما حوله ويبقى بالحق تعالى ، وهذا يتضح من خـــلال استعراض

---

(٣٠) الهروى (على بن محمد سلطان) : فتح الأسماع فى شرح السماع ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨ تصوف مجاميع ، ميكروفيلم رقم ٥١٨٦١ ، ص ٦٠ ، وانظر حل الرموز ومفاتيح الكنوز : ص ٦٠ ، وانظر الكورانى (نفيس الكردى والغزالى) ، بوارق الالماع فى تكفير من يحرم السماع ، مخطوط بدار الكتب ١٧٨ م مجـــاميع ، ميـــكروفيلم رقم ٤٥٣٢ ، ص ٢٥ ، وانظر الغزالى (أبو حامد : مكاشفة القلوب المقرب الى حضرة علام الغيوب ، ص ٣٦١ ، ٣٦٢ ، وانظر التصوف الاسلامى الخالص : ص ص ٧٧ : ٧٨ ، وانظر أيضا الرسالة القشيرية ، ص ٢٦١ ٠

(٣١) الأصفهاني (أبى نعيم) : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، بيروت ، ١٩٦٧ م ، ج ٢ ، ص ٣٥٨ ٠ وانظر أيضا ابن الجوزى : صفة الصفوة ، مكتبة النهضة الجديدة ١٩٧٠ م ، ص ٢٠٧ ٠

(٣٢) الوجد : اما أن يكون ضعيفا أو يكون قويا ، والذى يحجب المريد عن الوجد هو رؤية آثار النفس والتعلق بالأسباب والعلائق الخارجيـــة التى تحجب النفس عن رؤية أو مشاهدة النور الالهى فى حال الوجد ، ولهذا قال أبو سعيد بن الاعرابى : (الوجد مشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب) ، انظر احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ ، وانظر أيضا ص ٢٧ فى هذا الفصل ، فالوجد اذن ما يصـــادف القلوب ويرد عليه بلا تكلف وتصنع وقيل هو بروق تلمع ثم تخمد سريعـــا ٠

بعض أحوال الزهاد ، « يحكى أن ابراهيم بن أدهم (ت ١٦١ هـ) : سمع قارئاً يقرأ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١﴾ فاضطربت أوصاله وارتعدت»(٣٣).

وتذكر المصادر أن سفيان الثورة (ت ١٦١ هـ) كان يستمع الى آيات العذاب فيطيش ويخرج هائماً ، وكان يقرأ يوماً فى الزوال فمر بهذه الآية : ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ فخرج هارباً هائماً على وجهه حتى رده أصحابه الى الكوفة (٣٤) .

ويذهب الصوفية الى أن القلب اذا صفا وخلا من حب الشهوات والأهواء وعمر بحب الله واستنار بنوره من خلال سماعه للقرآن الكريم أو ذكر الحق تعالى ، ظهر به الخوف والحزن على ارتكابه الذنوب والندم عليها وفاضت عيناه وبكى ، وهذا يتضح من أحوال الفضيل ابن عياض (ت ١٨٧ هـ) : « كان الفضيل من الفريق الأول اذا ذكر الله أو سمع القرآن ، ظهر به الخوف والحزن وفاضت عيناه وبكى »(٣٥)، فالمريد الصادق فى وجده مع الحق تعالى لا تكون له ارادة بل تكون كل حركاته واهتزازاته بتوجيه من الحق تعالى ، لأنه قد فنى عما سواه وشعر بالنور الالهى فى وجده .

وقد جعل بعض الزهاد ومنهم الفضيل بن عياض أهل السماع على طبقات ثلاث : طبقة العوام وهم من يحرم عليهم السماع لعدم مجاهداتهم وغفلة القلب ، وطبقة المريدين المبتدئين مكروه لهم السماع

---

(٣٣) المناوى (عبد الرءوف) : الكواكب الدرية ، مكتبة الأزهر عام ١٣٥٧ هـ ــ ١٩٣٨ م ، جـ ١ ، ص ٧٤ ، سورة الانشقاق : آية (١) .

(ابراهيم بن أدم كان من كورة بلخ من أولاد الملوك ، انظر الطبقات الكبرى ، جـ ١ ، ص ٧٦ ، وانظر نيكلسون (رينولد) : فى التصوف الاسلامى وتاريخه ، ترجمة وتعليق د. أبو العلا عفيفى ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، ١٣٨٨ هـ ــ ١٩٦٩ م ، ص ٤٨ .

(٣٤) نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام : جـ ٣ ، ص ٢٤٢ ، ١٧٤ ، سورة المدثر : آية ٧ ، ٨ ، ٩ (سفيان بن سعيد الثورى ، ولد سنة سبع وتسعين ، وتوفى بالبصرة سنة احدى وستين ومائة ، وكان عالم الامة وعابدها وزاهدها ، انظر الطبقات الكبرى : جـ ١ ، ص ٥٢ .

(٣٥) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : جـ ١ ، ص ١٩٨ ، وانظر الطبقات الكبرى : جـ ١ ، ص ٧٥ : ٧٦ (أبو على الفضيل بن عياض خرسانى من ناحية مرو وقيل أنه ولد بسمرقند ونشأ بأبيور ومات بمكة فى المحرم سنة سبع وثمانين ومائة ، انظر الرسالة القشيرية ، ص ١٥ ، وانظر الطبقات الكبرى : جـ ١ ، ص ٧٥) .

خوفاً عليهم من بقاء نفوسهم فيه ، وطبقة العارفين وهم أهـل الصفا واليقظة القلبية في السماع ، وهو مباح لهم ، وهذا ما يوضحه بقوله : « السماع على العوام حرام لعدم مجاهداتهم وعلى المريدين مكروه لبقـاء نفسهم ، ومبـاح للعـارفين لصفـاء قلوبهم » (٣٦) .

مما سبق ، يتضح لنا أن معنى السماع عند زهاد القرنين الأول والثانى للهجـرة ، هو سماع القرآن الكريم والأحاديث والأشعـار الدينية التى تدعو الى القيام بواجبات الشرع ونواهيهوالتذكر الدائم بالوعد والوعيد، وهذا المعنى مستمد من العديد من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية ، وهو السماع المباح شرعا ، عـكس السـماع الشيطانى الذى يدعو الى غفلة القلب واثارة الشهوة ، كما يتضح أيضاً أن القلب اذا صفا من الشهوات تمتع بمشاهدة النور الالهى فى حـال الوجـد .

رابعـا : معنى السماع عند صوفية القرنين : الثالث والرابع للهجرة :

لقد استخدم صوفية الاسلام فى القرنين الثالث والرابع السمـاع أحياناً بنفس معناه الذى سبق عند زهاد القرنين : الأول والثانى للهجرة الا أنهم قاموا بتعميقها وتحليلها واضافوا اليها العديد من المعانى ، فالسماع عندهم قد أصبح وسيلة أو أداة لاظهار حالة كامنة فى القلب من خلال الاستماع الى الأشعار والنغمات الموزونة .

وانّ السماع لا يجعل فى القلب ما ليس فيه ، ولكن يحـرك ويهيج ما هو فيه ، وهذا ما يوضحه قول أبى سليمان الدارانى (ت ٢١٥ هـ) : « السماع لا يجعل فى القلب ما ليس فيه ولكن يحرك ما هو فيه ، فالترنم بالكلمات المسجعة الموزونة معتاد فى مواضع لأغراض مخصوصة ترتبط بها آثار فى القلب وهى سبعة مواضع ، الحجيج .. ، ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغـزو ... ، أصـوات النياحـة ونغماتها .. ، الغناء فى أيام العيد وفى العرس ... ، سماع العشاق تحريكاً للشوق وتهييجاً للعشق وتسلية للنفس .. ، سماع من أحب الله وعشـقه واشتاق الى لقائه » (٣٧) .

---

(٣٦) الهروى (ابراهيم الانصارى) : كشف القناع عن حكم الوجد والسماع ، تحقيق ودراسة قسم التحقيق بدير الادباء الدومينكين ، دار الصحابة للتراث بطنطا ١٩٩٣ م ، ص ٣٦ .

(٣٧) الغزالى (ابو حامد) : احياء علوم الدين ، مطبعة الحلبى ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م ، جـ ٢ ، صص ٣٥١ : ٣٥٢ (أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الدارانى ، داران قرية من قرى دمشق مات سنة خمس عشرة ومائتين ، وكان يقول من صدق فى ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه والله تعالى أكرم .. انظر الرسالة القشيرية : ص ٢٥ ، وانظر الطبقات الكبرى ، جـ ١ ، ص ٨٨) .

من ذلك يتضح لنا أن صوفية هذه الفترة قد حددوا بعض المواضع التى يجوز الترنم فيها بالكلمات والأشعار الموزونة ، مثل الغناء فى العمل والسفر ، حيث اعتاد الناس استعماله فى حمل الأثقال وقطع مفاوز السفر والطرق الصحراوية الطويلة ترويحاً للنفوس وتنشيطا لها مثل حداء الراعى وراء الابل والأغنام ، وغناء الأمهات لاسكات أولادهن . والغناء فى الحجيج للتعبير عن مشاعرهم برؤية البيت الحرام ، وكذلك الغناء وقت الغزو لشد حماسهم واستحضار العزائم مثلما فعل المسلمون فى حفر الخندق وغيرها أيام الرسول ﷺ .

ويذهب الصوفية أيضاً الى أنه لكى يتحقق المريد بالسماع الحسن لا بد له من الالتزام بآداب السماع وتعاليمه ، فمن التزم وتحقق بهذه التعاليم تحقق بالسماع الحسن ، أما اذا أصغى بنفسه الى السماع المثير لشهواتها وأهوائها تزندق وخرج عن حدود السماع الحسن ، وهذا ما يشير اليه ذو النون المصرى (ت ٢٤٥ هـ) بقوله : « انه وارد حق يزعج القلوب الى الحق فمن أصغى اليه بحق تحقق ، ومن أصغى اليه بنفس تزندق » (٣٨) .

فالالتزام بالكتاب والسنة فى الوجد الناتج عن السماع شرط أساسى لا يمكن الاخلال به والا يصبح هذا السماع باطلا ، فمن كان قلبه ضعيفاً ملوثاً بحب الدنيا لا يصح له السماع ، ذلك لأن السماع الطيب يستلزم القلب النقى الصافى البعيد عن الاهتمام بالشهوات والاهواء ، وهذا ما يؤكده قول سهل التسترى (ت ٢٨٣ هـ) بقوله : « كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل فلا يصح السماع لمن قلبه يعد ملوثاً بحب الدنيا أو شهوة المجهرة (٣٩) .

---

(٣٨) احياء علوم الدين : جـ ٢ ، ص ٣٧٢ ، وانظر اللمع : ص ٣٤٢ ، وانظر الرسالة القشيرية : ص ٢٦٤ ، وانظر د. عبد الحليم محمود : العارف بالله ذو النون المصرى ، دار الكتب ١٩٧٣ م ، ص ١٥٧ .

(أبو الفيض ذو النون المصرى ، اسمه ثوبان بن ابراهيم ، كان أبوه نوبيا توفى سنة خمس وأربعين ومائتين بالجيزة بمصر ، الطبقات الكبرى : جـ ١ ، ص ٧٧ ، وانظر مجمع اللغة العربية : المعجم الكبير ، المجلد الأول القسم الأول (الأخميمى) ، المطبعة الأميرية ، ١٩٥٦ م .

(٣٩) فتح الأسماع فى شرح السماع : ص ٨٦ .

(أبو محمد سهل عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع التسترى ، صحب خالد ومحمد بن سوار ، مات سهل سنة ثلاثة وثمانين ومائتين ، انظر الطبقات الكبرى : جـ ١ ، صص ٨٥ : ٨٦ ، وانظر طبقات الصوفية : ص ١٩٩ ، وانظر أيضا أحمد عطية الله : القاموس الاسلامي ، مكتبة النهضة المصرية ، عام ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م ، جـ ٣ ، ص ٥٤١ .

كما يتبين لنا أيضا أن الزهاد الأوائل قد قسموا السماع الى ثلاثة أقسام : العوام فسماعهم حرام عليهم خوفاً من بقاء نفوسهم فى السماع واستلذاذه ، ومن ثم يصبح عادة تشغلهم عن القيام بالطاعات وأوامر الحق تعالى ، وسماع الزهاد وهو مباح لهم اذا كان يعمل على مجاهدتهم ويقظة قلوبهم وعدم الغفلة وقت السماع وسماع العارفين وهو مستحب لهم لما فيه من حياة قلوبهم بالحق تعالى ، واعتبـاره غذاء لأرواحهـم لا يمكن الاستغناء عنه ، وقد أكد هذا المعنى وعمقه بعض صوفية تلك الفترة ، فقد ذهب أبو القاسم الجنيد (ت ٢٩٧ هـ) : « النـاس فى السماع على ثلاثة أضرب : العوام ، والزهاد ، والعارفون ، فأما العوام فحرام عليهم لبقاء نفوسهم ، وأما الزهاد فيباح لهم لحصول مجاهدتهم وأما أصحابنا فيستحب لهم لحياة قلوبهم » (٤٠) .

ونلاحظ أن السماع عند صوفية هذا العهد يحصل به رقة القلب وخشوعه وآثاره الشوق الى لقاء الله والتشوق الى دار القرار والخوف من عدم استقامة الظاهر والباطن حتى يستخرج السماع من قلوبهـم أنواعاً من اللطايف والمعارف والمكاشفات الالهية ، وهذا ما يوضحـه ابن مسروق (ت ٢٩٩ هـ) : « عندما سئل عن الرباعيات فقال : أن ابحنا لها رخصة ، أى تتخطى الى رخص ، ولا أرى سماع الرباعيـات فقال : الا لمستقيم الظاهر والباطن ، قوى الحال ، تام العلم » (٤١) .

---

(٤٠) بوارق الالماع فى تكفير من يحرم السماع : ص ٣٤ ، وانظر الهيتمى (ابن حجر) كف الرعاع عن محرمات اللهو والسـماع ، حكم الاسـلام فى الغنـاء والموسيقا والشطرنج ، تحقيق عادل عبد المنعم أبو العبـاس ، مكتبة القرآن ، ١٩٨٩ م ، ص ٢٦ ، وانظر الكلاباذى (أبو بكر محمد : التعريف لمذهب أهل التصوف ، تحقيق محمود أمين النواوى ، مكتبة الكليات الأزهرية عام ١٤٠٠ هـ ــ ١٩٨٠ م ، الطبعـة الثانية ، ص ١٩١ ، وانظر أيضا معجم مصطلحات الصوفية : ص ١٣٤ ، وانظر قول أبو عثمان الحيرى فى الرسالة القشيرية : ص ٢٦٦ .

(سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد بن محمد الزجاج ، كان أبوه يبيع الزجاج ، فلذلك يقال له القواريرى أصله من نهاوند ومولده ومنشؤه بالعراق صحب السر السقطى والحرث المحاسبى ومحد بن على القصاب ، مات سنة سبع وتسعين ومائتين ، انظر الطبقات الكبرى ، جـ ١ ، ص ٩٣) .

(٤١) عبد الرحمن السلمى : طبقات الصوفية ، طبعة الخانجى عام ١٩٥٣ ، ص ٣٣٩ .

(ابن مسروق من افضل أهل طوس ، سكن بغداد ومات بها سنة تسع وتسعين ومائتين ، انظر الطبقات الكبرى : جـ ١ ، وانظر أيضا طبقات الصوفية ، طبعة ليدن ، ١٩٦٠ م ، ص ٢٣٣) .

ومن بين هذه الأقوال المتعمقة فى السماع قول أبى بكر الكتانى (ت ٣٢٢ هـ) : « سماع العوام على متابعة الطبع وسماع المريدين رغبة ورهبة ، وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعماء ، وسماع العارفين على المشاهدة وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان ولكل واحد من هؤلاء مصدر ومقام » (٤٢) .

وكذلك يرى صوفية القرنين : الثالث والرابع أن السماع يعرض صاحب النفس الضعيفة للبلية والهلاك ، أما صاحب النفس القوية من خلال مجاهدتها وقمعها وامانة شهواتها والقلب الحى بنور الحق يكون سماعه عبرة وعظة ؛ ذلك لأنه يتدبر معانى الكلمات المسموعة ، ولا يسمع من أجل الالتذاذ فقط ، وهذا ما يشير اليه الشبلى (٣٣٤ هـ) : « عندما سئل عن السماع فقال ظاهره فتنة وباطنه عبرة فمن عرف الاشارة حل له استماع العبرة والا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية ، وقيل لا يصح السماع الا لمن كانت له نفس ميتة وقلب حى فنفسه ذبحت بسيوف المجاهدة وقلبه حى بنور الموافقة »(٤٣) مما سبق ، يتضح لنا أن صوفية القرنين : الثالث والرابع للهجرة قد عمقوا المعانى المختلفة للسماع عند الزهاد الأوائل وتناولوها بالتحليل والتدقيق ، فهم قد تحدثوا عن السماع وارتباطه بالكتاب والسنة ، وفناء النفس ومجاهدتها وقت السماع ، كما أباحوا سماع الأشعار والانشاد الدينى وانشاد الحجيج وعند الغزو وكل ما لا يثير كوامن النفس وشهواتها .

---

(٤٢) طبقات الصوفية : ص ٣٧٥ طبعة الخانجى ١٩٥٣ م ، وانظر عوارف المعارف : ص ١٦٦ ((هو محمد بن على بن جعفر الكتانى وكنيته أبو بكر ويقال أبو عبد الله وأبو بكر أصح ، أصله من بغداد صحب الجنيد وأبا سعيد الخراز وأبا الحسن النورى ، أقام بمكة الى أن مات سنة أثنين وعشرين وثلاثمائة ، انظر الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ١٧٢ ، وانظر أيضا طبقات الصوفية ، طبعة ليدن ، ص ٣٨٦) .

(٤٣) اللمع : ص ٣٤٢ ، وانظر الرسالة القشيرية : ص ٢٦٥ ، وانظر بوارق الالماع فى تكفير من يحرم السماع : ص ٣ ، وانظر عبد الغنى النابلسى : الحديقة الندية شرح الحديقة المحمدية ، دار الكتب عام ١٩٢١ م ، ج ٢ ، ص ٤٠٧ ، وانظر معجم مصطلحات الصوفية : ص ١٣٤ ، وانظر الامام أحمد الغزالى : بوارق الالماع فى تكفير من يحرم السماع ، تحقيق هشام عبد العزيز ، مجلة القاهرة ، عدد ١٤٨ مارس ١٩٩٥ م ص ١٦٤ – ١٨٥ .

(أبو بكر بن حجرد الشبلى ، خرسانى الأصل بغدادى المولد والمنشأ ، صحب أبا القاسم الجنيد ومن عاصره من المشايخ ، عاش سبعا وثمانين سنة ، ومات سنة أربع وثلاثين وثلثمائة ودفن ببغداد فى مقبرة الخيزران ، انظر الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ١١٥) .

خامسا : معنى السماع عند الصوفية السنيين :

اذا نظرت فى أقوال الصوفية نظرة فاحصة وجدت أنهم مختلفون فى الظاهر ، متفقون فى الباطن ، هذا الاختلاف الظاهرى فى أقوالهم يكشف الغطاء عن اتفاقهم فى حقيقة السماع ، فمنهم من أنكر السماع ، ومنهم من أجاز السماع مع عدم الاشتغال به .

كما أشار صوفية الاسلام فى هذه الفترة الى نفس معانى السماع عند صوفية القرنين : الثالث والرابع للهجرة ، وهو أن السماع على ثلاث درجات ، وهو الذى يكشفه أبو نصر السراج (ت ٣٧٨ هـ) « أهل السماع على ثلاث طبقات : طبقة منهم يرجعون فى سماعهم الى مخاطبات الحق لهم فيما يسمعون ، وطبقة منهم يرجعون فيما يسمعون الى مخاطبة أحوالهم ومقاماتهم فهم مربوطون بالعلم ومطالبون بالصدق ..، وطبقة منهم الفقراء المجردون الذين قطعوا العلايق ولم تتلوث قلوبهم بمحبة الدنيا والجمع والمنع فهم يسمعون بطيبة قلوبهم ويليق بهم السماع فهم أقرب الناس الى السلام وأسلمهم من الفتنة وكل قلب ملوث بحب الدنيا فسماعه سماع طبع وتكلف » (٤٤) .

فأعلى درجات السماع عند الصوفية هى درجة المريد الذى يرى الحق تعالى فيما يسمعه ، فكأنه يخاطب الحق تعالى ، أما الطبقة الثانية فيسمع فيها المريد حسب المقام أو الحال الذى هو عليه ، وهذه الدرجة تستلزم من السامع أن يكون صادقاً فيما يسمعه عالما بمعانى المسموع متدبراً لما تحتويه هذه المعانى ، والطبقة الثالثة والأخيرة فى السماع هى طبقة الزاهدين الذين قطعوا العلايق ولم تتعلق قلوبهم بحب الدنيا وشهواتها ، فهم يسمعون سماع طبع لا تكلف أو تصنع فيه ، وهذا ما أوضحه قول أبى نصر السراج السابق .

كما يتضح لنا أيضاً أن السماع عند القشيرى (٤٥) (ت ٤٦٥ هـ)،

---

(٤٤) أبو نصر السراج : اللمع ، ص ٢٥١ ، وانظر السهروردى : آداب المريدين ، ص ٤٩ ، وانظر ابن قيم الجوزية : تلبيس ابليس ، مكتبة النهضة ١٩٢٨ م ، ص ٢٤٨ . قول أبى على الدقاق ، (أبو نصر عبد الله بن على السراك الطوسى ، الملقب بطاووس الفقراء ، ص ٢٤٨ (ت ٣٧٨ هـ) يقول عنه صاحب النفحات هو عبد الله بن على بن محمد ابن يحيى الصوفى الزاهد ، صاحب اللمع فى التصوف ، انظر اللمع : ص ١٢ : ١٤ .

(٤٥) هو أبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى ، ولد فى شهر ربيع الأول سنة ست وسبعين وثلثمائة وتوفى صبيحة يوم الأحد سادس عشر ربيع الآخر سنة خمس وستين وأربعمائة بمدينة نيسابور ، انظر الرسالة القشيرية فى علم التصوف ، شرح زكريا الانصارى ، ص ١) .

كالداء لطبقة العوام لأنهم يأخذون بظاهر الأمور ولا يعرفـــون حــق المعرفة ، ذلك لأن معرفتهم ضعيفة ، فاذا غلبت عليهم صفات النفس يخاف عليهم من السماع من تهييج الشهوات واثارة الأفات المستكنة ، ولقوم كالغذاء وهم الذين يفنون عن أنفسـهم وجميع ما حولهم ويبقـــون بالحق تعالى ، ولقوم وسيلة للترفيه ، والترويح عن نفوسـهم ، والصادق فى طلبه مقصور الهمة على قهر نفسه واحياء صفات القلب فيراعى أوقاته ، ويعالج باطنه بما يوافقه ، هذا ما يوضحه بقوله : « فاعلم أن السماع لقوم كالداء وهم العوام الذين مصدر سمـاعهم مكروه اللذات العاجلة فهؤلاء سماعهم على متابعة الطبع لأنهم يعرفون ما وراء الأمور الطبيعية ... لقوم كالدواء وهم الذين يغلب السماع على نفوسهـــم العايقة أرواحهم عن الحضرة الالهية باستئناسه لها ، ولقوم كالغـــذاء وهم أرباب القلوب الداعية الى التواب .. ، ولقوم كالمروحة وهم أرباب البقاء تستروح أرواحهم عن نفوسهم المطمئنة بالسماع » (٤٦) .

ويرى الغزالى (ت ٥٠٥ هـ) أنه مهما كان للســـماع من تأثير فى القلب فاننا لا نستطيع أن نحكم باباحته أو تحريمه بشكل مطلق ؛ لأن السماع يختلف حسب الأحوال التى يقال فيها ويختلف أيضاً بحسب الأشخاص الذين يسمعون ، كما يختلف أيضاً باختلاف النغمات ، فحكمه حكم ما فى قلب السامع ، وهذا ما يوضحه بقوله : « ومهما كان النظر فى السماع باعتبار تأثيره فى القلب لم يجز أن يحكم فيه مطلقاً باباحته أو تحريمه بل يختلف ذلك بالأحوال والأشخاص واختلاف طرق النغمات فحكمه حكم ما فى القلب » (٤٧) .

كما يذهب الغزالى الى أنه كما أن حاسة الشم تستلذ بالـــروائح الجميلة ، وحاسة البصر تستلذ بالنظر الى الحضرة فـــان استـــلذاذ

---

(٤٦) رسالة فى السماع والتواجد : المؤلف مجهول ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تصوف رقم ٦٩٥ ، ميكروفيلم رقم ٣٧٥١٢ ، عدد ورقة ٨ ، ص ١ .

(٤٧) احياء علوم الدين : جـ ٢ ، ص ٣٤٥ .

(يعتبر الامام الغزالى أكبر مدافع فى الاسلام عن التصوف : هو محمد بن محمد ابن محمد بن أحمد بن أحمد الملقب بأبى حامد والمعروف لعلو مكانته بحجة الاسلام ، وقد ولد بطوس من أعمال خراسان عام ٤٥٠ هـ ، وظل الغزالى ملازما أستاذه الجوينى الى أن توفى هذا الأخير سنة ٤٧٨ هـ وانتقل الى ربه سنة ٥٠٥ هـ ، وقد ألف عددا ضخما من الكتب والرسائل ، انظر أ. د. أبو الوفا التفتازانى : مدخل الى التصوف الاسلامى ، دار الثقافة عام ١٩٧٤ م ، صص ١٨٢ : ١٨٣ .

السماع بالأصوات الجميلة والنغم الطيب مباح شرعاً ، وهذا ما يوضحه بقوله : « السماع هو استماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى ، محرك للقلب ، وليس فى جملته الا التذاذ حاسة السمع والقلب ، فهو كالتذاذ حاسة البصر بالنظر الى الحضرة التذاذ القلب به » (٤٨) .

ويكشف الغزالى عن دلالة السماع بالنسبة للانسان خاصة فيذهب الى أن للسماع تأثيراً غريباً على الانسان ، فان لم يتأثر الانسان بما يسمع فهو ناقص العقل بعيد عن الشفافية والروحانية ويصبح مثل الجمادات التى لا تتأثر بالسماع .

والسماع له تأثير أيضاً على الحيوانات والطيور ، فقد كانت الطير تقف على رأس داود عليه السلام لاستلذاذها بصوته ، واذا كان الطير يتأثر بالسماع فمن باب أولى أن يتأثر الانسان بالسماع ، وهذا ما يوضحه الغزالى بقوله : « فاذا للسماع تأثير غريب ، ومن لم يحركه السماع فهو ناقص العقل مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية ، وكان الطير يقف على راس داود عليه السلام لاستماعه صوته » (٤٩) .

ويعتبر ابن حزم الأندلسى (ت ٤٥٦ هـ) من المفكرين المسلمين الذين أباحوا السماع ؛ ذلك لأن الانسان فى نظر الاسلام عند ابن حزم روح وعقل وجسم ، ويجب أن يعطى لكل منهم حقه فى الغذاء اللازم له ، فالطعام غذاء للجسم والمعرفة غذاء للعقل والسماع غذاء للروح ؛ وذلك من أجل انسجام الحياة وتكاملها .

فسماع القرآن الكريم أمر لا جدال حوله مثله فى ذلك مثل باقى علماء الدين والصوفية ، أما عن موقفه من سماع الغناء ، فابن حزم يرى أن الغناء « فن سمعى من الفنون الجميلة .. ، مباح ولكن تركه أفضل ، كسائر فضول الدنيا التى أباحها الدين الاسلامى الحنيف ، ويستند ابن حزم فى قوله باباحة الغناء الى النصوص القرآنية الكريمة والأحاديث المروية عن النبى — عليه الصلاة والسلام — فى عدم تحريمها الغناء [فلا يحل تحريم شىء ، ولا اباحته الا بنص من الله تعالى أو من رسوله عليه السلام لأنه اخبار عن الله تعالى ، ولا يجوز أن يخبر عنه تعالى الا بالنص الذى لا شك فيه] » (٥٠) .

---

(٤٨) الغزالى : المرشد الامين الى موعظة المؤمنين من أحياء علوم الدين ، مطبعة الحلبى ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م ، الطبعة الثالثة ، ص ١١٠ ، وانظر احياء علوم الدين . ج ١ ، ص ٢٦٩ .

(٤٩) احياء علوم الدين : ج ٢ ص ٣٥١ ، وانظر المرشد الأمين الى موعظة المؤمنين : ص ١١٢ .

(٥٠) ابن حزم : الأخلاق والسياسة ، تحقيق صلاح الدين بسيونى رسلان ، مكتبة نهضة الشرق ، ١٩٨٥ ، ص ص ٢٨٤ : ٢٨٥ .

وعلى ذلك فسماع الغناء عند ابن حزم لا يتعارض بحال من الأحوال مع قواعد الشريعة الاسلامية التى تدعو الى الترويح عن النفس الانسانية اعانة لها على العمل ، وسماع الغناء يخفف عن الانسان أعباء الفكر ومتاعب الحياة ، والقلوب اذا أكرهت عميت ، وترويحها اعانة لها على الجد ومواصلة الطاعات ، وهذا ما يؤكده بقوله : « اللهو مروح للقلوب مخفف عن الانسان أعباء الفكر ، والقلوب اذا أكرهت عميت ، وترويحها اعانة لها على الجد ، فالمواظب على التفقه مثلا ينبغى ان يتعطل يوماً فى الأسبوع ويفضل له يوم الجمعة ، لأن عطلة يوم تبعث على النشاط فى سائر الأيام .. ، فالعطلة معينة على العمل ، واللهو معين على الجد » (٥١) .

وعلى ذلك فسماع الغناء عند ابن حزم لا يحرم شرعاً ما دام يدعو الى العمل والجد ويلتزم فيه صاحبه بآداب الشريعة ، أى اباحة سماع الغناء الغير مثير للشهوة ، ومن الأحاديث النبوية التى يستند اليها ابن حزم فى دعوته الى اباحة الغناء ، « الحديث المروى عن السيدة عائشة أم المؤمنين أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان تغنيان فى أيام منى وتضربان بالدفوف ورسول الله مسجى بثوبه فنهرهما أبو بكر فكشف رسول الله عن وجهه فقال : « دعهما يا أبا بكر فانهما فى أيام عيد » والحديث المروى عن أبى داود السجستانى عن نافع قال : سمع ابن عمر مزمارا فوضع أصبعيه فى أذنيه ونأى عن الطريق ، وقال يانافع هل تسمع شيئا ؟ قال : لا فرفع أصبعيه وقال : كنت مع رسول الله فسمع مثل هذا ، فصنع مثل هذا ، فلو كان حراما ما أباح رسول الله لابن عمر سماعه ولا أباح ابن عمر لنافع سماعه .. » (٥٢) .

---

(٥١) الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ، ص ٢٨٨ .

(٥٢) الأخلاق والسياسة عند ابن حزم : صص ٢٨٥ : ٢٨٦ ، وانظر السجستانى (أبى داود) : سنن أبى داود مراجعة محمد محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة الحلبى ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م ، ج ٤ ، صص ٢٨١ : ٢٨٢ ، وانظر ابن أبى الدنيا (الحافظ) كتاب الورع : حققه وخرج أحاديثه مسعد عبد الحميد السعدنى ، مكتبة القرآن الكريم ١٩٩٣ م ، ص ٣٠ ، وانظر البيجاوى ، ميزان الاعتدال ، مطبعة الحلبى ١٣٨٣ هـ ، الطبعة الأولى ، ج ٤ ، ص ٨٤ ، وانظر أحمد بن حنبل : مسند ، ص ٢ ، ٨ ، ٣٨ ، وانظر ابن ماجه : كتاب النكاح : ص ٢١ ، وكتاب الطهارة ، ص ٥٢ ، وانظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : ج ٦ ، ص ١٢٩ ، وانظر تهذيب التهذيب : ج ١٠ ، صص ٤٢ : ٤٤ ، وانظر ابن قدامة : فتيا فى ذم الشبابة والرقص والسماع ، تحقيق ابن عبد الرحمن بن عقيل الظاهرى ، مراجعة سهير محمد مختار ، دار الكتب ، عام ١٩٧٦ م ، ص ٥٠ ، وانظر أحياء علوم الدين ج ٢ : ص ٢٩٩ .

كما يهاجم ابن حزم القائلين بتحريم سماع الغناء مستنداً فى ذلك الى الأحاديث النبوية الصحيحة ، والتشكيك فى الأحاديث الغير سليمة المستندين اليها ، ومن بين هذه الأحاديث الغير صحيحة « ما رواه سعيد بن أبى رزين عن أخيه عن عائشة أم المؤمنين عن النبى ﷺ أنه قال : « أن الله حرم المغنية وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع اليها» يقول ابن حزم عن هذا الحديث أن فيه سعيد بن أبى رزين عن أخيه ، وكلاهما لا يدرى أحد من هما » ؟ (٥٣) ، أى أن ابن حزم لا يصدق الا بالأحاديث المخرجة عن الفقهاء والعلماء المعروفين والغير قابلين للتشكيك فى أقوالهم مثل البخارى ومسلم وابن ماجه .

ويتفق حجة الاسلام الغزالى مع ابن حزم فى اباحة سماع الغناء والاستماع الى الصوت الطيب الشجى خاصة وأنه لم يرد فى تحريمه نص صريح من النصوص الدينية لما تثيره من الفرح والسرور والطرب ، وبالتالى اعانة للانسان على العمل والجد والاجتهاد ، وفى هذا يقول ابن حزم : « أما الغناء فى مجالس السماع الصوفى ، أو لم يكن جائزاً لما أباحه الامام الغزالى حجة الاسلام ولما قال بحله وهو فقيه متشدد الى درجة كبيرة وقد هاجم الفلسفة وكفر الكثير من أقول الفلاسفة » (٥٤) .

فسماع الصوت الطيب أمر حلال بالنص والقياس ، هذا ما يؤكده ابن حزم ويتفق معه فى ذلك الغزالى بقوله : « لا ينبغى أن يحرم سماع الصوت الطيب بل هو حلال بالنص والقياس ويدل على اباحة سماع الصوت الحسن فهو امتنان الله على عباده به ، اذا قال تعالى فى سورة فاطر الآية رقم (١) « **يزيد فى الخلق ما يشاء** » ، فقيل هو الصوت الحسن (٥٥) .

ومن هنا يتفق ابن حزم مع الصوفية فى اباحة السماع الطيب ، ويهاجم الذين يحرمون الغناء على أساس أنه لم يرد نص صريح أو حديث يمنع من سماعه مثل غناء العرس والحجيج والغزو والانشاد الدينى .

اختلف الصوفية فى الظاهر حول معانى السماع الا أن المعنى الحقيقى للسماع واحد عندهم ، ويرجع اختلافهم وتباينهم الى أن بعضهم رفض

---

(٥٣) الاخلاق والسياسة عند ابن حزم ، ص ٢٨٦ .

(٥٤) الغزالى (أبو حامد) : تهافت الفلاسفة ، تحقيق سليمان دنيا ، دار المعارف ، ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٦ م ، ص ٢٠ ، وانظر السمانى (عبد المحمود نور الدائم) : النظرة العلمية لأهل الطريقة الصوفية ، دار الكتب ، ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م ، ص ٦٦ .

(٥٥) الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ، ص ٢٨٧ .

السماع حتى لا يكون سببا من أسباب انتشار الفساد والأمراض والنزوات النفسية ، بينما البعض الآخر أجاز السماع على اعتبار أنه من أهم الوسائل التى تحث على الطاعة والقيام بواجبات الشرع ونواهيه ؛ وهذا ما يوضحه الدكتور قاسم غنى بقوله : « والحاصل أن السماع انتشر بين الصوفية وسبب الانشقاق والاختلاف بينهم فعد جماعة السماع أمراً مشروعاً ومستحبا من قبيل العبادات ، وعده جماعة آخرون أمراً مخالفا للشرع وبدعة تحض على المعاصى لأن زمرة من المبتدئين وغير الناضجين يعتبرون محافل السماع مجالا للأنس والمتعة واظهار النزوات النفسانية » (٥٦) .

ومن الصوفية السنيين الذين أباحوا السماع أيضاً عبد القادر الجيلانى (٥٧) (ت ٥٦١ هـ) حيث يرى مثل باقى الصوفية أن السماع الحقيقى هو القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، وسماع العلم فى مجالس العلماء والابدال وماخلا ذلك كله فهو مكروه وباطل عنده ولعل ما يؤكده قوله : « السماع الحقيقى هو الحديث والكلام الذى هو سنة الله عز وجل مع العلماء به والخواص من الأولياء والأبدال ، وخلت بواطنهم من ذلك كله » (٥٨) .

واذا كان الجيلانى قد كره سماع الألحان والغناء واعتبر أن السماع الحقيقى هو القرآن الكريم والأحاديث النبوية مثل باقى الصوفية ، فان أحمد الرفاعى (ت ٥٧٨ هـ) يرى أن سماع الألحان والأشعار يوفر الرغبة فى القيام بأوامر الحق تعالى ويحمل المستمع على التحرر من غفلة القلب وقسوته التى تسيطر عليه ويحمله الى صفاء القلب ورقته ، والتحرر من زلات النفس وشهواتها ، وهذا ما يؤكده بقوله : « سماع الألحان يوفر الرغبة فى الطاعات ويرفع الى ما أعد الله لعباده من

---

(٥٦) د. قاسم غنى : تاريخ التصوف فى الاسلام ، ترجمة صادق نشأت ومراجعة احمد ناجى القيس ، د. محمد مصطفى حلمى ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠ م ، ج ٢ ، ص ٥٧١ .

(٥٧) عبد القادر الجيلانى مؤسس الطريقة القادرية ولد فى جيلان ٤٧٠ هـ ، ورحل الى بغداد سنة ٤٧٨ هـ ، ودرس فقه الحنابلة وسلك طريق الصوفية ، توفى سنة احدى وستين وخمسمائة ودفن ببغداد ، انظر مدخل الى التصوف الاسلامى : ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، وانظر أيضا الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

(٥٨) الجيلانى (عبد القادر) : الغنية لطالبى طريق الحق فى الأخلاق والتصوف والآداب الاسلامية ، مطبعة الحلبى ، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م ، الطبعة الثالثة ، ص ١٨٠ ، وانظر المطبعة الأميرية بمكة ، ١٣١٤ هـ ، ج ٢ ، ص ١٥٧ .

الدرجات ويحمل المستمع على التحرز من الزلات ويؤدى قلبه الى صفاء الواردات » (٥٩) ٠

واذا انتقلنا الى معنى السماع عند الامام الشاذلى (٦٠) رحمه الله نجد أنه من القائلين بعدم اباحة السماع لأهل الطريق ، مثله فى ذلك مثل باقى الصوفية السنيين فى قولهم ، اذا كان السماع من أجل اللهو والتسلية وسرور القلب فان فى ذلك جفاء وخروجاً عن حدود الشرع ، أما اذا كان السماع بعيداً عن اللهو وشهوات النفس فهو ليس مكروها ، وهذا ما يوضحه ابن عطاء الله اذا يقول : « قيل لسيدى أبى الحسن يا سيدى ألا تحب السماع ؟ فقال : السماع من الخلق جفاء » (٦١) ، أما عن كراهة أبى الحسن الشاذلى للسماع من الخلق واعتباره جفاء يقول الحافظ جلال الدين السيوطى : « وكان الشيخ أبو الحسن — رضى الله عنه — ليس فى طريق السماع » (٦٢) ، فأبو الحسن الشاذلى يقترب من الامام الغزالى فى الأخذ والتقيد بالكتاب والسنة فى كل أحواله وأموره ٠

ويضيف ابن عطاء الله السكندرى (ت ٧٠٧ هـ) وهو صوفى له مكانته فى التصوف السنى معنى جديداً هو اعتبار السماع مقياساً =

---

(٥٩) الرفاعى (احمد) : الفجر المنير ، مطبعة بولاق ، ١٣٠٠ هـ ، ص ٧٩ ٠

(ولد الامام احمد الرفاعى فى أم عبيدة ، وهى جزيرة قرب واصل بالعراق عام ٥١٢ هـ ، وهو ابن صالح أحمد محيى الدين بن العباس والمعروف بالرفاعى الكبير ، وقد حفظ الرفاعى القران الكريم وهو صغير جدا ، ونظم الامام الرفاعى طريقه ، انظر الطبقات الكبرى : جـ ١ ، صص ١٥٦ : ١٦١ ٠

(٦٠) الطريقة الشاذلية هى المنسوبة الى ابى الحسن الشاذلى ، وهو صوفى بارز سنى الاتجاه ، وأصله من شاذلة بتونس ، ووفد الى مصر ومعه جملة من تلاميذه ومريديه واستوطنوا مدينة الاسكندرية ٠ وكان ذلك حوالى سنة ٦٤٢ هـ ، ثم كونوا مدرسة صوفية مشهورة بها ، وكان من أبرز من وفد مع الشاذلى الى مصر من تلاميذه أبو العباس المرسى ، وهو الذى خلفه فى قيادة أتباع الطريقة فى حياته وبعد مماته ٠ وظل قائما عليها حتي توفى بالاسكندرية سنة ٦٨٦ هـ ، وكان تصوف الشاذلى والمرسى وابن عطاء الله وهم أركان المدرسة الشاذلية مبتعدا عن تيار مدرسة ابن عربى ومذهبه وتأثرهم به ، انظر د٠ أبو الوفا التفتازانى : مدخل الى التصوف الاسلامى ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٩ م ، صص ٢٣٩ : ٢٤٠ م ٠

(٦١) د٠ عامر النجار : الطرق الصوفية فى مصر ، نشأتها ونظمها وروادها (الجيلانى ـ الرفاعى ـ البدوى ـ الشاذلى ـ الدسوقى) الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، ١٩٨٧ ، ص ٢٠٩ ٠

(٦٢) الطرق الصوفية فى مصر نشأتها ونظمها وروادها ، ص ٢١٠ ٠

للخير والشر . فالانسان الكامل ينقش السماع فى قلبه الأمور والأحوال الربانية والصفات والأخلاق الحميدة ، أما الانسان الناقص (المعقل) ينقش السماع فى قلبه الأمور والأحوال الشيطانية والنفسانية ولم يبق بعده الا القسوة والغلظة والحرص والطمع وغير ذلك من الصفات الذميمة ، بقوله : « السماع نقاش القلوب فيخرج ما فيه من خير وشر كمن ينقش على الماء فيخرجه أن كان صافيا شرب وأن كان مغيراً طرح » (٦٣) .

مما سبق يتضح لنا أن معنى السماع عند أغلب الصوفية السنيين هو الالتزام بالكتاب والسنة فيما يسمع ، وعدم تحريم سماع الغناء الملتزم بآداب الشريعة ، واعتبار السماع مقياس الخير والشر والحكم على المسموع ، أما عن ارتباط السماع بالوجود واعتبار أن الوجود الحق لله تعالى وأن المريد فى وقت سماعه لا يرى ولا يحس بوجوده ولا بأى شيء من الموجودات ، هذا ما أوضحه الصوفية المتفلسفون من أصحاب الوحدة القائلين بالفناء والبقاء ، أى بقاء الحق تعالى وفناء ما سواه من المحدثات .

سادسا : معنى السماع عند الصوفية المتفلسفين منذ القرنين السادس والسابع الهجريين :

استخدم الصوفية المتفلسفون فى القرنين : السادس والسابع الهجريين السماع أحياناً بنفس معانيه السابقة عند السابقين عليهم ، من أن العبد لا بد وأن يفنى عن سماع ما سوى الحق تعالى ، وتفريغ خاطره من كل شاغل يشغله عن الحق تعالى وقت السماع ، وذلك لأن الجوارح اذا لم تتفرغ وتفنى عن كل ما يشغلها وتتحلى بالصفات والأسماء الالهية ، لا يتحقق لها الوجود ، وهذا ما يوضحه ابن عربى (ت ٦٣٨ هـ) بقوله : « أصل حصول هذه المنازل تفريغ الخاطر من كل شاغل يشغلك عن تحققك بما سمعت أو رأيت أو تكلمت فى أى مقام كنت من أعمال الجوارح فان لم تتفرغ الخواطر للسماع لم تتفرغ الأعضاء

---

(٦٢) ابن عجيبة الحسنى : الفتوحات الالهية فى شرح المباحث الأصلية ، جـ ٢ ص ٢٧٨ .

(تاج الدين بن عطاء الله السكندرى ، هو تلميذ الشيخ ياقوت العريشى ، وأبى العباس المرسى ، مات سنة سبع وسبعمائة ، ومن أهم مؤلفاته التنوير فى اسقاط التدبير ، وكتاب الحكم ، ولطائف المنن ، انظر الطبقات الكبرى ، جـ ٢ ، ص ٧٣) .

المتخلق واذا لم يصح التخلق لم يكن التحقق ... فاسع يا بنى فى تفريغ الخاطر للسماع المراد منك فى أى مكان كنت » (٦٤) .

ولهذا يهاجم ابن عربى دخول جلسات السماع من هم ليسوا من الصوفية سواء كانوا من العامة أو المريدين الذين لم يصلوا الى مراتب الكمال الصوفى ، خوفا عليهم من أن يؤدى حضورهم هذه المجالس الى اثارة شهوة النفس وعدم التحكم فيها ، اذا يقول ابن عربى « تجرى جلسة السماع فى زاوية لا يدخلها العامة ، ولا يغشاها الا الصوفية من أهل الطريقة ويمنع حضورها من ليسوا من أصحاب الطريقة والمريدون المبتدئون فى أول الطريق الذين يعجزون عن تلقى تجربة الأحوال الصوفية العالية » (٦٥) .

ويعلل ابن عربى عدم حضور العامة والمريدين المبتدئين فى مجالس السماع ، بأنهم يشوشون على العابدين أصحاب المراتب الكاملة من عدم التدبر والتفكير فى معانى المسموع ، كما أنهم قد يكونون عائقاً عن تحقيق الاحتشاد النفسى اللازم لهذا التفكير الدينى . فالصمت والسكوت من آداب مجالس السماع ، وهذا ما يوضحه ابن عربى بقوله : « وهى تجنب أن يؤدى العامة أو غير المشاركين فى نفس الأفكار والمشاعر والأمانى — يؤدى الى التشويش على نفوس العابدين والحيلولة بينهم وبين الوصول الى الاحتشاد النفسى اللازم للتفكير والانفعال الدينى ، بسبب عدم الانتباه وانشغال الخاطر بأمور أخرى » (٦٦) .

وإذا كان صوفية القرنين : الثالث والرابع للهجرة ومن بعدهم من الصوفية السنيين قد أباحوا السماع الطيب وكرهوا سماع الغيباء بالموسيقا والايقاع فإن ابن عربى سلك هذا المسلك ، من حيث انه

---

(٦٤) ابن عربى (محيى الدين) : مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار ، مكتبة صبيح ، ١٣٨٤ هـ — ١٩٦٥ م ، ص ٧٢ .

(ولد أبو بكر محمد بن على من قبيلة حاتم الطائى ، والمعروف باسم (ابن عربى) وبألقاب (محيى الدين) ، (والشيخ الأكبر) ، وابن أفلاطون ، ولد فى مدينة مرسية فى ١٧ رمضان سنة ٥٦٠ هـ فى عهد خلافة المستنجد فى المشرق ، وكان من أسرة نبيلة غنية وافرة التقوى .. توفى فى دمشق فى منزل ابن الزكى سنة ثمان وستمائة ، ١٦ نوفمبر سنة ١٢٤٠ م ، انظر آسين بلاثيوس : ابن عربى حياته ومذهبه ، ترجمه عن الاسبانية د/ عبد الرحمن بدوى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٥ م ، صص ٥ : ٩٢ .

(٦٥) آسين بلاثيوس : ابن عربى حياته ومذهبه ، ص ١٧٦ .

(٦٦) المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

رفض دخول السالكين المريدين الذين لم يبلغوا مرتبة الكمال مجالس السماع ، حتى تثير هذه المجالس أغواء الشيطان ووساوسه ، وانما هذه المجالس تتمتع بالهدوء والتفكير فى معانى المسموع ، حتى يحدث لبعض المريدين حالة وجد ، وحتى لو كان الشخص صادقاً ، وهو أمر نادر الوقوع ، فانها تدل على التحلى بالنعم الالهية لا بالله ذاته .

ومن ثم فان ابن عربى كان يفضل دائماً سماع القرآن الكريم فى هدوء وخشوع ، دون الحاجة الى الآلات الموسيقية التى تثير الشهوة ومن ثم تبعد النفس عن التعبد الحسى ، فاستعمال الموسيقا فى السماع من الأمور المستحدثة الخارجة على الشريعة الاسلامية ، ولهذا هاجم ابن عربى هذه المظاهر ، « وابن عربى ، الذى نشأ فى الأندلس فى وسط زاهد صارم .. ، لا يكتم نفوره من هذا المشهد فضلا عن الوان الفساد الأخرى للسماع ، مما كان منتشراً فى الشرق ، مثل التصفيق الايقاعى ، والرقص ، وتمزيق الثياب ، فى أوج الجذبة ، وكل هذه المظاهر الخارجية للتعبد الحسى » (٦٧) .

لا شك أن سماع آيات القرآن الكريم لها مكانة خاصة ومنزلة رفيعة ، ولهذا أمرنا الحق تعالى بسماع القرآن والانصات له فى قوله سبحانه :

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٨)

وقوله تعالى :

إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٦٩)

ولهذا فان ابن عربى « يفضل دائماً آيات القرآن الكريم تتلى بخشوع، عن انشاد الشعر العربى ، الحافل بالاشارات والايحاءات الشهوائية التى يصعب تجنب عواقبها ، ومن شأنه أنه يبعث فى النفس الرغبة فى التعبد الحسى » (٧٠) .

---

(٦٧) اسين بلاثيوس : ابن عربى حياته ومذهبه ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٦٨) سورة الاعراف : آية ٢٠٤ .

(٦٩) سورة الاسراء : آية (٩) .

(٧٠) ابن عربي حياته ومذهبه ، ص ١٧٩ .

ويذهب ابن عربى الى أن المريد القوى فى سماعه لا يسمح لنفسه بأن تسمع أصواتاً أو ايحاءات دون البقاء بالحق تعالى فى سماعه ، ذلك لأن هذه الحالة تعد حالة شيطانية ليست نتيجة لوارد الهى ؛ ولهذا يجب على المريد فى سماعه أن يكون منتبه القلب لما يسمع من السماع الحق ، « السماع هو الانتباه بالقلب الى ما يحمد شرعا » (٧١) .

كما أن السماع عند ابن عربى نوعان ، حيث ربط السماع بالقول بالوحدة الوجودية ، اذ يرى أن هناك سماعاً مطلقاً هو سماع الكلام الالهى ؛ ذلك لأن وجود الحق تعالى أيضاً مطلق . وسماع مقيد ، وهو ذلك السماع المقيد والمرتبط بالنغمات مثل سماع الأشعار والموسيقا ، ولهذه النغمات تأثيرها البين فى الطباع ، فلا يستطيع أحد أن يدفع عن نفسه عند ورود هذه النغمات وتعلق السمع بها ، فسلطانها قوى ، ولهذا فان ذلك السماع لا بد من أن يتركه الأكابر ، أما السماع المطلق لا يمكن تركه ، ذلك لأنه السماع الدال على وجود الحق المطلق الوجود .

وإذا كان ابن عربى يكره السماع المقيد فانه يرى أن ذلك السماع لم يرد شىء فى تحريمه ، وانما يكرهه خوفاً من اثارته للشهوة ، والهوى فى صاحب النفس الضعيفة ، أما الرجل المتمكن من نفسه فلا يؤثر فيه ذلك السماع بشىء ، ولهذا يقول ابن عربى : « فسماع الحق مطلق كما أن وجوده مطلق وتميزه عسير وللنغمات فى الكلام الالهى والقول أصل تستند اليه .. ، ولهذا لها القوة والتأثير فى الطباع فلا يستطيع أحد أن يدفع عن نفسه ورود النغمة وتعلق السمع بها اذا صادفت محلها ذلك الطرب والأثر الذى يجده السامع فى نفسه فسلطانها قوى وذلك القوة أصلها الذى تستند اليه » (٧٢) .

فالسامع المحق اذن يأخذ المعانى من الصوت ولا يلتفت الى النغمة ، أما من سمع على الهوى والشهوة فهو لعب ولهو ، ومن سمع باستخراج الفهم ومشاهدة العلم على معانى صفات الحق ، وسمع تدبر لهذه المعانى كان محقاً فى سماعه ، وهذا سماع أهل المعرفة الالهية ، وهذا ما سبق أن أشار اليه الصوفية السنيون مثل عبد القادر الجيلانى ، حيث ينصح مريده بالسمع والفهم لما يسمع وكذلك الاخلاص والعمل به ، والفناء فى اخلاصه وسماعه حتى يتحقق له الوجود بالسماع الحق ، ولذلك يقول : « يا غلام كم يقال لك ولا تسمع وكم تسمع ولا تفهم ،

---

(٧١) مواقع النجوم ، ص ١٦٤ .

(٧٢) ابن عربى (محيى الدين) : الفتوحات المكية ، القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٨٧٦ م ، ج ٢ ، ص ٤٨٥ .

وكم تفهم ولا تعمل ، وكم تعمل ولا تخلص ، ولا تغيب فى اخلاصك ووجودك » (٧٣) .

وبعلل الدكتور أبو الوفا التفتازانى إباحة الصوفية للسماع ، من حيث أنه يعين المريد على الطاعات وصفاء قلبه من وساوس النفس وخنسها ، كما أنه يقوى الوجد فى نفس السالك من خلال صفاء قلبه والقرب من التعبد الحسى « فمن كلام أولئك الصوفية الخلص يتبين لنا ان السماع عندهم يعين على الطاعات وتجنب الزلات ، وصفاء الواردات ، وهو يقوى الوجد فى نفس المستمع ، وهو فوق هذا وذاك استجمام للسالك ، وتنفس له ، ومعين له على استحضار ما تأخر عنه فى السلوك » (٧٤) .

وإذا كان ابن سبعين (٧٥) يتفق مع الصوفية السابقين عليه فى القول بأن السماع هو استجمام وترفه للسالك من متاعب الحياة ، ومعين له على القيام بالطاعات والأوامر الالهية ، الا انه يجعل السماع وسيلة وأداة تعين النفس على التذكر بعالم المثل ، وهو عالم النفس قبل أن تحل بالبدن الذى يساعدها على تنفيذ أهوائها وشهواتها .

ومن ثم فابن سبعين يفلسف السماع ويفسره من خلال القول بالوحدة المطلقة وهو تعلق النفس بالنظام القديم ، وهذا ما يوضحه الأستاذ الدكتور التفتازانى من خلال شرحه لمعنى السماع عند ابن سبعين بقوله : « أما ابن سبعين فيتفق مع أولئك الصوفية الذين اشرنا اليهم فى أن السماع وسيلة الى رد الفائت من الأحوال ، وحفظها ، والى راحة الفقراء فى سلوكهم ، ولكنه يختلف معهم فى أنه يفلسف السماع على طريقته ، فيجعل تلك الراحة التى تحدث للنفس فى السماع نتيجة تهيؤها لقبول الأمر الذى لا من جنس ما يكتسب ويعنى بذلك علم التحقيق ، وتعلقها بالنظام القديم الذى هو عين الوحدة المطلقة فيقول ابن سبعين : « والسماع يكون فى وقت الحاجة اليه ... لأن السماع يطلب به خمس

---

(٧٣) التاذفى (محمد بن يحيى) : قلائد الجواهر فى مناقب عبد القادر ، وبهامشه فتوح الغيب لمحى الدين عبد القادر الجيلانى ، مطبعة مصطفى الحلبى ، الطبعة الثالثة ، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦ م ، ص ٧١ .

(٧٤) ١. د. أبو الوفا التفتازانى : ابن سبعين وفلسفته الصوفية ، دار الكتاب اللبنانى ، الطبعة الأولى عام ١٩٧٣ م ، ص ٤٥١ .

(٧٥) هو عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر بن محمد ، ويلقب من الألقاب المشرقية بقطب الدين ، وهو ينسب الى عدة بلاد فينسب الى بلاد الاندلس فيلقب بالاندلسى ، وينسب الى مرسية فيقال له (المرسى) . يقع مولد ابن سبعين اذن فى النصف الاول من القرن السابع الهجرى ، وذلك فى أواخر عصر الموحدين بالاندلس ، ولد سنة ٦١٤ هـ ، وتوفى سنة ٦٦٩ هـ ، انظر ابن سبعين وفلسفته الصوفية ، ص ص ٢٥ : ٣٥ .

فضائل : أولهما رد الفائت من الأحوال ، والثانى حفظ ما يحث الملكة والثالث استجلاب ما لم يفهم بالمدرك الفقير « لعلة يعنى به العقل » ، ورابعها حديث النفس بالأمر الذى لا من جنس ما يكتسب ، وخامسها احداث راحة الفقراء .. لأن القلوب فى السماع منشرحة تنظر ما يخلق فيها وما يحدث عنها من النظام القديم (أى الوحدة المطلقة) » (٧٦) .

مما سبق يتضح لنا أن السماع فى ظاهره فتنة واثارة للشهوة والهوى ، لذا جعل ابن سبعين مثل باقى الصوفية السماع فى وقت الحاجة اليه فقط ، حيث لا يصبح عادة تخرج السالك عن حدود الشرع ، أما السماع فى باطنه اثارة لما يكنه القلب من مظاهر الخوف والتشويق والترهيب نتيجة لتفهمه لمعانى المسموع ، فالسماع المحق هو اخلاص النية ويقين القلب وصدقه لما يسمع ، وفناؤه عن كل ما يشغله عن السماع وقت السماع ، ووجوده بالصفات والأسماء والمعارف الالهية، « وأما من اتصفت نفسه بالصفات القلبية فيكون حاسة سمعه تبعاً لحقيقة سمع قلبه ، فلا يستمع فى الظاهر شيئاً الا وقد سمع فيه من القلب أشياء فتارة يسمع من مجرد الصوت حقائق الترغيب والتشويق ، ولطائف المخاطبات ، أو الترهيب والتخويف ومستلذات المعاتبات ، وتارة يسمع الكلمات فيسبق السمع الباطنى السمع الظاهرى فيتغير مدرك الظاهر » (٧٧) .

كما يذهب ابن سبعين الى أن السمع لابد أن ينصرف الى سماع آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية والمواعظ والأمور التى تذكر بالله تعالى وبالوعد والوعيد ، بدلا من انصراف العبد الى سماع الشعر بالألحان والنغمات الحسنة بقوله : « السمع الذى كان يوصل له الألحان والنغمات الحسنة ينصرف الى سماع كتاب الله تعالى الذى هو كلامه وسماع حديث رسول الله ﷺ وسماع المواعظ والأمور المذكرة بالله عز وجل » (٧٨) .

فكما أن ابن سبعين يذهب الى اباحة الشعر والغناء على القدر

---

(٧٦) ٠د أبو الوفا التفتازانى : ابن سبعين وفلسفته الصوفية ، صص ٤٥١ : ٤٥٢ .

(٧٧) أبو بكر عبد الله بن شاهاور : منارات السائرين ومقامات الطائرين ، تحقيق سعيد عبد الفتاح ، دار سعاد الصباح ، ١٩٩٣ ، صص ٥٢٥ ــ ٥٢٦ .

(٧٨) ابن سبعين : الرسائل ، رسالة العهد ، تحقيق د٠ عبد الرحمن بدوي ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٦٥ م ، ص ١٠٠ .

المعقول فان ابن عربى يذهب الى ذلك بقوله : « فان لم يحرمه بل ابحنا الشعر والغناء على القدر الذى جاءت به الشريعة » (٧٩) .

كذلك يذهب ابن عربى الى أن المدعى للسماع والوجد الناتج عن السماع اذا لم يكن صادقاً فى سماعه ووجده وما يصدر عنه من حركات واهتزازات وصرخات ، كأن هذا العبد يتخذ دينه لعباً ولهواً ويعتبر ما يصدر عنه ما هو الا تعبير وتنفيس عن لذة شيطانية ، مثله فى ذلك مثل راعى الغنم فى نعيقه ، وهذا ما يؤكده ابن عربى بقوله : « وأما أهل السماع والوجد فى هذه البلاد فقد اتخذوا دينهم لعبا ولهوا لا تسمع الا من يقول لك رأيت الحق وقال لى وفعل وصنع ثم تطالبه بحقيقة منها أو سر استفاده فى شطحه فلا تجد الا لذة نفسانية وشهوة شيطانية يصرخ على لسانه الشيطان فيصعق مادام المغرور ينهق فلا اشبههم الا براعى غنم ينعق فتقبل وتدبر بتعميقه » (٨٠) ، فابن عربى يهاجم الصوفية فى السماع لما فى ذلك من خوف على أصحاب النفوس الضعيفة من اغواء الشيطان ومطامعه .

ولتلاميذ ابن عربى كلام فى السماع ، ومنهم عبد الغنى النابلسى صاحب كتاب الحديقة الندية فى شرح الطريقة المحمدية ، الذى يوضح فيه أن السماع اذا اقترن بشىء من المحرمات أو اتخذ سبباً فى ارتكاب المحرمات كان هذا السماع محرماً ، أما اذا سلم هذا السماع من ذلك ، وكان دعوة الى الطاعة والعبادة والاقتداء بالرسول ﷺ والصحابة كان هذا السماع مباحا لا كراهة فيه .

ويوضح عبد الغنى النابلسى وهو أحد فقهاء القرن الثانى عشر « أن من آفات الأذن أيضا استماع الملاهى وهى الترنم بأشعار الفسقة وأصوات الدفوف والمزامير فى مجالس الخمور ورقص الفتيات الداعى الى الزنا واللواط لا مطلق استعمال الترنم بآلات اللهو مجردا عن جميع ذلك فى الظاهر والباطن .. ، لا الخالى من جميع ذلك بلا اضطرار لذلك الاستماع أى ضرورة داعية اليه وعدم امكان الاحتراز عنه كالتجار فى سوق ، ... اذا لم يكن فعل التجارة والغزو والحجيج الا مع استماع الملاهى بالوصف المذكور فانه لا يضر فى أمر الدين » (٨١) .

(٧٩) ابن عربى (محيى الدين) : الرسائل ، رسالة روح القدس ، تصحيح عبد الرحمن حسن محمود ، تقديم بدوى طه علام ، مكتبة عالم الفكر ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م ، ص ٦١ .

(٨٠) رسالة روح القدس : ص ٤٠ ، وانظر عبد الغنى النابلسى : الحديقة الندية فى شرح الطريقة المحمدية ، مكتبة دار الكتب ، ١٩٢١ ، ج ٢ ، ص ٤٠٦ .

(٨١) عبد الغنى النابلسى : الحديقة الندية شرح الطريقة المحمدية ، ج ٢ ، ص‌ص ٤٠٤ : ٤٠٥ ، وانظر عامر النجار : الطرق الصوفية فى مصر نشأتها ونظمها وروادها ، ص ٥٧ .

لا شك أن عبد الغنى النابلسى أباح السماع المطلق الغير مقترن بالمحرمات مثل الغناء من أجل الحجيج أو الغناء من أجل النداء على تجارة وترويجها وتحقيق الثراء الاقتصادى وأيضا الغناء فى المناسبات مثل العرس والوليمة اذا لم يكن هناك خمور أو اقتران بآلات الهوى والشهوة ، بقصد الفاحشة ، ومن ثم فانه يعد استماع الملاهى معصية والتعود عليها والتذاذها فسق وخروج عن حدود الشرع ، وهذا ما يوضحه بقوله « استماع الملاهى والجلوس عليها فسق والواجب أن يجتهد ما أمكن أن يسمع ولا بأس بأن يتغنى وحده اذا لم يكن على سبيل اللهو وعن الحسن بن زياد رحمه الله يقول : لا بأس بضرب الدف فى العرس وعن أبى يوسف رضى الله عنه « لو ضربت المرأة الدف فى غير العرس للصبى لا للغناء لا بأس به »(٨٢) ، وفى هذا يقتدى عبد الغنى النابلسى بقول رسول الله ﷺ « استماع الملاهى معصية والجلوس عليها فسق والتلذذ بها من الكفر » وبعد عرض آراء الصوفية فى السماع فسنجد أن الصوفية كانوا متفقين فى الباطن مختلفين فى الظاهر ، فمنهم من عده بدعة تخرج عن حدود الشرع وتحرض على الرذيلة فقال بانكاره ، ومنهم من جعل الحكم عليه بحسب التفهم لمعانى المسموع والمناسبة التى يسمع فيها فقال باجازته ، ومنهم من جعله مندوباً وقال باباحته .

والسماع عند الصوفى عبد الكريم الجيلى (ت ٨٣٢ هـ) وهو من أصحاب وحدة الوجود على ثلاث مراتب ؛ واجد وهو الشخص الذى يحدث له وجد نتيجة لنزول وارد عليه من قبل الحق تعالى ثمرة لصفاء قلبه فى السماع ؛ متواجد وهو ذلك الشخص الذى يدعى الوجد فى السماع فيقوم بحركات واهتزازات لا صلة لها بالوجد وانما هى من صنعه ، أما المرتبة الثالثة فهى موافق وهو ذلك الشخص الثابت فى السماع ، قوى الارادة يستطيع أن يتحكم فى جوارحه أثناء السماع ويحاول تفهم معانى المسموع . فهذه التقسيمات الثلاثة للأشخاص فى السماع قد قال بها أيضا الصوفية السابقون على الصوفى عبد الكريم الجيلى ، اذ يقول : « أهل السماع فى فئات ثلاث يسميهم : واجد ومتواجد وموافق ، كما يحصر حركاتهم الصادرة عنهم بأربع أيضاً ، فتكون هذه الحركات صادرة ، اما عن علم اليقين . أو عين اليقين ، أو حقيقة اليقين أو حق اليقين » (٨٣) .

---

(٨٢) عبد الغنى النابلسى : ايضاح الدلالات وسماع الالات ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، الممز تصوف ٨٦٠ ، ميكروفيلم رقم ٣٤٩٥٩ ، عدد ورقة ٤٠ ، ص ٤ .

(٨٣) سهيلة عبد الباعث الترجمان : نظرية الانسان الكامل عند عبد الكريم الجيلى ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٨ م ، ص ٢٤٥ .

ويبدو تأثر الجيلى بمذهبه فى وحدة الوجود الذى يفرق فيه بين حق وخلف ، وذلك فى مجال رياضة السماع ، ولذلك فهو يمتدح السماع الذى يحصل فى مقام الجمع عند وجود جلال أو شهود جمال ، ويشير الى الأحوال المرتبطة بمقام الجمع فى السماع فيجعلها عشرة هى : « المكاشفة — والمشاهدة — والمعاينة — والحياة — والقبض — والبسط — والسكر — والصحو — والاتصال — والانفصال » (٨٤) .

سابعا : موقف الفقهاء ورجال الدين من السماع خاصة عند الصوفية :

اختلفت الآراء حول السماع ، هل هو حرام أم حلال ، حيث ذهب فريق من العلماء ورجال الدين الى اباحة السماع ، وذهب فريق آخر الى كراهة سماع الغناء واعتباره مصدراً من مصادر الفسق والزنا واللواط .

وسوف نعرض أهم آراء أئمة الفقه الأربعة وعلماء الدين من بعدهم ، الذين ذهبوا الى عدم اباحة السماع لأصحاب النفوس الضعيفة حتى لا يثير السماع فى نفوسهم الشهوة والهوى ، ومن بين هذه الآراء رأى احمد بن حنبل : « اذ روى عنه ابنه عبد الله أنه قال : « الغناء ينبت النفاق فى القلب لا يعجبنى » (٨٥) .

اما مالك بن أنس فانه نهى عن الغناء وعن استماعه . « وقال اذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها بالعيب وهو مذهب سائر أهل المدينة الا ابراهيم بن سعد وحده » (٨٦) .

وكذلك كره أبو حنيفة سماع الغناء وجعله من الذنوب (٨٧) ، وكذلك مذهب سائر أهل الكوفة ، ابراهيم والشعبى ، وحماد ، وسفيان الثورى ، وغيرهم لا اختلاف بينهم فى ذلك .

---

(٨٤) نظرية الانسان الكامل عند عبد الكريم الجيلى ، ص ٢٤٦ .

(٨٥) ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن) : تلبيس ابليس ، المطبعة المنبرية ، ١٣٤٧ هـ ، ص ٢٢٨ .

(٨٦) تلبيس ابليس : ص ٢٢٩ ، وانظر احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .

(٨٧) نفس المرجع السابق ، ص ٢٢٩ ، وانظر احياء علوم الدين ج ٢ ، ص ٢٣٨ هـ ، ص ٢٢٨ ، وانظر طاهر المقدس : كتاب السماع ، تحقيق أبو الوفا المراغى ، لجنة احياء التراث الاسلامى ، القاهرة ، ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

أما مذهب الشافعى فى السماع ، فقد ذهب الى كراهـة السماع للعوام ، بل كان يعتبره مما يسقط المروءة ولهذا فان الشافعى يقـول « الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ، ومن استكثر منه فهو سفيه تـرد شهادته » ... ، كما نص الشافعى فى كتاب أدب القضاء « على أن الرجل اذا داوم على سماع الغناء ردت شهادته وبطلت عدالته » (٨٨) .

إذن سماع الغناء من الذنوب وما أباحه الا نفر قليل من الفقهـاء ومن أباحه من الفقهاء أيضا لم ير اعلانه فى المساجد والبقاع الشريفـة وقيل فى تفسير قوله تعـالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : هو الغناء والاسـتماع اليه (٨٩) .

ويوضح هذه الآراء الدكتور عامر النجار اذ يقول « يقصد بالسماع الغناء والموسيقا وهى الضابط للايقاع وانشاد الشـعر والمنظومـات والغناء والرقص والتمايل وهى من أقسام السماع ، وبالطبع : اذا كان السماع يهدف اللعب بالغرائز والشهوات فهو منهى عنه ، وخاصة رأى ائمة المسلمين المجتهدين التحرز من السماع والاقلال منه خوفـاً من أن يؤدى الى شرور النفس وفسادها ، أما الاباحة فللمستمع الذى يتوفر فيه الرغبة فى الطاعات وتذكره بما أعده الله لعباده المتقين من الدرجات فى الجنة » (٩٠) .

هذا ، وقد هاجم السماع أيضاً جملة من علماء المسلمين من بينهم ابو بكر الطرطوشى الذى يصف السماع بأشد الألفاظ تجريحـا محاولا اثبات تحريمه شرعا وأورد الكثير من الأدلة الشرعية على تحريم الغناء حيث (سئل عن جماعة يجتمعون فى محل وينشدون مثل هذه الأشـعـار وهى هـذه :

---

(٨٨) تلبيس ابليس : ص ٢٣٠ ، وانظر الرسالة القشيرية ، تحقيق د. عبد الحليم محمود : ج ٢ ، ص ٦٣٨ ، وانظر السهروردى : عوارف المعـارف الجزء الخامس من احياء علوم الدين ، ص ١٦٢ .

(٨٩) عوارف المعـارف : ص ١٦٢ ، سورة لقمان : آية (٦) .

(٩٠) د. عامر النجار : الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظمهـا وروادها ، ص ٥٥ : ٥٦ .

يا شيخ كف عن المعاصي والذنوب قبـل التفـرق والزلـل
واعمل لنفسـك صالحـاً مـا دام ينفعـك العمـل
أمـا الشباب فقـد مضى ومشيب رأسـك قـد نزل

قالوا : أجاب بقوله : مذهب هؤلاء بطالة وجهالة ، الى أن قال : وما الاسلام الا كتاب الله وسنة رسوله الى آخر كلامه » (٩١) .

فهجوم الطرطوشي على سماع الأناشيد والأشعار عند الصوفية خطأ كبير ، فكيف ينكر أبياتا تحث على ترك المعاصي والذنوب وتدعو الى اليقظة وعدم الغفلة والدعوة الى العلم النافع ، أما اذا كان انكاره خوفاً على المريد من أن يشغله السماع عن القيام بالطاعات والواجبات التى تدعو اليها الأبيات فهذا صحيح وواجب حتى لا يضيع المريد وقته فى السماع فقط دون التفهم لما يسمعه ، وهذا ما يوضحه القول السابق .

كما هاجم السماع ، أيضاً ابن القيم (ت ٧٥١ هـ) وهو من فقهاء القرن السابع الهجرى ، ونقد مسالك الصوفية فى الغناء والرقص وذكر أدلة على كراهة الغناء والآثار الناجمة عن سماعه ، وكان فى أغلب أحواله من ألد خصوم الصوفية فى هذه المسألة ، وقد أنكر عليهم حب الغناء الشيطانى ويستشهد بقول ابن مسعود (الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل ويذكر أنه شاهد ثقل القرآن على أهل الغناء والسماع » (٩٢) .

أنه لا يتحرر الكلام فى هذه المسألة الا بعد معرفة صورة المسموع وحقيقته ومرتبته ، ولن يجعل الله من سمع الآيات البينات كمن سمع الغناء والأبيات ، ولهذا يرى ابن القيم أن من اهتم بسماع الغناء لذاته ضل وبعد عن طريق الحق ، وأصبح سماع القرآن ثقيلا على قلبه ؛ ذلك لقسوة قلبه وفساده بالغناء الخارج المثير للشهوة . هذا ما يؤكده بقوله : « لا تجد أحداً عنى بالغناء وسماع آلاته الا وفيه خلال عن طريق الهوى علما وعملا وفيه رغبة عن استماع القرآن الى استماع الغناء بحيث اذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن عدل عن هذا

(٩١) محمد بن أحمد نور بن حمدين : قطع النزاع وكشف القناع عن دليل جواز السماع ، مكتبة الحلبى ١٣٨٣ م ــ ١٩٦٤ م ، ص ١٦ ، ١٧ ، ٣٨ ، وانظر أيضا ابن قيم الجوزية : اغاثة اللهفان فى مصايد الشيطان وبهامشه كتاب الهجرتين باب السعادتين ، المطبعة الميمنية عام ١٣٢٠ هـ ، ص ١٢٠ .

(٩٢) ابن القيم : مدارج السالكين ، تعليق السيد محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار بمصر عام ١٣٣٢ هـ ، جـ ١ ، ص ٢٧٥ ، وانظر د. زكى مبارك : التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق ، مطابع دار الكتاب العربى بمصر عام ١٣٧٣ هـ ــ ١٩٥٤ م ، الطبعة الثانية ، جـ ٢ ، ص ٢٦٧ .

الى ذاك وثقل عليه سماع القرآن وربما حمله الحال على أن يسكت القارىء ويستطيل قراءته ويستزيد المغنى ويستقصر توبته » (٩٣) .

ومن الفقهاء أيضاً الذين هاجموا الصوفية فى القول بسماع الأناشيد والرباعيات هو ابن تيمية الذى اعتبر سماع الرباعيات والرقص بالايقاع كفرا وفسقا ، وهذا ما يؤكده بقوله : « وما جرى على وصف المرئيات ونعت المخلوقات فاستماع ذلك كفر ، واستماع الغناء والرباعيات على الله كفر ، والرقص بالايقاع ونعت الرقاصين على أحكام الدين فسق ، وعلى أحكام التواجد والغناء لهو ولعب ، وحرام على كل من يسمع القصائده والرباعيات الملحنة .. ، الا لمن تقدم له العلم بأحكام التوحيد ومعرفة أسمائه وصفاته ... ، فيكون استماعه كما قال تعالى [سورة الزمر : آية ١٨]

ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ

وكل من جهل ذلك وقصد استماعه على الله غير تفصيل فهو كافر لا محالة » (٩٤) .

ومن ثم فان السماع المحدث وهو سماع الغناء والآلات الموسيقية ، فلم يكن الصحابة والتابعون لهم يجعلون هذا طريقا الى الله تعالى ، ولا يعدونه من القرب والطاعات ، بل يعدونه من البدع المذمومة

إذن فالسماع من حيث هو سماع لا حرمة فيه وانما اذا اتخذ هذا السماع وسيلة وأداة الى طريق المحرمات كان هذا السماع محرما عند أجلة القوم والفقهاء .

ومن رجال الدين أيضا الذين كرهوا سماع الغناء واعتباره وسيلة وأداة توصل المريد الى سخط الحق تعالى هو ابن قدامة (ت ٦٢٠ هـ)، اذ يقول : « فأما من يجعله دينا ويجعل استماعه واستماع الغناء : قربة وطريقا الى الله سبحانه فلا يكاد يوصله ذلك الا الى سخط الله

---

(٩٣) ابن القيم : الروح ، دار المعارف ١٣٢٤ هـ - ١٩٣٠ م ، ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، وانظر مدارج السالكين ، جـ ١ ، ص ٢٧٤ ، وانظر اغاثة اللهفان فى مصايد الشيطان ، ص ١٢٩ ، وانظر ابن القيم : حكم الاسلام فى الغناء ، تحقيق أبو حذيفة ابراهيم بن محمد ، مكتبة الصحابة بطنطا ، ١٩٨٦ ، ص ٢٧ ، وانظر روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٩٤) ابن تيمية (تقى الدين أحمد) : الفتوى الحموية الكبرى ، دار الكتب المصرية ، ١٣٨٧ هـ ، القاهرة ، ص ٥٧ ، وانظر الصوفية والفقراء ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

ومقته » (٩٥) ، ومن ثم قد أعد الفقهاء سماع الغناء والشعر هو السماع الشيطاني ، وسماع القرآن الكريم والحكم هو السماع الروحاني .

واذا كان معظم الفقهاء رفضوا سماع الأناشيد بالدف ، فان طاهر المقدسي (ت ٥٠٧ هـ) قد ذهب الى أن الضرب على الدف وسماعه سنة لا يمكن أن يرفضها الا جاهل بالسنة ، ولذلك قال « وأما ضرب الدف والاستماع اليه فنقول : أنه سنة ، سمعه رسول الله ﷺ وأمر بضربه لا ينكره الا جاهل مخالف للسنة ، وقد قال رسول الله ﷺ « من رغب عن سنتي فليس منه » أخبرنا أبو القاسم على بن أحمد ابن البندار (٩٦) .

فالشعر عندما يأمر بالطاعة أو يدعو الى الحكمة ومكارم الأخلاق والفضيلة ، وغير ذلك من خصال الخير ، لا يمكن لأى عالم بالدين أن يجهله ، فالشعر غذاء للأرواح مثل الطعام للبدن ، أما اذا كان هذا الشعر يدعو الى المجون واللهو والمعصية والرذيلة ، فانه لا يباح سماعه ، وهذا ما يدعو اليه الفقهاء ، وقد اتفقت معهم فى هذا القول وأيضا ابن حجر الهيتمى ، (ت ٩٧٣ هـ) بقوله : « أن كل شعر فيه الأمر بالطاعة، أو كان حكمة أو كان فى مكارم الأخلاق، أو الزهد، أو نحو ذلك من خصال الخير ، كحث على طاعة أو سنة أو اجتناب معصية

---

(٩٥) فتيا فى ذم الشبابة والرقص والسماع ، ص ٦٢ .

(ابن قدامة هو أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسى الجماعيلى الدمشقى الصالحى الحنبلى ، ولد بجماعيل من علم نابلس قرب بيت المقدس بفلسطين فى شعبان سنة ٥٤١ هـ وارتحل مع والده الى دمشق حوالى سنة ٥٥١ هـ . . ، وتوفى حوالى سنة ٦٢٠ هـ ودفن فى سفح قاسيون ، وقد جاهد هو وبعض افراد أسرتى مع صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٢ هـ ، انظر فتيا فى ذم الشبابة والرقص والسماع ، ص ١٣) .

(٩٦) طاهر المقدسى (ابن القيسرانى) : كتاب السماع ، تحقيق أبو الوفا المراغى ، مكتبة لجنة احياء التراث الاسلامى ، القاهرة ، ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م ، ص ٥١ .

(ابن القيسرانى علم من أعلام القرن الخامس ، أولع بعلم الحديث ، فسافر فى طلبه الى أكثر من أربعين مدينة وبلدا من بلاد العالم الاسلامى ، فابن القيسرانى هو محمد ابن طاهر بن على بن أحمد بن أبى الحسن الشيبانى أبو الفضل المقدسى المعروف بابن القيسرائى المولود سنة ٤٤٨ هـ وقيل سنة ٥٠٧ هـ ، وانظر كتاب السماع ، ص ٢٤ ـ ٢٦ .

يكون كل من انشائه وانشاده وسماعه سنة ، كما صرح به غير واحد من أئمتنا وهو ظاهر ، اذ وسيلة الطاعة طاعة » (٩٧) .

ويجمل الشيخ محمود شلتوت آراء الفقهاء فى السماع فى الاباحة والتحريم بقوله : « فسماع الآلات أو الأصوات الجميلة لا يمكن أن يحرم باعتباره صوت آلة أو صوت انسان ، وانما يحرم اذا استعين به على محرم أو اتخذ وسيلة الى محرم أو ألهى عن واجب » (٩٨) .

ومن رجال العلم والدين فى القرن السابع الهجرى الشيخ عز الدين ابن عبد السلام ، اذ يورد السماع فى ثلاث مراتب مثله فى ذلك مثل باقى الصوفية السابقين عليه اذ يقول : « ان السماع ينقسم الى ثلاثة أقسام :

١ ــ منها ما هو حرام محض ، وهو لأكثر الناس من الشباب ، ومن غلبت عليهم شهواتهم ولذاتهم ... فلا يحرك السماع منهم الا ما هو الغالب عليهم وعلى قلوبهم من الصفات الذميمة سيما فى زماننا هذا وتكدر أحوالنا وفساد أعمالنا .

٢ ــ ومنها ما هو مباح لمن لا حظ له منه الا التلذذ بالصوت الحسن واستدعاء السرور والفرح ، أو يتذكر غائباً أو ميتا فيثير حزنه وفرحه بما يسمعه .

٣ ــ ومنها ما هو مندوب : وهو لمن غلب عليه حب الله تعالى والشوق اليه ، فلا يحرك السماع منه الا الصفات المحمودة وتضاعف الشوق الى الله سبحانه وتعالى .. » (٩٩) .

وهكذا يتضح لنا مدى اهتمام الفقهاء بفكرة السماع وما يثمره فى نفس العبد من التحلى بمكارم الأخلاق والفضيلة من خلال السماع الحسن بالصوت الطيب ، والبعد عن السماع المثير للهوى والمجون

---

(٩٧) ابن حجر الهيتمى : كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع ، حكم الاسلام فى الغناء والموسيقى والشطرنج ، تحقيق : عادل عبد المنعم أبو العباس ، مكتبة القران ١٩٨٩ ، ص ٢٦ .

(٩٨) عامر النجار : الطرق الصوفية ، ص ٥٨ .

(٩٩) العز بن عبد السلام : حل الرموز مفاتيح الكنوز ، صص ٢٨ : ٢٩ .

والسمو بالروح الى عالم الكمال الأخلاقى ، وهذا ما يؤكده قول الدكتور عامر النجار : (فاذا كان هدف السماع مجرد اللهو والتسلية واشتغال النفس وانبساطها وسرورها وفسادها وتقوية الغرائز وامتدادها والتذاذها فالسماع مكروه محرم ، أما اذا كان السماع بعيدا عن المجون بريئا من اللهو يرجو منه صاحبه سمو روحه وارتفاع نفسه بهمته فهو ليس مكروها » (١٠٠) .

« وفى ترك سماع الأشعار ، والصوت الموزون مخالفة للنبى عليه الصلاة والسلام ، وانحراف عن متابعته ومن خالف النبى ، وترك ما فعله عليه السلام ، معتقدا تركه ، فقد كذب القرآن ، حيث قال الله تعالى :

﴿ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١٠١) .

وعن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « ان من الشعر لحكمة » (١٠٢) (١٠٣) .

---

(١٠٠) عامر النجار ، الطرق الصوفية ، ص ٥٨ .

(١٠١) سورة الحشر : آية (٧) .

(١٠٢) الحديث أخرجه البخارى من حديث أبى بن كعب فى كتاب العلم .

(١٠٣) انظر قول الامام أحمد الغزالى فى : بوارق الالماع فى تكفير من يحرم السماع ، تحقيق هشام عبد العزيز مجلة القاهرة ، العدد ١٤٨ ، مارس ١٩٩٥ ، ص ١٦٥ .

الفصل الثانى

صلة السماع بالناحية النفسية

تمهيد .

أولا : شعور الصوفى بالسماع .

ثانيا : السماع والاستعداد النفسى .

ثالثا : السماع والرياضات الروحية .

رابعا : السماع وتأثيره فى نفس المستمع [الموسيقا ـ الحركة ـ الرقص ـ تقطيع الخرقة] .

ـ تمهيـــــد ٠

إن مسألة السماع وما ينتج عنه من وجد (١) لها علاقة عظيمة بالنفس ورياضتها ومجاهدتها ؛ لذلك يهـدف هـذا الفصل الى شرح وتوضيح فكرة السماع من الناحية السيكولوجية ، فالسماع حـالة وجدانية خاصة يعانيها المريد من خلال شعور داخلى بذاته وبالأحوال التى ترد عليه ، وهى من الأعمال الباطنية ٠

ونوضح فى هذا الفصل أيضاً فكرة السماع وعلاقتها بالرياضيات البدنيـة الأخرى كالعزلـة والخـلوة والصمت والذكر وغيرها وهى من الأعمال الظاهرية ، والسماع هو احدى الرياضيات الروحية التى يمارسها المريد من أجل التطهر والصفاء ، ومحاولة تخلى النفس عن أخطائها وتذكرها الدائم للحق تعالى ، وحـول هـذا المعنى يقـول الهجويرى : « اعلم أن السماع وارد من الحق وتزكية لهذا الجد من الهزل واللهو ولا يكون طبع المبتدىء قابلا لحديث الحق بأى حال وبورود ذلك المعنى الربانى يكون للطبع انقلابه وحرقته ، فجماعة تفقد الوعى فى السماع وجماعة تهلك ولا يوجد أحد الا ويخرج طبعه عـن حـد الاعتدال » (٢) ٠

فالسماع عند الصوفية هو دعوة الى الجد وتزكية النفس وطهارتها وصفائها من الهزل واللهو ، والسماع الصافى يورد فى نفس صـاحبه

---

(١) يقول ابن قيم الجوزية « ان الوجد والاحساس بالمؤلم والعلم به وتحرك النفس فى رفعه فهو كمال ، انظر الروح : ص ٣٦٩ ، ويقول أبو بكر الكلاباذى : الوجد هو ما صادف القلب من فزع أو غم ، أو رؤية معنى أحوال الآخرة ، أو كشف حال بين العبد والله عز وجل ، انظر التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص ١٣٤ ٠

(٢) الهجويرى (أبو عثمان حسن بن الجلاد) كشف المحجوب ، مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١٧٩٣ ، القاهرة ، ١٩٦٧ م ، ج ٣ ، ص ٦٥٥ ٠

وجداً ، فاذا كان صاحب هذا الوجد قوى الحال ، فانه يؤثر فيه دون أن يتحرك ، بل يظل ثابتاً على حاله ، أما المريد الضعيف فيؤثر فيه الوجد فى صورة غشية ، أو تصفيق أو رقص أو خروج عن حد الاعتدال ؛ لذلك ينصح الهجويرى الصوفية بعدم دخول المريد المبتدىء فى الطريق جلسات السماع . وهذا ما يؤكده المعنى السابق .

ولقد اهتم الصوفية برياضة السماع اهتماماً بالغاً من الناحية النفسية ، فالسماع غذاء للروح وشفاء من الأمراض والشهوات والملذات الدنيوية ، اى حفظ للنفس من الاحتراق بأمور الدنيا وزخرفها ، وهذا ما يؤكده قول أبى سعيد بن أبى الخير (ت ٤٤٠ هـ) : « السماع يحتاج الى ايمان قوى لأن الله تعالى قال :

وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

فالسماع غذاء الأرواح وشفاء الأشباح ، والسماع لسلك الطريق ومن لم يسلك الطريق لا يكون له سماع بالتوفيق » (٣) .

فكما أن الطعام غذاء للبدن فان السماع غذاء للروح ، ولذلك لا يمكن التركيز على طرف دون الطرف الآخر من أجل انسجام النفس الانسانية وتكاملها .

وفى هذا الفصل ايضا سيوضح البحث دور الارادة فى وقت السماع والاشتغال بالطاعات والأوامر الالهية ، ونطرح بعض الأسئلة ونحاول الاجابة عليها من خلال هذا الفصل .

هل تنتفى الارادة البشرية وقت السماع ؟

وما هى الحالة التى تنتاب المريد بعد السماع نتيجة الوجد أهى حركة أم ثبات ؟ وما نوع تلك الحركة التى تسيطر عليه أهى موزونة أم غير موزونة ؟ .

أولا : شعور الصوفى بالسماع :

النفس تتقوى بالخير والفضيلة كما يتقوى الجسد بالغذاء والرياضة فاذا فقدت حاجتها من الخير والنور ضعفت وأظلمت ، كما يضعف الجسد عند فقدان الطعام والشراب والضوء والرياضة والسماع الذى

---

(٣) محمد بن المنور : أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ ابى سعيد ، ترجمة اسعاد عبد الهادى قنديل ، مراجعة د. يحيى الخشاب ، دار الكتب المصرية ، ١٩٦٨ م ، ص ٣٥١ ، سورة النحل : آية ٨١ .

يعتبر مذموما بصورة عامة ويعد اثما عند أكثر أكابر الصوفية ومن أهم الطرق للوصول الى حالة الوجد ، لذلك قالوا « ان السماع يولد حالة فى القلب تسمى الوجد ويولد هذا الوجد حركات فى أعضاء البدن ، فان كانت غير موزونة تكون اضطرابا وان كانت موزونة فحينئذ يكون تصفيقا ورقصا » (٤) .

فالحركة الغير موزونة هى اضطراب أو حالة اغماء وغشية تصيب المريد فترة نتيجة لقوة الوارد عليه من قبل الحق سبحانه تعالى،ثم بعدها يعود الى حالته الطبيعية ، أما الحركات الموزونة عند الصوفية فتتجسد فى التصفيق ، والرقص ، لكن رقص الصوفية هو اهتزاز وتمايل ولا يشبه الرقص المثير للشهوة والهوى .

فاذا كان الوجد طريقاً نفسياً الى الفناء فان السمع طريق نفسى ايضاً الى الوجد ، والوجد هو حالة صافية روحية خالصة ، تقوى فيها الروح على الجسد ، فيصير السالك فى نشوة ربانية يحس فيها أنه من الحق ، وهو يلحق العبد مصادفة بلا تعمد ، فكل وجد فيه من صاحبه شىء فليس بوجد ، والتواجد بداية ، والوجد نهاية (٥) ، والوجد واسطة بين البداية والنهاية ، والسماع عند الصوفية كما يقول النهرجورى : « حال يبدى الرجوع الى الأسرار من حيث الاحتراق » (٦) .

فالسماع يمثل جانبا نفسيا عميقا فى الطريق الصوفى ، وتختلف درجة شعور الصوفى بالسماع من حالة الى اخرى ، كما أن لكل صنف من السماع أحواله الخاصة المتفاوتة ، فهنهم من يسمع ويتأمل ما يرد عليه ويتفهم معانيه المختلفة من ذكر عتاب أو هجر أو غير ذلك من معانى المسموع ، وهذا هو حال المستمع بالحال ، أما من يسمع بحق

---

(٤) تاريخ التصوف فى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٥٥٧ .

(٥) التواجد استدعاء الوجد بضرب اختيار وليس لصاحبه كمال الوجد اذ لو كان لكان وجدا ، ... فقال الجنيد قال تعالى .

وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

ثم قال وأنت يا ابا محمد مالك فى السماع شىء فقلت يا سيدى أنا اذا حضرت موضعا فيه سماع وهناك محتشم امسكت على نفسى وجدى فاذا خلوت أرسلت وجدى فتواجدت فأطلق فى هذه الحكاية من التواجد ولم ينكر عليه الجنيد « فالتواجد ابتداء الوجد» فالتواجد فى بداية والوجود نهاية والوجد واسطة بين البداية والنهاية .. ، يقول أبو على الدقاق ... ، فالتواجد يوجب استيعاب العبد والوجد يوجب استغراق العبد والوجد يوجب استهلاك العبد فهو كمن شهد البحر ثم ركب البحر ثم غرق فى البحر انظر الرسالة القشيرية فى علم التصوف : ص ٥٧ : ٥٨ .

(٦) اللمع : ص ٣٤٢ .

فهو الذى يسمع بالله تعالى ومنه واليه فان عن صفاتــه البشرية فى سماعه ، وهذا ما يوضحه قول بندار بن الحســين (ت ٣٥٣ هـ) :
« السماع على ثلاثة أوجه فمنهم من يسمع بالحال ومنهم من يسمع بالحق فالذى يسمع بالحال يتأمل ما يرد عليه من ذكر عتاب أو خطاب أو وصل أو هجر أو قرب أو بعد أو تأسف على فائت .. ، وأما من يسمع بحق فيسمع بالله تعالى ولله تعالى ولا يتصف بهذه الأحوال التى هى ممزوجة بالحظوظ البشرية فانها مبقاة مع العلل ، فيسمعون من حيث صفــاء التوحيد بحق لا بحظ » (٧) .

« ولقد روى أنه عندما زال الانكار عن باطن الأستاذ (القشيرى) ، كان لا يزال يذكر السماع الذى يقيمه الشيخ أبى سعيد (ت ٦٠٠ هـ)، ذلك أنه كان ينكر السماع فى البداية ، ومر يوماً على باب خانقاه الشيخ ، وكان عندئذ يقيمون السماع فى الخــانقاه .. وكان الشــيخ قد أمر بالسماع ، وقد تملكه حال من الوجد ، وشملت النشوة جميع الدراويش وأخذ القوال ينشد هذا البيت :

لا عار عليك اذا أصبحت وثنيا من أجل صنم
لأنك اذا لم تصبح وثنيا لا يكون الصنم صديقا لك

فأنكر الأستاذ الامام (القشيرى) ذلك البيت وقال لنفسه : لو أمكن تأويل جميع الأبيات على وجه من الوجوه ، فان هذا البيت يكون مــن الأبيات التى لا يمكن تأويلها ... ، ولما جلس ألتفت الشيخ اليه وقال : يا أستاذ (بيت) :

الا يلحق بك العار اذا أصبحت وثنيــة من أجل صنم ؟
واذا لم تكن وثنية هل يكون الصــنم صديقــة لك ؟

قال الشيخ البيت هكذا على وجه الاستفهام ، وعندما يسمع الأستاذ (القشيرى) طريقة تفسير هذا البيت الذى لم يستطع تفسيره ، ورغم ما له من علم ودراية فى التصوف ورغم أنه فكر فيه كثيراً ، أقر بــأن السماع مباح للشيخ ، وسلم به .. » (٨) .

---

(٧) الرسالة القشيرية : ص ١٧٠ ، وانظر اللمع : ص ٣٤٩ : ٣٥١ ، وانظر الرسالة القشيرية فى علم التصوف ، ص ٢٦٧ .

(بندار بن الحسين هو محمد بن المهلب كنيته أبو الحسن من أهل شيراز ، مات سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة ، انظر طبقــات الصوفية : ص ٤٩١ ، وانظر الطبقــات الكبرى : جـ ١ ، ص ١٣٨ .

(٨) سعيد بن أبى الخير : أسرار التوحيد فى مقــامات الشــيخ أبى سعيد ص ٩٨ ، ٩٩ .

فالتفهم لمعانى المسموع حالة لا يستطيع أى مريد أن يقــوى عليهــا وذلك يتضح من عدم قدرة القشيرى على تفهم معــانى الأبيــات السابقة فى البداية ، ومن ثم أنكرها لعدم معرفة المعنى الحقيقى لهذه الأبيات ، ولكن عندما تفهم هذه المعانى أقر بها وأباح سماعهــا ؛ ذلك لأن هــذه دعوة الى التوحيد وترك عبادة الأصنام .

من ذلك يتضح لنا اختلاف أنواع السماع حسب حالة المريد فى السماع ، والنوع الثالث من السماع هو سماع خاصة الخاصة ، وهم أهل الولاية والكمال ، وهذا النوع هو محل دراستنا لأنه مقترن بحدوث الاضطراب والانزعاج والغشية والشهقة وغير ذلــك ، وأما الثابتون الصامدون فلا يتغير حالهم وهذا أفضل ، وذلك ما يؤكده قول أبى عمر الزجاجى (ت ٣٤٨ هـ) عندما سئل عن السماع فقال : « ما أدون حال من يحتاج الى مزعج يزعجه اليه السماع من ضعف الحال ولو قوى لاستغنى عن السماع والأسباب » (٩) .

فحال القوى فى السماع يفنى عن الارادة الانسانية وعن كل شئ حوله وقت السماع ويبقى بالارادة الالهية وذلك لقوة الوارد عليه وثباته وعدم انزعاجه لهذا الوارد ــ كما سبق ذكره ــ ويثمر السماع الوجد ، وهو حالة تنتاب المريد بعد سماعه ، فمثلا سماعه للقرآن الكريم لحبه وتشوقه الدائم الى لقاء الحق تبارك وتعالى والشوق اليه وعدم تعلقه بالمخلوقين ، وصاحب الوجد اما أن يكون فى حركة اثناء الذكر واما أن يكون فى سكون وثبات بالرغم من ذكره .

فالخشوع والوجل من مظاهر الوجد الذى ينتجه السماع ، وهذا ما يؤكده الغزالى بقوله : « الوجد الحق هو ما ينشأ من فرط حب الله تعالى وصدق ارادته والشوق الى لقائه ، وذلك يهيج بسماع القرآن أيضا ، وانما الذى لا يهيج بسماع القرآن حب الخلق وعشق المخلوقين

---

(٩) طبقات الصوفية : طبعة ليدن ، ١٩٦٠ ، ص ٤٥٣ .
(أبو عمر الزجاجى ، اسمه محمد بن ابراهيم بن يوسف بن محمد نيسابورى الاصل ، صحب أبا عثمان والجنيد والنورى ورويم وابراهيم الخواص ، توفى سنة ثمان وأربعين وثلثمائة ، انظر طبقات الصوفية : صص ٤٤٩ : ٤٥٠) .

ويدل على ذلك قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (١٠) (١١)

وإذا تخلص العبد من حظوظه وأوصاف بشريته قرب من حضرة ربه لصحة قلبه واشراقه بنور مولاه ، وإذا تهذبت نفسه وتربت تربية دينية تحقق لها الانتقال من شهود الخلق والأغيار الى شهود نور الحق تعالى ، وعلامة خروج حب الدنيا من القلب بذلها عن الوجد لوجود الراحة منها عند الفقد ، ولا شك أن أعظم الأعمال وأروعها هو سماعها لذكر الحق تعالى ، ولا ينبغي للمريد أن يعدل عن هذا السماع ، ولذلك قيل : (لا يصلح السماع الا لمن فنيت حظوظه وبقيت حقوقه وخمدت بشريته) (١٢) .

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو ما شعور الصوفى أثناء السماع ؟

يتضح لنا أن السماع اما أن يثير فى نفس السالك حزناً وندماً على ذنب ارتكبه أو يثير الشوق الى لقاء الحق تعالى ، أو الاحساس بالخوف والرهبة والرجاء من الحق تعالى ، وهذه المشاعر تنعكس على نفس السالك فتفيض عيناه بالدمع أو يقشعر جلده من خشية الحق تعالى ثم يلين قلبه ويصلح بذكر الحق تعالى ، ومن ثم تحققت له الهداية والرشاد ، وهذا ما يوضحه السهروردى البغدادى (ت ٦٣٢ هـ) بقوله ، وقال عز وجل :

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (١٣) (١٤)

---

(١٠) سورة الرعد : آية (٢٨) .

(١١) احياء علوم الدين : ج ٢ ، ص ٣٧٨ ، وانظر قول عبد الرحمن بن الجوزى فى مختصر منهاج القاصدين ، تصحيح ونشر محمد أحمد دهمان ، دمشق ، ١٣٧٧ هـ ، ص ١٣٩ .

(١٢) مخطوط آداب المريدين : ص ٤٧ .

(١٣) سورة المائدة : آية (٨٣) .

(١٤) عوارف المعارف : ص ١٧٣ ، وانظر فتح الاسماع فى شرح السماع ، ص ٧٦ ، وانظر الغنية لطالب طريق الحق : ج ١ ، ص ٣٢ .

هذا السماع هو السماع الحق الذى لا يختلف فيه اثنان من أهل الايمان محكوم لصاحبه بالهداية واللب ، وهذا سماع ترد حرارته على برد اليقين فتفيض العين بالدمع ، لأنه تارة يثير حزناً والحزن حار ، وتارة يثير شوقاً والشوق حار ، وتارة يثير ندماً والندم حار ، فاذا أثار السماع هذه الصفات من صاحب قلب مملوء ببرد اليقين أبكى وأدمع ، لأن الحرارة والبرودة ، اذا اصطدما عصرا ماء ، فاذا ألم السماع بالقلب تارة يخف المامه فيظهر أثره فى الجسد ويقشعر منه الجلد ، قال الله تعالى :

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (١٥)

وقال أيضاً :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴾ (١٦)

ويفسر علماء النفس حالة الوجد التى تنتاب المريد أثناء السماع بقولهم أن النفس تدور حول ذاتها طبقاً لقانون النوع والفرد ، نتيجة لتعرضها لتيار جارف ، وهو ما يسميه الصوفية بالوجد ، تخرج عن هذا القانون لحظة وتستسلم لهذا التيار بجملتها ، دون ادراك لهذه القوة التى تحركها وفى هذه اللحظة (لحظة الوجد) تشعر النفس بوجودها من خلال تذكرها لعالمها السابق قبل أن تحل بالبدن ، وعند

---

(١٥) سورة الزمر : آية ٢٣ .

(١٦) سورة مريم : آية (٥٨) .

هذه اللحظة تشعر بأن الحق تعالى حاضر فتغمرها فرحة وبهجة لمشاهدتها لنور الحق تعالى ، فالوجد اذن هو استجمام النفس لحظة شعورها بذاتها ثم العودة الى حياتها الطبيعية مرة ثانية . فيوضح هنرى برجسون Henery Bergson بقوله : « ان النفس حين تهتز فى أعماقها بالتيار الذى يجرفها ، تكف عن الدوران على ذاتها بافلاتها لحظة من القانون الذى يريد للنوع والفرد أن يحدد كل منهما الآخر دورانياً ، انها تتوقف كأن صوتاً يدعوها ، ثم تستسلم للتيار يحملها ، ويمضى بها قدماً ، انها لا تدرك القوة التى تحركها ادراكا مباشرا ، ولكنها تحس بوجودها الغامض ، أو تستشفه فى رؤية رمزية ، وعند ذلك يغمرها فيض من فرح أو وجد تغرق فيه أو بهجة تعانيها ، فتشعر أن الله حاضر .. ، أن نفس الصوفى الكبير لا تقف عند الوجد على أنه غاية المطاف . ان الوجد استجمام ، ان شئت ، ولكنه استجمام كاستجمام القاطرة تتوقف فى المحطة ملجومة فى مكانها ، ولكنها ما تزال تتحرك بانتظار اندفاعة جديدة » (١٧) .

مما سبق يتضح لنا أن الصوفى اذا استمع الى انشاد القصائد الدينية التى ترقق القلب وتشعل حب الله فى قلوب عشاقه والتزم فى ذلك بشروط السماع وتواجد فى غير تكلف والتزم السكون والخشوع ، فلا حرج عليه ، فالسماع سفير ورسول من الحق يحمل أهل الحق الى الحق ، فمن أصغى اليه بفهم وتدبر وصل الى الحق ، ومن أصغى اليه بطبع النفس وهواها خرج عن حدود الشرع وتزندق ، وهذا ما يوضحه قول ابى سعيد بن أبى الخير : « قال الشيخ : سئل الأستاذ أبو على الدقاق (ت ٤١٢ هـ) عن السماع فقال : السماع هو الوقت فمن لا سماع له لا سمع له ، ومن لا سمع له ، فلا دين له ، لأن الله تعالى قال ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾

وقال تعالى : ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ (١٧)

---

(١٧) هنرى برجسون : منبعا الاخلاق والدين ، ترجمة سامى الدروبى ، وعبد الله عبد الدائم ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٤٠ م ، ص ٢٠٨ ، الشعراء : آية (٢١٢) ، الملك : آية (١٠) .

فالســـماع سفير من الحــق ، ورسول من الحــق يحمل الحق ، لأهل الحق بالحق الى الحق ، فمن أصغى اليه بحق تحقق ، ومن أصغى اليه بطبع تزندق » (١٨) ٠

ثانيا : السماع والاستعداد النفسى :

إن مسألة السماع لها علاقة عظيمة بالنفس وباقى الرياضـيات الأخرى ، كما أن من أهم الحالات الوجدانية التى يعانيها الصــوفى هى حالة الاستعداد النفسى ، وهى أيضا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالســماع عندهم ، فالنفس تدعو الانسان الى اتباع الشهوات والانغمــاس فى الملذات ، وهى منبع الأخلاق الذميمة والشرور ، وهذا ما يتعارض مع السماع ، وأن الرياضة والمجاهدة يتحققان بمخالفة هوى النفس ، ومهما يكن من أمر السماع فانه بلا شك كان وسيلة جيدة لترويض النفس وتهذيبها وحملها على طاعة المولى عز وجل فى كل ما يصدر عن السالك ، وهذا ما يؤكده الهجويرى بقوله : « هو وسيلة جيدة للتأثير والتطهير رغم اختلاف القوم فيه وما روى عن سماع القرآن لهو خير دليل على الآثار الروحية التى يحدثها السماع (١٩) قد ذكــر عــن النبى ﷺ انه عندما استمع الى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ ﴾

(٢٠)] أنه وقع مغشيا عليه ٠

اذن لكى يتحقق للسالك السماع الحقيقى لابد له من مجاهدة النفس وعدم غفلتها وانشغالها بالشهوات والملذات الدنيوية ، فالسماع لاحياء القلوب اليقظة ولأصحاب التقوى ، ومن ثم يهتدون الى الرشد ، وهذا ما يوضحه قول محمد بن على الباقر (ت ١٤٨ هـ) : « قوت القلوب من

---

(١٨) سعيد بن ابى الخير : أسرار التوحيد ، ص ٢٩٨

(١٩) كشف المحجوب : ج ٢ ، ص ٦٦٥ ٠

(٢٠) سورة المزمل : الآيات (١٢ ، ١٣) ٠

شهوات النفس ، فكلما رفض شهوات نال من الحياة بقسطها ، فالسماع للأحياء لا للأموات ، قال الله تعالى :

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ (٢١ ، ٢٢)

فالموت عند الصوفية هو موت شهوات النفس وأهوائها ، وحياة القلوب بذكر الحق تعالى وصفاتها ، ومن ثم فالسماع هو لأصحاب القلوب الحية العامرة بذكر الحق تعالى .

ولابن عربى رأى خاص فى صاحب النفس الضعيفة يجب عليه أن يقمع نفسه الشهوانية وذلك بقلة السماع خوفاً عليه من سيطرة الشهوة التى يثيرها السماع وخاصة سماع المرأة والأمرد ؛ ذلك لأن السماع الحق هو أن يغنى العبد عن حظوظ نفسه وأحوالها ولا يلتفت اليها ، وهذا ما يؤكده بقوله : « وينبغى لمن أراد قمع نفسه الشهوانية أن يقلل من استماع السماع وخاصة النسوان والشابات منهن المتصنعات فان للسماع قوة عظيمة فى اثارة الشهوة .. ، والأولى لمن هم بقهر الشهوة أن يتجنب السماع وأن لم يكن منه بد ولم تستجب نفسه الى هجره بالكلية فليقتصر على استماعه من الرجال ومن لا مطمع للشهوة فيه ، والاقلال منه خير وأصون للمتعفف » (٢٣) .

وقد يسمع الانسان أصواتا ونغمات موزونة عذبة فيطرب لها دون أن يكون متفهماً لمعناها ، وهذا ما يحدث عندما يسمع الانسان أغنيات بلغات لا يعرفها ويطرب لسماعها وتثير وجدانه وتحرك روحه ؛ لأن الذى يؤثر فيه هو جمال الصوت وعذوبة النغمات وليس معانى الكلمات وهذا ما يوضحه قول ابن عربى السابق .

ويذهب الصوفية أيضا الى أن القلب اذا أصغى وخلا من حب الشهوات والأهواء وتطهرت السريرة وعمرت بحب الحق تعالى ، تحقق

---

(٢١) سورة النمل آية ٨٠ .

(٢٢) عوارف المعارف : ص ٢١ .

(هو محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب وكان رضى الله عنه يقول لا يتم المعروف الا بثلاث خصال تصغيره اذا صنعته وتستره وتعجله .. ، توفى بالمدينة سنة ثمان وأربعين ومائة ، انظر الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ٣٥ : ٣٦) .

(٢٣) ابن عربى (محيى الدين) : رسالة تهذيب الأخلاق مطبعة كردستان العلمية ، ١٩٥٠ ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ وانظر ابن عربى : فلسفة الأخلاق ، دار الكتب ١٩٤٥ م ، ص ٣٨ ، وانظر أيضا قول عبد الوهاب الشعرانى : البحر المورود فى المواثيق والعهود ، هامش على لواقح الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية ، المطبعة الميمنية ١٢٢١ هـ ، ص ١٤١ .

له سماع الخطاب الالهى ، والعكس اذا سيطرت على هذا القلب الوساوس الشيطانية وهواجس النفس سدت تلك المسامع عن ادراك الخطاب الالهى ، وهذا ما يوضحه قول القشيرى : « الغفلة على أسماع قلوبهم غطاء الخذلان ، سدت تلك المسامع عن ادراك خطاب الحق من حيث الايمان ، فوساوس الشيطان وهواجس النفس شغلتها عن استماع خواطر الحق » (٢٤) ٠

ويذهب علماء النفس الى ما ذهب اليه القشيرى فى الوصف التحليلى لحالة النفس أثناء الوجد ، وما يتحقق لها من الرؤية والمشاهدة والانفعال . وحالة النفس بعد الوجد وشعورها بما حولها ، وما تعانيه من أسى بعد أن تعودت على النور الالهى ، وهذا ما يوضحه هنرى برجسون بقوله : « وهذا الاضطراب فى الراحة هو الذى يميز ما نسميه بالصوفية الكاملة : انه يدل على أن الوثبة اتخذت للمضى الى أبعد من ذلك ، وأن الوجد يتصل بملكة الرؤية والانفعال وأنه قد تبقى هنالك الارادة ، فلا بد أن تفر هى الأخرى فى الله ، واذا تضخم هنا الشعور حتى ملأ المكان كله ، ذهب الوجد ، وعادت النفس فألفت ذاتها وحيدة ، وقد تضن أسى ، فقد تعودت على النور الباهر مدة ، فغدت لا ترى فى الغسق شيئاً » (٢٥) ٠

والجدير بالذكر أيضاً أن الصوفية قد ذهبوا الى أن جامد الطبع وعديم الذوق لا يتأثر بالسماع ، ذلك لأن السماع هو تذوق وفهم للمعانى المسموعة واستلذاذ المسموحة ، والذوق من الأمور الضرورية لكل انسان عاقل ، وهذا ما يوضحه الصوفية بقولهم : « أعلم أن جامد الطبع لا يتأثر بالسماع ولا يلين به لكونه عديم الذوق بقول كلما يدعى فيه من الذوق الداعى الى الفرح بالله تعالى أو الخوف منه أو الانكسار أو الافتقار وغير ذلك ممنوع ؛ اذ لو وجد لتحقق فى مثلى لأن الأذواق من الأمور الضرورية ولا يتفاوت فى ذلك العقلاء » (٢٦) ٠

---

(٢٤) لطائف الاشارات : ج ١ ، ص ٧٢ ٠

(ولد القشيرى فى عام ٣٧٦ هـ ومات فى عام ٤٦٥ هـ ، هو عبد الكريم بن هوزان ابن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيرى ، وكنيته أبو القاسم ، ولقبه زين الاسلام ، وشهرته القشيرى ، ومن اهم مؤلفاته لطائف الاشارات ـ التيسير فى علم التفسير ـ احكام السماع ـ آداب الصوفية ـ الرسالة ٠ انظر د٠ ابراهيم بسيونى : الامام القشيرى ، سيرته ، آثاره ، مذهبه فى التصوف ، دار الكتب ، ١٣٩٢ ـ ١٩٧٢ م ، ص ٢٩ : ٤٢ ، وانظر هذا البحث : ص ٣٧ ٠

(٢٥) هنرى برجسون : منبعا الاخلاق والدين ، ص ٢٠٩

(٢٦) رسالة فى السماع والتواجد : ص ٣ ٠

كما يذهب الصوفية أيضاً ، الى أن السماع لا ينشىء شيئاً جديداً فى القلوب وانما يحرك ويهيج ما فيها ، واذا كانت هذه القلوب صافية من الشهوات والأكدار ومعمورة بذكر وحب الحق تعالى ، تحقق لهذه القلوب الثبات وعدم القلق والاضطراب والهيجان ، أما اذا اصطدمت هذه القلوب بوارد قوى أو قوة سلطانية فانها تعجز عن الثبات ، فتبعث الجوارح بالحركات والصرخات لثورتها فى القلوب ، وهذا ما يوضحه عز الدين بن عبد السلام بقوله : « ومعلوم أن السماع مهيج ما فى القلوب ، محرك لما فيها فلما كانت قلوب القوم معمورة بذكر الله تعالى صافية من كدر الشهوات محترقة بحب الله سبحانه وتعالى ليس فيها سوى الله ، فالشوق والهيجان والقلق والوجد والصيحان كامن فى قلوبهم كمكمون النار فى الزناد فلا يظهر الا بمصادفة ما يشاكلها ٠٠ ، فتعجز القلوب عن الثبوت عند اصطلامها فتبعث الجوارح بالحركات والصرخات والصعقات لثوراتها فى القلوب لأنه يحدث فيها شيئاً » (٢٧) .

كما يذهب الصوفية أيضا الى أن كل سماع لا يكون عنه وجد وعن ذلك الوجد وجود فليس بسماع ، كما يصف الصوفية الحالة النفسية للمريد الذى يسيطر عليه الوجد نتيجة السماع بقولهم أنه لابد من الفهم والتنبه للمعانى التى تعزب على غيرهم ، وكذلك الفناء عن النفس والسماع حتى يزول الحجاب ويتحقق له المشاهدة للنور الالهى والفرح به ، فيتحول هذا الفرح الى بكاء ، فمنهم من يبكى ، ومنهم من يهيج ويضيح ، ومنهم من يمزق ثيابه ومنهم من يدور حول نفسه وغير ذلك من الأحوال النفسية وذلك لقوة الوارد الالهى عليه ، وبعد ذلك يتحقق له الوجود والبقاء ، وهذا ما يوضحه رويم البغدادى (ت ٣٠٣ هـ) عندما سئل عن وجد الصوفية عند السماع : « فقال : يتنبهون للمعانى

---

(٢٧) حل الرموز ومفاتيح الكنوز : صص ٥٧ : ٥٨ وانظر بوارق الالماع فى تكفير من يحرم السماع ، ص ٣٠ ، وانظر قول أبى القاسم الجنيد فى عوارف المعارف : ص ١٩٣ .

(هو الشيخ عز الدين بن عبد السلام بن أبى القاسم بن حسن بن محمد بن مهذب السلمى أبو محمد شيخ الاسلام وسلطان العلماء ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة وتفقه على الفخر بن عساكر واخذ الأصول عن السيف الأموى وسمع الحديث من عمر بن طبرزد وغيره وبرع فى الفقه ٠٠ قدم مصر واقام بها اكثر من عشرين سنة ناشرا للعلم والقى التفسير بمصر دروسا والف كتبا منها الفتاوى الموصلية ومختصر النهاية وشجرة المعارف والقواعد الكبرى وبيان أحوال الناس يوم القيامة ٠٠ ، قال القطب البونى وكان مع شدته وصلابته حسن المحاضرة بالنوادر والأشعار يحضر السماع ويرقص فيه ، انظر حل الرموز ومفاتيح الكنوز ، ص ٣ ، ٤) .

التى تعزب عن غيرهم فيشير اليهم الى آلى فيتنعمون بذلك من الفرح ويقع الحجاب للوقت فيعود ذلك الفرح بكاء فمنهم من يمزق ثيابه ومنهم من يبكى ، ومنهم من يصيح » (٢٨) .

إذن فالسماع هو انفعالات نفسية واشارات روحية قد تبدو على صاحبها فى شكل حركات أو اهتزازات أو شهقة أو صراخ أو زعقة ، وهذه كلها من صفات الفناء عن الارادة وقت السماع ، ومن ثم يطرح د. / إبراهيم ياسين سؤاله « كيف يبدو الجانب النفسى واضحاً فى السماع ؟ »

فيجيب على ذلك بقوله : السماع قادر على تحويل الصوفى الى مجموعة من المشاعر والانفعالات بل أن شئنا قلنا أن كل الصوفى يستغرق فى أحواله تكون كل اشارة وكل حركة وكل همسة مما يثير انفعالاته النفسية ، يقول د. / إبراهيم بسيونى « ليس أجل على رهافة الحس عند المحبين من هذه النوبات التى كانت تصيبهم إذا ترامى الى أسماعهم وقلوبهم حديث الحب فرب بيت من الشعر ينشده انسان بقصد أو بغير قصد يصيب المحب بانقلاب نفسى أو عضوى عارم فيضطرب أو يرقص ويبكى أو ينشج .. ، بل لقد تذهب روحه فى نوبة من تلك النوبات » (٢٩) .

وقد حفلت كتب الصوفية بالعديد من القصص والأقاويل التى توضح الحالة النفسية للمريد التى تنتابه نتيجة لغلبة الوجد عليه الناتج عن سماع بيت من الشعر أو آية من آيات الذكر الحكيم ، « فقد كان الشبلى فى مسجده ليلة من رمضان وهو يصلى خلف امام فقرأ الامام : **(ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا اليك) الاسراء آية ٨٦** فزعق الشبلى زعقة ظن الناس أنه قد طارت روحه واحمر وجهه وارتعدت فرائصه ، وكان يقول : بمثل هذا يخاطب الأحباب ، وأخذ يردد ذلك مرارا » (٣٠) .

---

(٢٨) عوارف المعارف : ص ١٥٥ ، وانظر الامتاع بأحكام السماع : ص ٦٣ ، وانظر قطع النزاع وكشف القناع عن دليل جواز السماع : ص ٣٥ ، وانظر أيضاً الرسالة القشيرية فى علم التصوف ، ص ٢٦٦ .

(٢٩) د. ابراهيم ياسين : حال الفناء فى التصوف الاسلامى ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٣٩ .

(٣٠) احياء علوم الدين : ج ٢ ، ص ٢٧٩ ، وانظر اللمع : ص ٣٥٥ ، وانظر د. ابراهيم بسيونى : نشأة التصوف الاسلامى ، دار المعارف ، ١٩٦٩ م ، ص ٨١ ، وانظر رواية بهز بن حكيم بن معاوية ، ورواية صالح المرى ، وحال عمر بن عبد العزيز فى حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : ج ٥ ، ص ٣١٨ ، وانظر أحمد بن حنبل : كتاب الزهد ، ص ٢٤٧ ، وانظر اتحاف السادة المتقين : ج ٩ ، ص ٢٥٥ ، وانظر ايضا تهذيب التهذيب : ج ٣ ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

ويتضح من هذه الروايات أن السماع يذكر النفس بأخطائها ويجرد النفس من آفاتها ، وتزكية لهذا الجد من الهزل واللهو ، وهذا السماع الالهى يورد انقلابا فى وجدان المريد ، فجماعة تفقد الوعى ، وجماعة أخرى تهلك ، أى أن السماع ثورة نفسية قوية تجتاح وجدان المريد وتؤدى الى انقلابه ، وهذا ما يوضحه الهجويرى بقوله : « اعلم أن السماع وارد من الحق وتزكية لهذا الجد من الهزل واللهو ولا يكون طبع المبتدىء قابلا لحديث الحق بأى حال وبورود ذلك المعنى الربانى يكون للطبع انقلاب وحرقة ، فجماعة تفقد الوعى فى السماع وجماعة تهلك ولا يوجد أحد الا ويخرج طبعه عن حد الاعتدال » (٣١) .

« وقال بعضهم : رأيت حسيناً الحلاج وقد سمع قارئا يقرأ فأخذه وجد فرأيته يرقص ورجلاه مرفوعتان عن الأرض فاذ هو يقول :

من أطلعوه على سر فباح به   لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وعاقبوه على ما كان من ذلك   وأبدلوه مكان الأنس ايحاشا (٣٢)

هذه حالة من الوجد الشديد الذى جعل صاحبه يرقص وفى حالة عدم استقرار . ومثل هذا الوجد الشديد يكون نتيجة وارد الهى ، اما اذا كان هذا الحال هو استدعاء للوجد (التواجد) فهذا شرك ويخرج صاحبه عن حدود الشريعة ، ومن ثم يكون صاحبة اشبه بالمريض النفسى (المجذوب) وهذا الشخص ينال كثيراً من المهانات نتيجة لتعارض حاله مع وضع المجتمع وخروجه عن حدود الشرع .

ويذهب الصوفية أيضاً الى أن الوارد القوى الناجم عن السماع ينشىء فى نفس المريد نوعا من الاضطراب والقلق النفسى وعدم الثبات والاستقرار ، ويزول هذا الاضطراب مع زوال الوارد الالهى ، هذا الاضطراب ناجم عن لذة الخطاب الالهى ، وهذا ما يوضحه الجنيد بقوله : « عندما سئل : ما هو السبب فى أننا نرى الرجل مستلقيا وبمجرد أن يتلقى السماع يتولد فيه الاضطراب والهياج ؟ أجاب : أن الحق تعالى

---

(٣١) الهجويرى : كشف المحجوب ، ج ٢ ، ص ٦٥٥ .

(٣٢) ماسينون (وب ـ كراوس) : أخبار الحلاج أو مناجيات الحلاج ، مطبعة القلم ، ١٩٣٦ ، ص ص ١٢٣ : ١٢٤ ، وانظر رواية الحسن النورى فى الرسالة القشيرية ص ١٥٢ ، وانظر ترتيب السلوك فى طريق الله تعالى : ص ٧٦ ، وانظر نشأة التصوف الاسلامى ، ص ٢٢٧ ، وانظر الكواكب الدرية : ج ١ ، ص ١٩٥ .

(٠) (هو أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج ، من أهل بيضاء فارس ونشأ بواسط العراق ، صحب الجنيد والنورى وعمرو بن عثمان المكى ، قتل ببغداد سنة تسع وثلثمائة ، انظر الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ١٦٩) .

خاطب ذرية آدم فى محكم كلامه

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ (٣٣)

فغرقت كل الأرواح فى بحر لذة ذلك الخطاب ؛ فاذا ما سمعوا السماع فى هذا العالم يندفعون الى الحركة والاضطراب من تلقاء أنفسهم » (٣٤) .

ويوضح لنا الصوفية أن الوجد الحقيقى يجعل صاحبه يلقى بنفسه فى النار دون أن يحس بها أو يأكلها بفمه ، أى أن المستمع يتحـرك بارادة الحق تعالى وليس له ارادة فيما يقوم من الأفعال والأحوال ، وذلك لقوة الوارد الالهى عكس أدعياء التواجد الذين يتظاهرون بالوجد ولكن لا أصل له عندهم ، ويسمى الصوفية هذه الحالة بالجذب الالهى ، ولكن هذا الجذب يختلف عن الجذب العقلى الذى يفقد فيه الانسـان عقله ، وهذا ما يتضح من رحلات ابن بطوطة بقوله : « ولما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفـوف وأخذ الفقراء فى الرقص .. ، ثم أخذوا فى الذكر والشيخ أحمد (٣٥) قاعد على سجادة جده المذكور ثم أخذوا فى السماع وقد أعدو أحمالا من الحطب فأججوها ناراً ودخلوا فى وسطها يرقصون ومنهم من يتمرغ فيها ومنهم من يأكلها بفمـه حتى اطفئوها جميعا وهذا دأبهم » (٣٦) .

فالسماع اذن وسيلة لترقيق القلب وتهذيب النفس ، واذا كـان السماع بحق وبقلب يقظ بعيداً عن الغفلة آثار الوجد الحقيقى ، أما اذا كان تصنعا فانه يثير التواجد ، ولعل الروايات السابقة والتى تروى عن ذى النون المصرى توضح لنـا الفرق بين الحالتين اذ حكى أحمد بن مقاتل المكى ، قال . « ولما دخل ذو النون المصرى بغداد ، واجتمع اليـه

(٣٣) سورة الأعراف : آية ١٧٢ .

(٣٤) تاريخ التصوف فى الاسلام : ص ٥٦٣ ، وانظر الرسالة القشيرية : ص ٣٦٤ ، وانظر الطبقات الكبرى ج ١ ، ص ٧٣ ، وانظر ابن الفارض : كشف الوجوه الغر لمعـانى نظم الدر المسماة بنظم السلوك ، شرح عبد الغنى النابلسى وحسن البورينى ، المطبعـة الأزهرية ، ٣١٩ هـ ــ ١٩٢١ م ، ج ٢ ، ص ٧٠ : ٧١ .

(٣٥) الشيخ أحمد بن أبى العباس الرفاعى منسوب الى بنى رفاعة قبيلة من العرب وسكن أم عبيدة بأرض البطائح الى أن مات بها يوم الخميس وقت الظهر ثانى عشر جماد الأول سنة سبعين وخمسمائة ، انظر الطبقـات الكبرى : ج ١ ، صص ١٥٦ : ١٦٠ .

(٣٦) ابن بطوطة : رحـلة الى بلاد الهنـد ، طبعـة باريس ، ١٨٧٩ ، ج ٢ ، ص ٥ ــ ٦ .

الصوفى ، ومعهم قوال (أى منشد) ، فاستأذنوه أن يقول بين يديــه شيئاً فأذن ، فأنشد يقول :

صـــغير هــواك عذبنى   فكيف اذا احتنــــكا

قال : فقام ذو النون وسقط على وجهه والدم يقطــر من جبينــه ولا يسقط على الأرض ، ثم قام رجل من القــوم يتواجــد ، فقال لــه ذو النون قال الله تعالى : ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٣٧) . فجلس الرجل » (٣٨) .

ويعلق أسامة كامل على ذلك بقوله : « ويتضح من هذه الرواية أن ما آثار ذا النون وجد حقيقى ، أما الرجل الآخر فلم يثر فيه الســـماع سوى التواجد ، وهذا يعنى أنه لم يسمع بحق بل يسمع بنفس ، وفطن ذو النون الى ذلك بفراسته فنهاه مبينا له أن الله مطلع عليه » (٣٩)

ويدافع ابن تيمية عن الصوفية وحالة الوجد الحقيقى التى تسيطر على المريد بقوله : « والذى عليه جمهور العلماء : أن الواجد من هؤلاء اذا كان مغلوبا عليه لم ينكر عليه ، وان كان حال الثابت أكمل منه »(٤٠).

يتضح من هذه الروايات أن السماع يذكر النفس بأخطائها ويجرد النفس من آفاتها ويدفعها دفعاً الى طريق التحلى بالأخــلاق والصفات الحميدة فى السماع والتخلى عن آفات السماع الذى هو أهم أهــداف الثبات والاستقرار النفسى ، وهــذا الثبات النفسى من أهــم أهداف التصوف ، ذلك لأن السامع اذا كان ثابتا نفسيا غير مضطرب ومتأثر بالسماع ، كان هذا الرجل هو المستمع بالمعنى الحقيقى ، غير خاضع لارادته فى حالة زيادة الوجد بعيدا عن سماع الشهوات والأهواء ، وهذا

(٣٧) سورة الشعراء : آية (٢١٨) .

(٣٨) الرسالة القشيرية : جـ ٢ ، ص ٦٥٠ ، وانظر الامتاع باحكام السماع ص ٦٣ ، وانظر عبد المحمود نور الدائم السمانى : النصرة العلمية لأهل الطريقة الصوفية ــ الطبعة الأولى ، ١٣٧٥ هـ ــ ١٩٥٦ م ، ص ٧١ ، ٧٢ ، وانظر عوارف المعارف : ص ١٧٩ ، وانظر العارف بالله ذو النون المصرى : ص ٧٠ .

(٣٩) أسامة كامل حسن : ذو النون المصرى وتصوفه ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٧٩ :

(٤٠) ابن تيمية (تقى الدين) : الصوفية والفقراء ، مراجعة أسامة محمد عبد العظيم حمزة ، دار الفتح ، ١٩٨٥ ، ص ٨ ، ٩ .

سماع أهل المعرفة والحقيقة ، أما السامع بنفسه فيحرص على أرضاء رغباتها فى السماع من ارتكاب المعاصى والذنوب التى تخرج عن حدود الشرع .

ثالثا : السماع والرياضات الروحية الأخرى :

واذا كان الصوفية قد اعتبروا السماع من أهم الرياضات الروحية التى لا بد لكل مريد أن يتحقق بها ، فان هذه الرياضة لا تصل الى الهدف الشرعى السليم الا بالقيام بباقى الرياضات البدنية الأخرى ، أى أنه يوجد اتصال وثيق بين السماع وباقى الرياضات ومن بينها الخلوة ، فالخلوة لها اهميتها فى النهوض بالنفس الى ما يحميها من سيطرة الهوى عليها ، وسبب الوصول الى الله تعالى والى تحصيل العلوم والمواهب العرفانية وثمرتها محو الذنوب والتخلى عن سماع أهل الفسق لأن فى كلامهم قسوة وفسادا ، وهذا ما يؤكده قول بعض الصوفية : « قلت لبعض الأبدال (٤١) المنقطعين الى الله : كيف الطريق الى التحقيق قال : لا تنظر الى الخلق فان النظر اليهم ظلمة ، قلت لا بد لى ، قال : فلا تسمع كلامهم فان كلامهم قسوة ، قلت لا بد لى ... قال : يا هذا تنظر الى اللاعبين ، وتسمع كلام الجاهلين ، وتعامل البطالين ، وتسكن الى الهالكين ، وتريد أن تجد حلاوة الكامل وقلبك مع غير الله .. »(٤٢) .

واذا كان السماع يشترط حضور القلب فان الصوفية اشترطوا ايضا حضور القلب فى أوقات الخلوة ومجالس الذكر ، ومن ثم يوجد أمر مشترك بين السماع والخلوة والذكر الا وهو حضور القلب ويقظته ، وهذا ما يوضحه ابن القيم بقوله : « اطلب قلبك فى ثلاثة مواطن : عند سماع القرآن ، وفى مجالس الذكر ، وفى أوقات الخلوة ، فان لم تجده

---

(٤١) الابدال : هم الذين يروون الحديث فى هذه الامة ثلاثون رجلا قلوبهم على قلب ابراهيم خليل الرحمن ، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا ، ومن الأبدال ثلاثمائة شخص على قلب آدم لكل واحد منهم من الاخلاق الالهية ثلاثمائة خلق ، وأربعون شخصا على قلب نوح ، وسبعة على قلب الخليل ، وخمسة على قلب جبريل ، وثلاثة على قلب ميكائيل ، وواحد على قلب اسرافيل ، وعشرة على قلب داود ، انظر د. عبد المنعم الحنفى : معجم مصطلحات الصوفية ، بيروت ، دار السيرة ، ١٩٨١ ص ٨ ـ ٩ .

(٤٢) د. عبد الحليم محمود : التصوف حياة وسلوك ، المطابع الأميرية ، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م ، ص ٥٣ ، وانظر الدمياطى (أبا بكر محمد شطا) : كفاية الاتقياء ومنهاج الأصفياء ، المطبعة الخيرية ، ١٣٠٣ هـ ، ص ٣٨

فى هذه المواطن فسل الله أن يمن عليك بقلب فانه لا قلب لك » (٤٣) .

وإذا كانت الخلوة عند الصوفية لها أهميتها فى حفــظ النفس من سيطرة الهوى عليها ، فان الصحبة عندهم لا تقل أهمية عن الخلوة ، فالانسان اجتماعى بطبعه ، ويستوحش من الوحدة التامة ، أى أن المريد لابد له من صحبة الشيوخ حتى يتعلم منهم ويسمع الخير ، وبعد هذه المصاحبة لا بد له من الخلوة ، أى التخلى عن صحبة الخلائق والاتصال بهم ، فالخلوة هى وجود المريد بجسده مع الخلق وبقلبه وباطنه مــع الحق تعالى ، وهذا ما يوضحه عبد القادر الجيلانى ناصحاً مريــده : « يا جاهل تترك سماع هذا الكلام وتقعد فى صومعتك مع نفسك وهواك تحتاج أولا الى صحبة الشيوخ وقتل النفس والطبع ، وما سوى المولى عز وجل تلزم باب دورهم أعنى الشيوخ ثم بعد ذلك تتفرد عنهم وتقعد فى صومعتك وحــدك مع الحق عز وجل » (٤٤) .

وفى صحبة الأخيار والصالحين عون للمريد على تحقيق مراده وذلك بسماعه لأقوالهم ونصائحهم الصالحة ورؤية أعمالهم واحوالهم الطيبة الفاضلة ومحاولة التشبه بهم ، وذلك ما يؤكــده الهــروى بقــوله : « اما صحبة الصالحين فانها عون على مراده ومقصده بسماع أقوالهم ورؤية أحوالهم والتشبه بهم » (٤٥) .

كما يرى الصوفية أيضاً أنه لكى تتحقق الصحبة فى السماع لا بد من أمور ثلاثة : أولها الوقت المناسب لاجتماع اهل الصحبة ، وكذلــك المكان المناسب فلا يكون فى الشارع أو مكان مزدحم بل يكون فى زاوية حتى يسهل على المريدين الاجتماع فيها ، وأيضا أن يكون أهل الصحبة من الأخيار والصالحين حتى يكونوا عوناً للمريد على تحقيق مراده ، وهذا ما يوضحه الجنيد بقوله : « السماع يحتاج الى ثلاثة اشيــاء : والا فلا يسمع الزمان والمكان والاخوان » (٤٦) .

(٤٣) ابن قيم الجوزية : الفوائد ، دار الريان ، ١٩٨٧ ، ص ٢٠٤ ، وانظر قول د. ابراهيم بسيونى فى : الامام القشيرى ، سيرته وآثاره ، مذهبــه فى التصوف : ص ٢١٢ .

(٤٤) عبد القادر الجيلانى : الفتح الربانى والفيض الرحمانى ، دار الكتب المصرية ، ١٣٤٦ هـ ، ص ٢٢ .

(٤٥) المنوفى (أبو الفيض محمود) : التمكين فى شرح منازل السائرين يشرح فيــه منــازل السـائرين للهروى الانصارى ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ١٩٦٩ ، ص ٩ .

(٤٦) احياء علوم الدين : ج ٢ ، ص ٣٨٥ ، وانظر الرسالة القشيرية فى علم التصوف وبهامشه شرح شيخ الاسلام زكريا الأنصارة ، مطبعة صبيح ، ١٩٧٢ ، ص ٢٦٥ ؛ وانظر اللمع ، صص ٢٤٦ : ٣٤٢ ، وانظر قول الامام احمد الغزالى فى : مجلة القــاهرة ، العدد ١٤٨ ، ١٩٩٥ ، ص ١٦٤ ، وانظر ابن عطاء الله السـكندرى فى الفتوحات الالهيــة وشرح المباحث الأصلية ، ج ٢ ، ص ٤٣٩ .

ولا شك أن مجلس السماع اذا تم فى المكان والزمان المناسبين ولم يكن من بين الحاضرين من ليس من أهل السماع ساعد ذلك على جمع النفس وخلق جو ملائم لاثارة الوجد واثمار السماع فتلك المؤثرات الخارجية لها دور كبير فى نفوس السامعين ، وفى صحبة الأخيار والصالحين عون للمريد على تحقيق مراده وذلك بسماعه لأقوالهم ونصائحهم الصالحة ورؤية أعمالهم وأحوالهم الطيبة الفاضلة ومحاولة التشبه بهم ، لذا يجب مراعاة هذه الأمور .

كما أن من أهم الرياضات الروحية الأخرى التى ترتبط بالسماع العزلة أى العزلة عن مخالطة واستماع مجالس السوء ، ذلك لأن المستمع شريك القائل وفى العزلة قهر النفس من اتباع سماع الهوى والأنس بالحق تعالى ، وهذا ما يوضحه ابن عطاء الله السكندرى بقوله : « لو انقطعت عن الخلق لفتح لك باب الأنس به تعالى ، لأن الأولياء قهروا أنفسهم بالخلوة والعزلة فسمعوا من الله وانسوا به ، فان أردت أن تستخرج مرآة قلبك من الأكدار فارفض ما رفضوا وهو الأنس بالخلق » (٤٧) .

كذلك يرى الصوفية أيضاً أن العزلة فى السماع لها أهمية كبيرة من حيث انها تساعد المريد على التخلص من الآفات والمعاصى التى يتعرض لها من خلال المخالطة مثل الغيبة والنميمة والتمضمض بأعراض الناس ، وأيضاً التفاخر والمباهاة بالنفس أمام الآخرين ، وغير ذلك من الرذائل التى تخرج المريد عن حدود الشرع ، وذلك على حد قول ابن القيم : « التخلص بالعزلة من المعاصى التى يتعرض لها الانسان غالباً بالمخالطة وهى أربعة : أحدها : الغيبة ، فان عادة الناس التمضمض بالأعراض والتفكه بها ، فان خالطتهم ووافقتهم اثمت وتعرضت لسخط الله تعالى ، وان سكت كنت شريكا ، فان المستمع أحد المغتابين ، وان أنكرت أبغضوك واغتابوك » (٤٨) .

ويعلل الصوفية بأن السماع لا يصفو مع هواجس النفس فوجب حفظها ولا يدوم مع الاصغاء الى حديث النفس فتعين مراقبتها ، وحقيقة المراقبة هى ملاحظة ومراقبة الحق تعالى (الرقيب) وانصراف الهم اليه ، وهى حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة ، وتنتج عن تلك الحالة أعمال فى القلب والجوارح ، وهذا ما يوضحه قول المحاسبى : « الا فراقبوا الله واشكروه على ما أنعم به عليكم من السمع » ، بالاستماع

---

(٤٧) أ ٠ د ٠ أبو الوفا التفتازانى : ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٥٨ ، ص ٢١٤ .

(٤٨) مختصر منهاج القاصدين : ص ١٠٦ .

الى القرآن والذكر والمواعظ الحسنة فان ضيعتم ذلك ، فاستحيوا من الله أن تنصتوا بأسماعكم الى الهوى والأخابيص كفعل من أرى » (٤٩) .

فالمراقبة أصل كل خير ومن راقب الله تعالى فى خواطره عصمه الله تعالى فى جوارحه ، ولا يقع منه الا ما يقربه الى الله تعالى ، والمراقبة دوام العبد وتيقنه بأن الحق تعالى سامع لقوله ومطلع على ظاهره وباطنه ؛ ولهذا يذهب الصوفية أيضا الى أن طول الاستماع الى أهواء النفس وشهواتها من الاستماع الى الباطل والغيبة والنميمة وعدم مراقبة الحق فيما يسمع يطفىء حلاوة الطاعة من القلب ، وحول هذا المعنى يقول عبد الله بن خبيق : « طول الاستماع الى الباطل يطفىء حلاوة الطاعة من القلب ، ومن أراد أن يعيش حياً فى حياته فلينزل الطمع عن قلبه » (٥٠) .

وإذا كان الصوفى يعتمد فى سماعه على الخلوة والتخلى عن السماع السيىء والعزلة عن مجالس الغيبة والنميمة ومجالس اللهو ومراقبة الحق تعالى فيما يسمعه ، والصحبة وملازمة الاخوان فى السماع الصالح فانه سوف يتقوى بالسماع ويجعله زاده فى السفر ويشغله ذلك عن الطعام .

فالجوع والسهر من الرياضات الروحية التى ينصح بها الصوفى مريده فى السماع ، وذلك على حد قول أبى طالب المكى : « كان بعض السامعين يقتات السماع فيجعله قوته ، ويتقوى به على زيادة طيه ، وكان احدهم يطوى اليومين والثلاثة ، فاذا تاقت نفسه الى القوت عدل بها الى السماع ... ، فشغله ذلك عن الطعام ... ، فهذا لا يصلح الا لقلب صاف من الأكدار ... » (٥١) .

وكذلك يرى الصوفية ان رياضة الجوع والصيام لا تعنى صيام البطن عن الطعام والشراب ، ولكن تعنى صيام الجوارح كلها عن المعاصى والذنوب ، وغذاءها بالفضيلة ومكارم الأخلاق ، ومن هذه الجوارح الأذن التى يكون صيامها بعدم الاستماع الى ما حرم الله تعالى على عباده ، وهذا ما يوضحه قول الرسول ﷺ « كم من صائم

---

(٤٩) المحاسبى (الحارث بن اسد) : الوصايا أو النصائح الدينية ، والنفحات القدسية ، تحقيق د. عبد القادر احمد عطا ، مكتبة صبيح ، ١٩٦٦ ، ص ١١٦ ، وانظر قول ابن القيم فى مدارج السالكين : جـ ٢ ، ص ٣٥ ، ٢٠٩ .

(٥٠) الاصفهانى (ابى نعيم) : حلية الأولياء وطبقات الاصفياء ، مكتبة الخانجى والسعادة ، ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٢٨ ، جـ ١٠ ، ص ١٦٩ .

(٥١) قوت القلوب : جـ ٢ ، ص ٨٢٢ ، وانظر عوارف المعارف ، ص ١٥٤ ، وانظر أيضا ما جاء فى شرح احوال سهل بن عبد الله التسترى فى تاريخ التصوف فى الاسلام ، ص ٥٦٢ ، ٥٦٣ .

ليس له من صيامه الا الجوع والعطش » ، بل تمام الصيام بكف الجوارح كلها عما يكره الله تعالى ، بل ينبغى أن تحفظ العين عن النظر الى المكاره واللسان عن النطق بما لا يعنيك والأذن عن الاستماع الى ما حرم الله ، فان المستمع شريك القائل وهو أحد المغتابين » (٥٢) .

ويتضح مما سبق ، أهمية رياضة السماع واعتبارها جزءاً من باقى الرياضات الروحية الأخرى التى لا يكتمل احداها بدون الالتحام بباقى الأجزاء ، كما أن هذه الرياضة لها تأثيرها النفسى فى الفرد والمجتمع من خلال الاستماع الى مجالس العلم والأدب والالتزام بآداب هذه المجالس ، وترك مجالس السوء والفحش والغيبة وكل ما يبعث الى الأفعال السيئة والرذيلة ؛ ولهذا قال الشيخ سعيد بن أبى الخير « كل من يلزم له أن يأتى الى هنا ، يجب عليه أن يأتى يستمع الى نفحة منه ، فالمجالس الأخرى مجالس علم ، أما هذا فهو مجلس الحق ، وهم فى تلك المجالس يبحثون عن السلطة والجاه والعز ، أما هنا فهم يبعدون عن أنفسهم السلطة والعز والجاه » (٥٣) .

رابعا : السماع وتأثيره فى نفس المستمع (الموسيقا – الحركة – الرقص – تقطيع الخرقة) :

لا شك أن شغف الصوفية بالسماع واقبالهم عليه باعتباره وسيلة لترقيق القلب والحث على الطاعة وتقوية العزائم يبدو واضحاً من أن كتبهم جاءت حافلة بالحديث عن السماع وحالة المريد النفسية وقت السماع ودرجات السامعين ، والوجد الذى يحدث للصوفية نتيجة للسماع وما يثمره فى قلوبهم من معرفة ذوقية ، كما أن الصوفية كرهوا اللهو فى السماع وادعاء الوجد واتيان الحركات المصطنعة والعبث اثناء السماع ، ويضعون للسماع الشروط التى تكفل له الجدية والبعد عن اللهو والعبث ، منها حسن النية ، وشرف القصد ، وهذا ما يذهب اليه أبو على الروزبادى (ت ٣٦٧ هـ) : كل مريد ترخص فى سماع الملاهى فهو كاذب » (٥٤) .

ويذهب د. / زكى مبارك الى أن الصوفية قد اقبلوا على الغناء ولم يشترطوا الا حسن النية ، وشرف القصد ، وتفردت الطريقة المولوية باستجازة العزف على الآلات الموسيقية على اختلاف أنواعها اثناء مجالس الذكر ، وكان لهذه الطريقة اشياع فى الأقطار الفارسية والتركية،

---

(٥٢) السهروردى : عوارف المعارف ، ص ٢٤٥ .

(٥٣) سعيد بن أبى الخير : أسرار التوحيد ، ص ٣٣٨ .

(٥٤) السبكى (محمود محمد خطاب) : العهد الوثيق لمن اراد سلوك الطريق .
مطبعة الفتوح الأدبية بمصر ، ١٩٣١ ، ص ١٢ .

وكان لهم فى مصر تكية فى حى السيوفية بالقاهرة ، وكانت لهم حضرة أسبوعية يتشوف اليها المولعون بالموسيقا والغناء وقد أغلقت الحكومة المصرية تلك التكية » (٥٥) .

أما عن طريقة التغنى فى مجالس الصوفية وما يقوم به القوال فى هذه المجالس من الانشــــاد الدينى والتغنى بالأبيات التى تدعو الى الطاعة والتذكر بيوم اللقاء بالحق تعالى وذكر مكارم الأخلاق التى اتصف بهـــا الرسول ﷺ فقــد أوضحهـــا الأستاذ الدكتور التفتازانى فى قولـــه : « ان الصوفية درجوا منذ القدم على أن يبدءوا مجالس الذكر بلا الــــه الا الله وتعرف عندهم بالأرضية ويأخذ (الرسيم) الذى هـــو رئيس المجلس فى التدرج بالذاكرين أثناءها من الراست وهو (الرصد) الى (الدوكة) الى (السكا) الى (الجهركـــاه) أو (الجـــركاة) الى (الحجاز) ... وهنا تبدو مقدرة الرئيس فى نقل الذاكرين من نغمة الى نغمة ... ثم ينفرد الرئيس بعد الوصول الى نغمة الرصد التى ينتهى عندها انشاد القصيدة بالاستغاثة فيقول : (أغثنا أدركنا يا رســـول الله) » (٥٦) .

لقد ذهب معظم الصوفية الى أن استخدام الآلات الموسيقيـــة فى السماع يجب أن تكون بحذر ، فقد نهوا عن استخدام أنواع من الآلات مثل الشبابة « اليراع » (٥٧) ، والصنج (٥٨) ، والطنبور (٥٩) ، وكل ما يحث على مجالس الشرب ويثير الشهوة ، لذلك يرون أن من الأولى تركها ، أما الآلات التى أباحها الصوفية فى السماع الدف (٦٠) والمزمار وهى الآلات التى استخدمت فى الانشاد الدينى فى عهد الرســـول ﷺ والصحابة والتابعين .

---

(٥٥) د. زكى مبارك : التصـــوف الاســـلامى فى الأدب والأخـلاق ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .

(٥٦) أ. د. التفتازانى (أبو الوفا) : مجلة المعرفة ، عدد يونيه ، ١٩٣١ .

(٥٧) الشبابة : آلة موسيقية وهى من جملة المزامير وأشدها طربا وتسمى اليراع ، انظر الزبيدى ، تاج العروس ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .

(٥٨) الصنج : آلة بأوتار يضرب عليها ، والصنج العربى هو الذى يكون فى الدف أما الصنج ذو الأوتار فهو دخيل بالعرب يختص به العجم ، انظر تاج العروس ، ج ٢ ، ص ٦٧ ، وانظر دائرة المعـارف الاسلامية : ج ١٤ ، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨ .

(٥٩) الطنبور : هو اسم جنس لكل آلات الطرب التى تستخدم فيها أوتار السلك وذكر منها ثلاثة أنواع ، انظر دائرة المعـارف الاسلامية : ج ١ ، ص ٢٦٩ ، والطنبور هو آله الحمل لأنه يشبهها فعلى هذا فهو العود الأفرنجى . انظر « ففـروا الى الله » : ص ١٠٧ .

(٦٠) الدف : آلة موسيقية متخذة من الجلد .

وقد استند السهروردى البغدادى فى قوله بحل السماع بالدف بحديث عائشة رضى الله عنها اذ قالت : « كانت عندى جارية تسمعنى فدخل رسول ﷺ وهى على حالها ، ثم دخل عمر ففرت فضحك رسول الله ﷺ فقال عمر ما يضحكك يا رسول الله ؟ فحدثه بحديث الجارية ، فقال : لا أبرح حتى أسمع ما سمع رسول الله فأمر رسول ﷺ ، فأسمعته » (٦١) .

ومن ثم ذهب الصوفية الى أن السماع المحرم هو الاستماع من أرباب الأهوية المحرمة واجتماعهم بالآلات المحرمات ؛ ذلك لأن مثل هذا يحرك دواعيهم الى ارتكاب المحرمات ، ومن ثم فتحريم سماع الآلات انما تحريمه بالحق لا الباطل ؛ ذلك لأن استماع صوت الملاهى كالشبابة والطنبور ونحوه حرام ، لما فى ذلك من صرف الجوارح الى غير ما خلقت لأجله كفر بالنعمة ، وهذا ما يوضحه قول عبد الغنى النابلسى « ولا يرى الذين يسمعون الآلات الا يسمعونها بالحق لا الباطل قال الله تعالى :

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (٦٢)

والمؤمن بهذه الآية وغيرها يرى الكل بالحق لا الباطل ويرى من حرم السماع بالآلات انما حرمه بالحق أيضاً فيمن يسمعه بالباطل ، ولا يجد من يسمعه بالباطل حتى يخصص الحرمة بعينه »(٦٣) .

كما أوضح صوفية الاسلام أنه اذا طرب أهل التصوف لسماع الغناء بالموسيقا المحرمة صفقوا والتصفيق عندهم منكر يخرج صاحبه عند حد الاعتدال ، وهذا ما أوضحه ابن الجوزى بقوله : « والتصفيق منكر يطرب ويخرج عن الاعتدال وتنزه عن مثله العقلاء ، ويتشبه فاعله بالمشركين فيما كانوا يفعلونه عند البيت من التصدية ، وهى التى ذمهم الله عز وجل بها فقال :

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ (٦٤) [(٦٥) .

---

(٦١) السهروردى : عوارف المعارف ، هامش الاحياء ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ ، أخرجه ابن ماجة ، النكاح ، ص ٢١ .

(٦٢) سورة الدخان : آية ٣٨ ، ٣٩ .

(٦٣) النابلسى : ايضاح الدلالات وسماع الآلات ، ص ٢ .

(٦٤) سورة الأنفال : آية (٣٥) . المكاء : التصفير بالفم أو تشبيك الأصابع والنفخ فيها ، التصدية : التصديق .

(٦٥) ابن الجوزى : تلبيس ابليس ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، وانظر ففروا الى الله ص ١٠٧ .

كما يذهب الصوفية الى أن تأثر الصوفى بالسماع أكثر من غيره خاصة أنه يجد الله فى كل ما يسمع حتى وان كان ما يسمعه جملة عادية ، وهذا ما يوضحه قول أبى عثمان المغربى : « من ادعى السماع ولم يسمع صوت الطيور وصرير الباب وتصفيق الرياح ، فهو فقير مدع » (٦٦) ، أى أن درجة الشفافية والصفاء الروحى تجعله يسمع صوت الطيور وصرير الباب وصوت الهواء وصوت كل ما حوله من الكائنات .

ويذهب الصوفية أيضا الى أن سبب استلذاذ الروح للنغمات والموسيقا والأصوات الطيبة ، هو أن العالم الروحانى (عالم المثل) هو مجمع الحسن والجمال ، وأن التناسب والانسجام الموجود بين الموجودات فى الكون تناسب محبوب ومستحسن ، وأن الحق تعالى خلق الألوان والصور والأشكال وجعلها متعة للروح ، ومتى سمعت الروح هذه النغمات اللذيذة تأثرت بها ، لأن الروح تميل بطبيعتها اليها ، وهذا ما يوضحه قول السهروردى : « وجه استلذاذ الروح للنغمات العالم الروحانى مجمع الحسن والجمال ، ووجود التناسب فى الأكوان مستحسن قولا وفعلا ووجود التناسب فى الهياكل والصور ميراث الروحانية فمتى سمع النغمات اللذيذة والألحان المتناسبة تأثر بها لوجود الجنسية » (٦٧) ، فالروح بطبيعتها تعشق الجمال وتتشوق اليه والى النغمات المنسجمة ؛ ولذلك تستلذ وتطرب عند سماعها .

إن كل انفعال يصدر عن الانسان ما هو الا دعوة الى العمل ، سواء كان هذا العمل بالتفكير فى الانفعال نفسه أو الاصغاء اليه ، مثلا الانفعال الذى يصدر عن الصوفى أثناء الوجد ما هو الا دعوة الى الحياة الفاضلة والتحلى بمكارم الأخلاق ، وتذكر النفس بأخطائها ، وكذلك يذهب علماء النفس الى أن الانفعال أمر ضرورى وطبيعى ؛ ذلك لأنه يعبر عن الحالة النفسية التى يكون عليها الانسان من حزن أو فرح أو شوق أو نحو ذلك ، ومن بين هذه الانفعالات ، الانفعال الموسيقى ، فاذا عبرت الموسيقا عن الفرح أو الحزن أو الشفقة ، كنا نحن فى كل لحظة ما هى معبرة عنه ، أى أنه اذا كانت الموسيقا حزينة فانها تصادف ما فى العواطف من الأحزان فتعمل على هياجها ، والعكس اذا كانت الموسيقا فرحة فانها تصادف هوى فى النفس فتعمل على هياجه فى شكل سرور ومرح ، وهذا ما أوضحه هنرى برجسون بقوله : « الانفعال مهما يكن

---

(٦٦) الرسالة القشيرية : ص ٢٦٥ .

(٦٧) عوارف المعارف : الجزء الخامس من الاحياء ، ص ١٦٤ .

هادئاً ، فانه يقتضى العمل ، واقتضاؤه هذا ، وأن اختلف عن الإلزام المعروف فى كونه لا يلقى مقاومة ، ولا يفرض الا ما هو مقبول ، الا أنه يشبهه فى كونه يفرض شيئاً ما ، ونحن نشعر بهذا أتم شعور حين يمسك هذا المطلب عند احداث تأثيره العملى ، فيفسح لنا مجال التفكير فيه ، وتحليل ما نشعر به وهذا ما يتفق لنا فى الانفعال الموسيقى مثلا ، فانه ليخيل الينا ونحن نستمع الى الموسيقا ، أننا لن نستطيع أن نريد غير ما توحى به ، ولولا أننا منصرفون عن العمل بالاصغاء ، لفعلنا ما توحى به ، ولكان فعلنا هذا طبيعيا ضروريا ، فاذا عبرت الموسيقا عن الفرح أو الحزن أو الشفقة أو العطف كنا نحن فى كل برهة ما هى معبرة عنه لا نحن فحسب ، بل آخرون كثيرون ، بل كافة الناس أجمعين .. ، كذلك رسل الأخلاق للحياة فى أسماعهم رنين عاطفى خفى كالرنين الذى يشيعه ايقاع جديد ، فيدخلوننا معهم فى هذه الموسيقا ، فنعبر عنها فى حركة » (٦٨) .

ويذهب بعض الصوفية الى أن سماع الألحان الرقيقة فيه خير الدنيا والآخرة ، ذلك لأنها تحث الانسان على مكارم الأخلاق والبعد عن ارتكاب المعاصى والذنوب ، وترقيق القلب وتذكره الدائم للحق تعالى . واذا كان البعض يعد سماع الموسيقا والألحان نوعا من اللهو واللعب ، فان بعض اللهو مباح من أجل الترفيه والترويح عن النفس ؛ ذلك لأن الحياة الجادة الجافة لا تستمر طويلا بدون القليل من اللهو المباح الذى لا يثير الشهوات وهذا ما يؤكده ابن عبد ربه بقوله : « وقد يتوصل بالألحان الحسان الى خير الدنيا والآخرة ، فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف ، وصلة الأرحام ، والتجاوز عن الذنوب ، وقد يبكى الرجل بها على خطيئة ، ويرقق القلب من قسوته ، ويتذكر نعيم الملكوت ويتمثله فى ضميره » (٦٩) .

ويعلل الصوفية أن ادعاء سماع الآلة المطربة وعدم استلذاذها يرجع الى غفلة القلب وعدم يقظته لما يلقى عليه من أنواع السماع ، وكذلك الى كذب الشخص السامع بأن السماع الالهى لا يؤثر عليه ، فسماع الموسيقى والألحان الجميلة بالصوت الحسن يهتز لها الانسان ، وكذلك الحيوان ، وهذا ما يوضحه قول أفضل الدين : « من ادعى أن سماع الآلة المطربة لا تؤثر فيه فأغضبوه مرارا فان غضب فهو مفتر كذاب ؛ لأن من لم يقدر أن يرد نفسه عن الغضب لا يقدر أن يرد عنها

---

(٦٨) هنرى برجسون : منبعا الأخلاق والدين ، ص ٤٧ .

(٦٩) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٦١ هـ ، ١٩٤٢ ، جـ ٢ ، ص ٥ .

الغفلة عن الله تبارك وتعالى بالطرب اذا سمع المطربات» (٧٠)، فالسماع — أذن — له تأثير عظيم فى نفس المستمع ، فاذا كان قلبه يقظا ومنتبها لما يلقى عليه استلذت روحه بما يسمع ، أما اذا كان قلبه فى غفلة حدث ما هو غير ذلك .

وإذا كان الصوفية قد ذهبوا الى أن سماع الموسيقا والنغمات والألحان وغير ذلك من أنواع السماع تؤثر فى نفس المستمع وتجعله يستلذ لما يسمع ، فان هذا يتفق مع ما ذهب اليه الكندى من تأثير السماع على نفس السالك ، وهذا ما يوضحه الأستاذ الدكتور / محمد عاطف العراقى بقوله : « فهو حين يبحث (الكندى) فى الموسيقا مثلا ، يتكلم عن النغم والأبعاد والانفعالات وغير ذلك من الجوانب ، ويبين لنا تأثير الأنغام الصادرة عن الآلات الموسيقية فى الحيوان وفى الانسان ، فالتمساح مثلا اذا سمع المزمار وصوت البوق فانه يطرب ويخرج من البحر ويطفو الى المراكب ، والراعى يمكنه أن يجمع الغنم بالصفير » (٧١) .

وكذلك فان سماع الألحان له تأثير فى نفس الانسان أيضا من حيث أنها تدعو الى اللذة الروحية ، والجرأة والاقدام على المعارك والبكاء والحزن على ارتكاب الذنوب وغير ذلك ، وكذلك فان السماع لا يوصف بالحسن ولا بالسوء وانما يحكم عليه بنتائجه ، وأن سماع الموسيقا والمداعبة والرقص المباح غير المرتبط بالشهوة المادية فى بعض الأوقات أمر ضرورى من أجل استجمام النفس والمواصلة على دوام العبادة والذكر للحق تعالى وخلوص الروح من خلال الحركات والرقص الذى يقوم به السالك ، واعتبار أن الرقص فى حال الغشية الناتجة عن السماع يفتت الشهوة ويميتها ، وهذا الرقص لا يشبه الرقص العادى ، وهذا ما ذهب اليه نيكلسون بقوله : « أن السماع لا يوصف بالحسن وانما يحكم عليه بنتائجه ، فاذا ذهب راهب الى حانة ، صارت له صومعة ، واذا ذهب سكير الى صومعة صارت له حانة ، فمن

---

(٧٠) ابن عطاء الله السكندرى : لطائف المنن والأخلاق ، ج ٢ ، ص ١٨ ، وانظر قول سعد الدين الحموى فى تاريخ التصوف الاسلامى ، ج ٢ ، ص ٥٧٣ .

(٧١) أ. د. محمد عاطف العراقى : الفلسفة الاسلامية ، دار المعارف ، ١٩٧٨ ص ٢٧ ، يقول اخوان الصفا أيضا : (ان صناعة الموسيقا يستعملها كل احد من الأمم ويستلذها جميع الحيوانات التى لها حاسة السمع وأن للنغمات تأثيرات فى النفوس روحانية ، كما أن لسائر الصنائع تأثيرات فى الهيولات الجسمانية ، انظر رسائل اخوان الصفا ، ج ١ ، ص ١١٧ .

تشرب قلبه التفكير فى ربه ، فلا يفسده سماع آلات الموسيقا ، وكذلك الحال فى الرقص .. ، ويذهب المعتاد من الشكل فليس ذلك رقصا ولا هو تطلعا جسديا ، ولكنه خلوص الروح » (٧٢) .

إذن فالسماع فيه صفاء وخلوص الروح من أدناس النفس وشهواتها المادية من خلال سماع النغمات والألحان الحسنة وتلذذ الروح بهذه الألحان ، وكذلك الرقص الصوفى والتمايل بالحركات يميت الشهوات والملذات الخبيثة ، فهذا الرقص الصوفى لا يشبه الرقص فى مجالس الشرب والفساد .

ويذهب ابراهيم الخواص الى أن سماع الآلات الموسيقية لا تليق للسالكين ؛ ذلك لأنهم قدوة للعوام ، وذلك خوفاً عليهم من التعود عليها فيؤدى سماعها الى التصفيق والتهليل والتعطل عن القيام بمصالحهم فى الدنيا ، وكذلك القيام بتعاليم الشرع الخاصة بالآخرة ، كما أن التعود على هذا النوع من السماع فيه اضاعة للوقت ، الا إذا كان هذا السماع فترة من أجل الاستجمام من تعب الوقت ، وهذا ما يؤكده بقوله : « سماع الآلات لا تليق بأكابر العلماء أهل الطريق لكونهم قدوة للناس فربما تبعهم العوام على ذلك مع عدم ذوق مشهدهم فى ذلك فيهللون ويتعطلون عن مصالح الدارين كما هو مشاهد فما رأينا أحداً حق له قدم الولاية والخوف من الله تعالى يسمع عوداً أبداً بل يشتغلون بالاستعداد للموت ولأهوال القيامة » (٧٣) .

ويتفق ابن تيمية مع الصوفية فى عدم اباحة سماع آلات اللهو والطرب واعتبارها من البدع المذمومة المبعدة عن طريق الحق تعالى ، وهذا ما يسميه بالسماع المحدث ، سماع الكف والدف والقضيب ، فلم تكن الصحابة والتابعون لهم باحسان وسائر الأكابر من أئمة الدين يجعلون هذا طريقاً الى الله تبارك وتعالى ، ولا يعدونه من القرب والطاعات ، بل يعدونه من البدع المذمومة ، حتى قال الشافعى : خلفت

---

(٧٢) نيكلسون (رنيلد) : الصوفية فى الاسلام ، ترجمة نور الدين حسين شريبه ، ١٣٧١ هـ ــ ١٩٥١ م ، ص ٦٨ .

(٧٣) الشعرانى (عبد الوهاب) : بهجة النفوس والأخلاق فيما تميز به القوم من الادباء والاخلاق ، مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٣٩٠ تصوف ، ميكروفيلم ١٠٤٠٦ ، عدد ورقة ٣٢٠ ، بدون ترقيم صفحات ، وانظر أيضا لاشعرانى .

ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه (التغبير) يصدون به الناس عن القرآن » (٧٤) .

ويذهب هارتمان الى ما ذهب اليه الصوفية من أن سماع الموسيقا له أهمية كبيرة وكذلك سماع الآيات الكريمة ، اذا كان هذا السماع من أجل التفكير والتدبر فى معانى الكون ، وهذا ما يوضحه بقوله : « فاما سماع الموسيقا فهى قد تمثل لنا أهمية كبيرة ، وكذلك الآيات القليلة التى يرتلها القوال كأنها غناء للتفكير أو التدبر » (٧٥) .

مما سبق يتضح لنا أن سماع الصوفية لم يكن سماعا يؤدى الى الخروج عن الشرع ، وكذلك لا يكون نوعاً مرضياً ، وانما هو سماع روحى من أجل التطهر والصفاء ، أى خلوص الروح ورقة القلب وصفائه والبعد عن خبائث النفس ووساوسها : وعلى هذا لا يمكن انكار السماع الصوفى ؛ لأن كل منكر لهذا السماع فهو بطال للطرق الصوفية التى هى مدارس تربوية وأخلاقية ، وهذا ما يوضحه قول سعيد بن أبى الخير : « كل قراء ينكر سماع الدراويش فهو بطال الطريقة » (٧٦) .

فالصوفى له احساس مرهف لا يحسه غيره من الناس العادين ، فهو مثل الفنان والموسيقى والكاتب من حيث أن لكل منهما مشاعر ولا يمكن أن نحكم بأنه نوع من الأمراض النفسية ، فانه قد حكمنا كذلك على الفنان والموسيقى والرسام بأنهم مرضى ، ومن ثم فقد حكمنا على أغلب أفراد المجتمع بالجنون والمرض النفسى ، وهذا غير صحيح ولا يقبل من ناحية العقل ، ولا الشرع ، فهؤلاء يعانون مشاعر وأحاسيس نبيلة تغذى الروح مثل أهمية الطعام للبدن وهذا ما يؤكده الأستاذ الدكتور التفتازانى بقوله : « والصوفى فى كل حالاته لا يفقد استبصاره لذاته مطلقا ، ولو جعلنا منه شخصا مريضا لجعلنا كذلك من الشاعر والكاتب والفنان والموسيقى جميعا مرضى لا لشىء الا أنهم يعانون مشاعر خاصة لا يعانيها غيرهم من أفراد الناس العادين » (٧٧) .

ولقد سبق الفيثاغوريون وأفلاطون الصوفية فى القول بأن التأثر بالسماع موجود فى الانسان بالفطرة ، وأن الأصوات الموزونة والنغمات

---

(٧٤) ابن تيمية : الصوفية والفقراء ، مراجعة أسامة محمد عبد العظيم حمزة ، ص ١٣٤ .

(٧٥) انظر Al-R-Hartman : Kucharity des sufituns 1914, p. 134-148.

(٧٦) أسرار التوحيد : ص ٣٣٨ .

(٧٧) مدخل الى التصوف الاسلامى ، ص ١١ .

لها تأثيرها فى النفس ؛ لأن ذلك يذكر النفس بحياتها السابقة فى عـــالم الذرقبل أن تتصل بالبدن بقولهم : « أن تأثير الموسيقا والنغمات الموزونة لحركات السموات فى عالم الذر عالم ما قبل الولادة كنا قد اعتدنا عليه ومعنى ذلك أن أرواحنا كانت قبل أن تنفصل عن الله تستمع الى الألحان السماوية وكنا مؤتنسين وكانت الموسيقا تثير فينا وجد الكون وتثير تلك الذكريات فى خواطرنا » (٧٧) ٠

إذا طرب المريد فى السماع صدرت عنه حركات واهتزازات ورقصات اختلف جمهور الصوفية حولها ، فقد ذهبت طائفة أخرى الى أن مثل هذه الحركة نوع من النقص ، فالحركات والرقص اذا كانت نتيجة لوارد قوى كان هذا الرقـــص مباحـــاً لهم ، أما اذا كان هـــذا الرقـــص تصنعـــاً ومحاولة تقليد الصوفية فى ذلك ، فهذا ادعاء ونقص لا يجوزه معظـــم الصوفية ، وهذا ما يوضحه الهروى بقوله : « وأما الرقـــص مع أنه نوع من النقص فذهبت طائفة الى التفرقة بين أرباب الأحوال فيجوز لهم ويكره لغيرهم وهذا القول هـــو المـــرضى عند جمهـــورهم وعليه أكثر الصوفية » (٧٨) ٠

وكبار الصوفية يعتبرون أن شدة الانفعـــالات وكثرة الحركـــات أثناء السماع لضعف الحال ، أما أصحاب الهمم القوية والوارد القوى ، والارادة الراسخة لا يضطربون فى سماعهم ، ولكنهم يسيطرون عـــلى مشاعرهم ، والنفس الشهوانية هى التى تســـعى دائما الى اشبـــاع رغباتها الحسية على حساب الحياة الروحيـــة التى هى غايـــة التصوف الاسلامى وهدفه الأساسى ، وهذا ما يوضحه ابن عربى بقوله : « ان مثل هذه الاضطرابات العضوية مردها الى اغراء الشيطان ووساوسه ، لا الى الهام ملائكى أو الهى ؛ ولهذا من لا يحل من تكرار وجوب منع هذا السماع عن المريدين بل وعن السالكين الذين لم يبلغوا مرتبة الكمال ، وطالما ظلت النفس الحساسة مستعصية على الروح يبقى ثم دائما خطر الشهوات التى تسعى جائعة الى الاشباع فى العبـــادة الحســـية على حبيب الشوق الروحى لله وحده ، الذى هو غاية الحياة الصوفية »(٧٩) ٠

ويذهب العز بن عبد السلام الى أن الرقص بدعة ونقص فى العقل ، ولا يخطر الا لمن فى قلبه هوى خبيث فيحرك ما فى قلبـــه من الأمـــور

---

(٧٧) تاريخ التصوف الاسلامى : ص ٥٦٠ ٠

(٧٨) فتح الأسماع فى شرح السماع : ص ٧٥ ٠

(٧٩) آسين بلاثيوس : ابن عربى ومذهبه ، ص ١٧٩ ٠

الشهوانية ، أما اذا كان هذا الرقص او التمايل نتيجة لاستلذاذ انشاد دينى يحث على الطاعة والتذكر بيوم القيامة فلا بأس به، وهذا ما يوضحه بقوله : « الرقص بدعة لا يتعاطاه الا ناقص العقل ، ولا يصلح الا للنساء ، وأما سماع الانشاد للأحوال السنية المذكرة لأمور الآخرة فلا بأس به بل يندب عند الفتور وسآمة القلب ، ولا يخطر الا لمن فى قلبه هوى خبيث فانه يحرك ما فى القلب » (٨٠) .

فالانسان العاقل هو الانسان الذى يرى أن الرقص البارح بالحركات الموزونة عن طريق الألحان بالمزامير والطبول والطارات هى من فعل المجانين ، وأن ذلك لا يليق بالانسان العاقل ؛ لأن هذا الرقص يذهب وقاره وهيبته ويعتبر من أنواع اللهو منبت للشهوة ، وهذا ما ذهب اليه معظم الصوفية .

يعتبر سعيد بن أبى الخير (٨١) من أشهر المولعين بالرقص فى مجالس السماع ، فلقد عاش معظم حياته فى الرقص الصوفى ، ويذهب الى أن هذا الرقص بالنسبة للشباب يساعدهم على تبديد شهوة النفس وما يغلب عليها من هوى وخبائث ، تلك الشهوة التى تمتلك جميع الأطراف ، فمن خلال التصفيق والتمايل تتبدد الشهوة وتخرج من ارجلهم ، ومن ثم يستطيعون صون أنفسهم من ارتكاب الكبائر الأخرى ؛ أى أن سعيد بن أبى الخير جعل من السماع والرقص الصوفى وسيلة وأداة لصون النفس من المعاصى وارتكاب الكبائر ، وهذا ما يوضحه بقوله :

وأما عن رقص الشبان فى السماع ، فان الشبان لا تخلو أنفسهم من الشهوة ويغلب عليهم هوى النفس ، ومن المؤكد ان الشهوة تمتلك جميع الأطراف ، فاذا ما صفقوا تبددت الشهوة من أيديهم ، واذا ما رقصوا قلت الشهوة من أرجلهم ، وعندما تنقص الشهوة من أطرافهم على هذا

---

(٨٠) كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع ، حكم السماع فى الغناء والموسيقا والشطرنج ، ص ٢٧ ، وانظر قول الجنيد ، ص ٨٢ .

(٨١) محمد بن المنور بن أبى سعيد بن طاهر بن أبى سعيد بن أبى الخير هو أبو سعيد فضل الله بن أبى الخير محمد بن أحمد الميهنى ، شاعر فارسى وشيخ من شيوخ الصوفية ، عاش فى ايران فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، والنصف الأول من القرن الخامس ، فقد كان مولده فى مدينة مهيمنة من أعمال خلوران باقليم خراسان فى أول محرم لعام سبع وخمسين وثلاثمائة بعد الهجرة ٠٠ ، توفى فى الرابع من شعبان لعام أربعين وأربعمائة بعد الهجرة بالغا من العمر ثلاثين وثمانين عاما ، انظر أسرار التوحيد : ص ١٣ : ١٥ .

النحو ، فانهم يستطيعون أن يصونوا أنفسهم من الكبائر الأخرى ، ولكن عندما تتجمع الشهوات والعياذ بالله فانهم يعجزون عن صيانة أنفسهم من الوقوع فى الكبائر فالأولى أن يبددوا نيران تلك الشهوة فى السماع أكثر منه فى أى شىء آخر » (٨٢) .

ولقد حفل كتاب أسرار التوحيد بالعديد من القصص والحكايات التى توضح لنا مدى ولع الشيخ سعيد بالرقص الصوفى من بينها أنه « دعى الشيخ الى وليمة ، فذهب فى رفقته الامام محمد القايني ، وظلوا يقيمون السماع والرقص حتى أذن المؤذن للصلاة ، فقال الامام محمد : الصلاة ، الصلاة . فقال الشيخ : اننا فى صلاة ، وظل يرقص ، فخرج الامام محمد من بين الجميع ، وادى الصلاة ثم عاد اليهم ، ولما فرغوا من السماع ، التفت الشيخ الى جماعة الصوفية وقال : لا يوجد فى الدنيا من مشرقها الى مغربها رجل أعظم وافضل من هذا الرجل » (٨٣) .

من هذه الحكاية يتضح للشخص العادى الذى لم يكن على علم ودراية بعلم التصوف ، أن هذا الرجل كافر ، كيف يفضل الرقص على الصلاة وقد سمع الآذان ، لكن فى الحقيقة أن ما هو عليه الشيخ (سعيد ابن أبى الخير) فى لحظة الرقص أقوى من القيام بالصلاة فى هذا الوقت الا وهو قوة الوارد الالهى من قبل الحق تعالى ، فاذا غلب عليه الوجد لا يستطيع القيام بأى عمل ، ولكنه يمكن القيام بالصلاة بعد الانتهاء من هذا الوجد إذ أنه لا يستمر طويلا ، ولا يأتى الا لصاحب القلب الطاهر الصافى ، ولقد روى أيضا « أن الشيخ ... لما وصل الى قرية (ريكا) وهى قرية على بعد فرسخين من المدينة ، كان بها رجل يدعى الشيخ أبا العباس الزيكانى .. قال الشيخ : أنشدوا شعراً ، فقال الشيخ أبو العباس اننا لم نعتد ذلك ، فقال الشيخ للقوال : تعال وانشدنا شيئاً ، فأنشد القوال بعض الشعر ، فتملكت الشيخ حالة ، ونهض ، وأخذ يرقص ، والجميع يشاركونه ، وأظهر الشيخ أبو العباس استنكاره لذلك ، فأمسك الشيخ بيده ، وجذبه اليه ليرقص معه ، وأخذ يجذب نفسه منه ، فقال له الشيخ : انظر ، فنظر الى الصحراء فى الخارج ، فرأى جميع الجبال والأشجار والمبانى ترقص مع الشيخ ، فاندمج أبو العباس مع الشيخ فى الرقص دون وعى ، وأمسك بيد أخيه قائلاً له : تعال ، فلا طاقة لنا على مقاومة هذا الرجل ، ورقص الاخوان كلاهما، وتخليا عن انكارهما ، وأظهر الرغبة فى السماع بعد ذلك»(٨٤) .

---

(٨٢) سعيد بن أبى الخير : أسرار التوحيد ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .
(٨٣) المصدر السابق ، ص ٢٥٧ .
(٨٤) أسرار التوحيد : ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

ومن الأحاديث النبوية التى استدل عليها الصوفية على اباحة السماع « ما روته السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى الصحيح من رقص الحبشة فى المسجد يوم عيد وأن رسول الله ﷺ دعاها فوضعت رأسها على منكبه قالت فجعلت أنظر اليهم حتى كنت أنصرف عن النظر اليهم » (٨٥).

لقد عارض القشيرى الصوفية فى قولهم بالرقص فى السماع وما يقوم به المريد من حركات واهتزازات ، مثله فى ذلك مثل الهجويرى والسراج ، الا أنه حاول أن يلتمس للقوم من الصوفية وسيلة النجاة مما شاب أحوالهم فى السماع ، ولقد لجأ فى ذلك الى التحليل النفسى ، فاعتبر أن ما يظهر على الصوفى من حركات لا يكون رقصاً حقيقياً ولا دبيبا بالقدم بل هى حال وارد من الله يطهر الروح ويملك البدن فيضطرب أو ينتفض أو يرتعد ، وقد تبدو هذه الحركات على أنها رقص وهى ليست كذلك وهذا ما يوضحه قول القشيرى : « المريد لا تسلم له الحركة فى السماع بالاختيار ألبتة ، فان ورد عليه وارد حركه ولم يكن فيه فضل قوة ، فبقدر الغلبة يعذر ، فاذا زالت الغلبة وجب عليه القعود والسكون ، فان استدام الحركة مستحلياً للوجد من غير غلبة وضرورة ، لم يصح فان تعود ذلك يبقى متخلفاً لا يكاشف بشىء من الحقائق ، فغاية أحواله حينئذ أن يطيب قلبه ، وفى الجملة : أن الحركة تأخذ من كل متحرك وتنقص من حاله مريداً كان أو شيخاً » (٨٦) .

ويذهب الصوفية الى أن الرقص عند العامة قبيح خارج عند حدود الشرع ، ولكن رقص الصوفية وما يثمره فى القلب من صفاء ونقاء وامانة للشهوات ، فيه طهر للروح ، والعلو بها الى حياة الكمال التى لا يصل اليها الا عارف مكين ، وهذا الرقص لا يشبه الرقص العادى المثير للشهوة والأهواء النفسية ، وهذا ما يؤكده قول الهجويرى : « أن الرقص قبيح شرعاً وعقلا من أجهل الناس ومحال أن يفعله أفضل الناس ، ولكن حين تظهر فى القلب خفة وتسلط الخفقان على الرأس يقوى الوقت فيضطرب الحال ويرتفع الترتيب والرسوم وذلك الاضطراب الذى يظهر لا يكون رقصا ولا دبيبا ولا تربية للطبع بل هو طهر للروح ، والذى

---

(٨٥) فتح الأسماع فى شرح السماع : ص ٧٥ ، وانظر قصة السامرى فى قطع النزاع وكشف القناع عن دليل جواز السماع : ص ١٣ ، ١٦ ، ١٧ ، وانظر التصوف حياة وسلوك ، ص ٣٤١ .

(٨٦) الامام القشيرى : حياته ، آثاره ، مذهبه فى التصوف ، ص ٢٢٩ ، وانظر الرسالة القشيرية ٢ ص ٢٠٢ .

يسمى هذا رقصا يكون بعيدا عن الصواب ، فتلك الحال التى ترد من الحق شىء لا يمكن بيانه بالنطق ومن لم يذق لا يدرى) (٨٧) .

وإذا كان رقص الصوفية غير مباح شرعاً ، لما أقام ابن الفارض فى بيته حلقة للذكر والسماع وما ينتج عنه من حركة واضطرب ناجـم عن الوجد الذى يعتبره الصوفية صفاء للنفس واماتة لشهواتها بشهود نور الحق تعالى ، ويذكر ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ) « من أنه كان لابن الفارض بمدينة البهنسا بصعيد مصر ، بيت يقيم فيه طائفة من الجوارى المغنيات الضاربات على الدفوف والشبابات ، وأن الشاعر كان يقصد الى هذا البيت حيث يلقى نفسه فى غمرة من غمرات السماع الذى ينشأ عنه الرقص بما لا يلازمه من حركة واضطراب ويتولد منه الوجد بما يستتبعه من دهش وغيبة » (٨٨) .

الكثيرون اذا سمعوا العظة أو الصوت الجميل تعالت منهم صيحات الاستحسان واضطربت منهم الأطراف ، ويرون هذا من علامات الخير ، أو سمة من سمات التأثير والانجذاب ، وأن هذا الرقص رقص يشهـد فيه الواجد الموجود (الحق) ويغيب به عن وجده حتى يصبح وجـده وجوداً ، وهذا ما يدافع به الدكتور / محمد مصطفى حلمى عن رقص ابن الفارض بقوله : « أن رقصه ليس من هذا النوع الذى قيل فيـه الرقص نقص ، اذ لو كان كذلك لا ينبغى عليه أن يكون شاعرنا من هؤلاء الذين يطربهم الوجد بعد الفقد ، ويستريحون بالوجد لا بالموجـود فى الوجد ... ، فانه كما يقول (القاشانى) رقص يشهد الواجـد فيه الموجود ويغيب به عن وجده بحيث يصبح وجده وجودا » (٨٩) .

وإذا كان ابن الفارض قد اعتبر الرقص فى السماع ليس بدعة أو نقصاً وانما هو تطهير للروح من شهوات النفس فقد وجه ابن الجوزى نقداً لبعض الصوفية المتأخرين الذين مالوا الى السماع والرقص وعدم العمل والخروج عن حدود الشريعة وعما كان عليه الصوفية الأوائـل من الالتزام بالطريق المستقيم ، يقول ابن الجوزى : « والتصوف طريقة كان ابتداؤها الزهد الكافى ، ثم ترخص المنتسبون اليهـا بالسماع

---

(٨٧) كشف المحجوب : ج ٢ ، ص ٦٦٥ ، وانظر أسرار التوحيد ، ص ٢٣٧ .

(٨٨) د. محمد مصطفى حلمى : ابن الفارض والحب الالهى ، دار المعـارف ١٩٧١ ، ص ٦٧ .

(٨٩) ابن الفارض والحب الالهى : ص ٦٩ ، وانظر كشف الوجوه الغر ، هامش على شرح ديوان ابن الفـارض ، ج ١ ، ص ٣٩ ـ ٤٠ .

والرقص ، فحال اليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من الزهد ، ومال اليهم طلاب الدنيا لما يرونه عندهم من الراحة واللعب » (٩٠) .

كما يذهب بعض الصوفية الى أن للرقص والحركة فى السماع أهمية عظيمة من حيث أن روح السامع وقت السماع تفارق صفات البدن وتتذكر عالمها المثالى قبل أن تتصل وتهبط بالبدن ، ويسمى بعض الفلاسفة هذا العالم ما قبل الولادة ، فيحرك فيها الصفات والأخلاق الحميدة التى توصلها الى مرحلة الكمال التى تفقده فى العالم المادى ، وذلك بسبب حلولها بالبدن وما يتطلبه من اشباع للرغبات والأهواء الشهوانية وهذا ما يوضحه قول عبد الغنى النابلسى : « فائدة الرقص والحركة فى السماع وذلك أن روح السامع تهيم عند السماع بأن يرجع الى وطنه المألوف ويفارق النفس والقالب فيحركه يد الحال ويسكنه عما هم به بسبب التحريك الى طول الأصل المعلوم » (٩١) .

وإذا كان بعض الصوفية ذهب الى أن الرقص فى السماع لا يخالف الشرع ، وذلك على اعتبار أن هذا الرقص لا يشابه الرقص العادى المقترن باللهو والشهوة ، وأن هذا الرقص الأول نتيجة لقوة الوارد الالهى ، فان البعض الآخر ذهب الى أن حال الثبات والتمكين افضل وأكمل للمريد القوى الارادة ، أما الرقص نتيجة لضعف الحال ، فقد يسمع الانسان ما يزلزله وما يتأثر به فؤاده وتقشعر منه مشاعره ، ومع ذلك يظل ثابت الحال معقود اللسان ، تسبح روحه فى عوالم المعرفة يظل ساكنا سكون الجبل مع أنها تتحرك مثل السحاب ولكن لا ترى تحركها ؛ « ولهذا قيل للجنيد : مالك كنت تتحرك عند السماع وتتواجد ، واليوم لا نراك تتحرك بشىء ؟ فقال قال الله تعالى :

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٩٢) (٩٣)

---

(٩٠) د. محمد مصطفى حلمى ، محمد فوقى حجاج : فى التصوف الاسلامى ، دار الكتب المصرية ، ١٩٧٨ ، ص ١٣٩ ، ١٤٠ ، وانظر تلبيس ابليس : ص ١٧١ .

(٩١) كشف الوجوه الغر لمعانى نظم الدر ، ج ٢ ، ص ٧٢ .

(٩٢) سورة النمل : آية (٨٨) .

(٩٣) احمد الشرباصى : فى رحاب الصوفية ، دار التأليف عام ١٩٥٠ ، ص ٦٠ ، وانظر اللمع ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ . وانظر عوارف المعارف ، ص ١٩٩ ، وانظر احمد زروق : قواعد التصوف ، صححه محمد زهرى مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٦٨ ، ص ٨٨ ، وانظر عبد المجيد الشرنوبى ، شرح تائية السلوك الى ملك الملوك وبهامشه شرح حكم بن عطاء الله السكندرى ، القاهرة ، ١٨٨٧ ، ص ٩٣ .

ولم يفت الغزالي في معرض كلامه عن السماع من اعتبار الرقص ما هو الا حماقة وجهل لا يزول الا بالتعب ، فلقد نبذ الرقص باعتباره من أقوى أسباب السكر والطرب ، فيقاس عند ابن الجوزي بالنبيذ من حيث أنه مباح لكن كراهته أشد ، لما فيه من ضرر كثير مما هو نافع ، ولذلك قال الغزالي : « الرقص حماقة بين الكتفين لا تزول الا بالتعب » (٩٤) ، كما ذم القرآن الكريم الرقص والمشي مرحا بقول الحق تعالى :

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (٩٥)

ويلخص ذلك كله ابن الجوزي في قوله : « الرقص أشد المرح والبطر أو لسنا الذين قسنا النبيذ على الخمر لاتفاقهما في الاطراب والسكر ، فما بالنا لا نقيس القضيب وتلحين الشعر معه على الطنبور والمزمار والطبل لاجتماعهما في الأطراب، وهل شيء يزري بالعقل والوقار ويخرج عن سمة الحلم والأدب اقبح من ذي لحية يرقص فكيف اذا كانت شيبة ترقص وتصفق على وقاع الألحان والقضبان » (٩٦) .

فكراهة الرقص الصوفي أصبح أمراً ضرورياً لما ينطوي عليه هذا الرقص من البدع والفساد ، حيث التصق بالرقص الصوفي العديد من البدع التي لم تكن موجودة عند الصوفية الأوائل ، وانما هي أمور استحدثها مدعو التصوف ، ولذلك شن ابن باديس (ت ١٩٤٠) حملة عنيفة على الرقص واعتبره من مصادر الفساد والمعاصي والخروج عن حدود الشرع ، وهذا ما يوضحه بقوله : « وازداد الأمر بلاء لما اقترن الذكر عند بعضهم بالرقص والزمر وكلهما ــ كما يقول ــ اختراعات فاسدة في نفسها ، لأنها ليست من سعي الآخرة الذي كان يسعاه محمد ﷺ ، والسبب في هذا كله ، أن أحزابهم وأورادهم وربما اقترن بها من هذه الأمور البدعية كالرقص والزمر والصياح

---

(٩٤) ابن الجوزي : تلبيس ابليس ، ص ٢٥٩ .
(٩٥) سورة لقمان : آية (١٨) ، (١٩) .
(٩٦) ابن الجوزي : تلبيس ابليس ، ص ٢٥٩ .

والعويل ، انما هي من صنعهم وصنع شيوخهم المتأخرين وليست مما ثبت عن النبي ﷺ » (٩٧) .

ومن المجددين الذين نقدوا الطرق الصوفية أيضا في الرقص ما يقومون به من الطبل والزمر في مجالس الذكر هو الامام محمد عبده ، وهذا ما يحكيه عنه تلميذه محمد رشيد رضا : « كانوا يجتمعون للذكر ، ويتخذون الطبول آلة لهم وبعضهم كان شكله مستطيلا والبعض الآخر كان شكله دائريا وكلها كانت تصدر أصواتا عالية ، أشبه بصوت المدفع بشكل يصم الآذان ، فاذا ما قاموا للذكر ارتفعت أصواتهم مع أصوات الطبول وأتوا بألفاظ لا مدلول لها ، وكان من عادتهم — كما يقول الامام محمد عبده — الاتيان بمثل هذه العادة في مسجد الامام الحسين وفي مولده » (٩٨) .

فالتعود على هذه الأمور في مجالس الذكر يذهب المروءة ويخرج صاحبه عن حدود الشرع ، فهذه الأمور الدخيلة على التصوف من الرقص والزمر أفسدت جوهره الأصيل وهو الذكر والتبتل للحق تعالى ، ولهذا قال ابن قدامة الفقيه الحنبلي (ت ٦٢٠ هـ) : « أن فاعل هذا مخطىء ، ساقط المروءة والمداوم على هذا الفعل مردود الشهادة في الشرع غير مقبول القول ، وأما ما يدعيه بأن ذلك يغفل محبته لله تعالى فيمكن أن يكون محباً لله مطيعا له في غير هذا » (٩٩) .

ويفسر لنا الدكتور / أحمد الجزار لماذا رفض كل هؤلاء الرقص في السماع ؟

ذلك على اعتبار انها أمور بدعية في مجالس أذكارهم ، وخوفا من أن تصبح عادة تلتصق بالأمور والعبادات الشرعية وذلك من خلال عرض موقف ابن باديس ، اذ يقول : « وعلى أية حال ، فقد بات واضحا أن ما وقع فيه بعض أدعياء التصوف ، وأتباع بعض الطرق الصوفية من أمور بدعية في مجالس أذكارهم ، كالرقص والزمر

---

(٩٧) الجزار (أ٠ د / أحمد محمود) : الامام المجدد بن باديس والتصوف ، دار الوزان ، ١٩٨٨ ، ص ٩٥ .

(ولد عبد الحميد بن باديس بن محمد المصطفى بن مكى بن باديس في ديسمبر ١٨٨٩ ، بمدينة قسطنطينة بالجزائر ٠٠٠ ، وقد قدر لابن باديس أن يولد لأسرة مشهورة بالعلم والثراء والجاه وكان والد عبد الحميد بن باديس عضوا بارزا في المجلس الجزائرى ٠٠ ، فأتم حفظ القرآن في مدرسة قرانية على يد الشيخ محمد بن المداس ، ولم يكن عمره حينئذ قد تجاوز الثالثة عشرة عاما ، وانظر الامام المجدد ابن باديس والتصوف : صص ١٥ : ١٩ .

(٩٨) أ٠د الجزار : الامام المجدد ابن باديس والتصوف ، ص ٩٦ .

(٩٩) المصدر السابق ، ص ٩٧ .

وما أشبه ذلك ، لم يكن له سنده فى أصول الطرق الصوفية لدى مؤسسيها من الصوفية كالجيلانى والشاذلى ، ولكن هذا لم يمنع ابن باديس من أن يتصدى لكل هذه الأمور البدعية فقد خشى أن تلتصق بالعبادات الشرعية بوصفها (هذه الأمور) من البدع العملية عنده » (١٠٠) .

فالصوفى فى حال الرقص وغلبة الهياج والوجد والاضطراب الناتج عن السماع ورمى الدنيا وكل ما عليها لا يأبه بوجود الكائنات فيقوم بتمزيق الملابس أو الخرقة (١٠١) ، ويرمى بها فى وجه الحاضرين فكانت تقسم فيما بينهم طبق آداب خاصة ، فاذا ما حدث ذلك نتيجة لقوة الوجد ودون ارادة ولا اختيار له فيه فلا بأس به فخروج السامع من وعيه أمر غير مستبعد ، وهذا ما يوضحه الغزالى بقوله : « أما تمزيق الثياب فلا رخصة فيه الا عن خروج الأمر عن الاختيار » (١٠٢) .

---

(١٠٠) الامام المجدد ابن باديس والتصوف : ص ٩٩ .

(١٠١) الخرقة هى ما يلبسه المريد من يد شيخه الذى يدخل فى ارادته ويتوب على يده لأمور ، منها : التزيى بزى المراد ليتلبس باطنه بصفاته كما تلبس ظاهره بلباسه ، وهو لباس التقوى ظاهرا وباطنا . قال تعالى :

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ سورة الأعراف : آية (٢٦) .

ومنها وصول بركة الشيخ الذى يليه من يده المباركة اليه ، ومنها نيل ما يغلب على الشيخ وقت الالباس من الحال الذى يرى الشيخ ببصيرته النافذة المنورة بنور القدس أنه يحتاج اليه لرفع حجبه العائقة وتصفية استعداده ، فانه اذا وقف على حال من يتوب على يده ، علم بنور الحق ما يحتاج اليه فيستنزل من الله ذلك حتى يتصف قلبه به فيسرى من باطنه الى باطن المريد ، ومنها المواصلة بينه وبين الشيخ به ، فيبقى بينهما الاتصال القلبى والصحبة دائما .. ، فانه أب حقيقى كما قال عليه السلام (الآباء ثلاثة : أب ولدك ، وأب علمك ، وأب رباك) ، وانظر عبد الرزاق الكاشانى : اصطلاحات الصوفية ، تحقيق د. عبد الخالق محمود ، دار المعارف ، ١٩٨٤ ، ص ١٦٩ ، وانظر أيضا تحقيق محمد كمال ابراهيم جعفر ، دار المعارف ، ١٩٨١ م ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

(١٠٢) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٣٠١ ، وانظر الكواكب الدرية : ج ١ ، ص ٢٥٩ ، وانظر طبقات الصوفية : ص ١٠٩ ، طبعة ليدن ، ١٩٦٠ ، قول أبو حفص النيسابورى وانظر الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار : ج ١ ، ص ٧٣ ، وانظر أيضا قول الجامى فى تاريخ التصوف فى الاسلام : ص ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٦٥ ، ٥٩٨ .

ويوضح الصوفية أيضاً أن المريدين عندما يقومون بتمزيق الثياب وشق الجيوب ، يكون ذلك نتيجة لقوة الوارد وعدم الارادة أو الاختيار وقت السماع والا كان ذلك ضياعاً للأمول وخروجاً عن حدود الكتاب والسنة .

كما ذهب الصوفية الى أن تأثر الصوفى بالسماع أكثر من غيره ، خاصة أن يجد الله في كل ما يسمع حتى وان كان ما يسمعه جملة عادية ، وهذا ما يوضحه قول أبى عثمان المغربى : « من ادعى السماع ولم يسمع صوت الطيور وصرير الباب وتصفيق الرياح ، فهو فقير مدع » (١٠٣) ، أى أن درجة الشفافية والصفاء الروحى تجعله يسمع صوت الطيور وصرير الباب وصوت الهواء وصوت كل ما حوله من الكائنات .

فالمرقعة أو الخرقة مذلة للخواص ، وزينة للعوام ، ذلك لأن العوام اذا لبسوا هذه المرقعة عزوا بين الخلق ، أما الخواص تكون المرقعة بلاء لهم ، لأنهم يزهدون وينادون بترك الرياسة ويؤثرون الذل على العز ، والزهد عن الفخامة والبغددة ، فتكون المرقعة مصدراً للنعمة لكل من العوام والخواص ، وهذا ما يوضحه الهجويري بقوله : « المرقعة زينة لأولياء الله عز وجل ، يعز بها العوام ويذل بها الخواص ، وعز العوام هو أنهم حين يرتدونها يحترمهم الخلق وذل الخواص هو انهم حين يرتدونها ينظر اليهم الخلق بعين العوام ويلومونهم بذلك فهى لباس النعم للعوام ، وجوشن البلاء للخواص ، لأن أكثر العوام يكونون فيها مضطرين حين تقتصر أيديهم عن عمل آخر ، ولا تكون لهم آلة أخرى لطلب الجاه ، فيطلبون بها الرياسة ، ويجعلونها سبباً لجمع النعم ، ثم أن الخواص يقولون بترك الرياسة ويؤثرون الذل على العز ، فتكون لهؤلاء ولأولئك نعماء » (١٠٤) .

ولقد اعتبر الصوفية أن لبس الخرقة ارتباط بين الشيخ وبين المريد وعلامة على تحكم الشيخ فى نفس المريد وتأدبه بآدابه ، وهذا ما يوضحه السهروردي البغدادي بقوله : « لبس الخرقة ارتباط بين الشيخ وبين المريد وتحكيم من المريد للشيخ فى نفسه والتحكيم شائع فى الشرع بمصالح دنيوية » (١٠٥) .

---

(١٠٣) الرسالة القشيرية : ص ٢٦٥ .

(١٠٤) عامر النجار : الطرق الصوفية فى مصر نشاتها ونظمها وروادها ، ص ٤٠ .

(١٠٥) المصدر السابق ، ص ٤١ ، وانظر احياء علوم الدين : ج ٢ ، ص ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، وانظر عوارف المعارف ، الجزء الخامس من الاحياء ، ص ١٧٠ ، وانظر تلبيس ابليس : ص ٢٦٠ : ٢٦٣ .

وإذا ما خلع الشيخ الخرقة ، فانها تقسم بين جميع مريديه حتى ينالوا البركة بهذه الخرقة ، وتكون موضع اهتمامهم ، وإذا لم تكن بين أيديهم خرقة أخرى فانهم يلبسونه خرقة ثانية وهي غير الخرقة التي خلعها أثناء الوجد ، وهذا ما أوضحه سعيد بن أبي الخير المولع بالرقص في السماع بقوله : « وأما بالنسبة للخرقة التي يخلعها الدرويش ، فان التخلي عنها يتعلق بكل جماعة الدراويش ، ويكون موضع اهتمامهم ، فاذا لم يكن في متناول أيديهم خرقة أخرى ، فانهم يلبسونه خرقة ثانية ، لأنهم بذلك يخففون عن عقولهم جمل التفكير فيها ، فيسترد الدرويش خرقته ويكون ذلك من أيدي جميع الدراويش ، ولكن هذه الخرقة لا تكون نفس الخرقة التي خلعها (١٠٦) .

ومن قام بحملة اصلاح شاملة منها إصلاح المفهوم الصوفي الإمام محمد عبده ، ولقد ذهب الامام محمد عبده إلى أن كل ما يقوم به الصوفي من ترك الدنيا والزهد فيها ومجاهدة النفس وطلب الفقر والرغبة عن الغنى ، والسماع والوجد والرقص في السماع ما هي الا تلبس من تلبسات الشياطين ، وهذا ما يوضحه بقوله « ان هذا ما كان عليه أوائلهم حتى لبس الشيطان عليهم فكان أول تلبيسه أن صدهم عن العلم وأراهم أن المقصود العمل فما أن انطفأ مصباح العلم حتى تخبطوا في الظلمات فمنهم من غالى في ترك الدنيا وهي قوام مصالح الخلق ،ومنهم من أغرم بتعذيب النفس بالجوع والعري والفقر الإختياري ، ومنهم من هام بالسماع والوجد والرقص ، ومنهم من غلبت عليهم الخيالات » (١٠٧) .

إذن فالامام محمد عبده قد شن حملة عنيفة على التصوف وما يدعو اليه الصوفية بقوله : « ان كل من يسلك طريقة الصوفية بالرياضة والمجاهدة عرضة للوقوع في عالم الخيال ، ومن آثار ذلك أن يرى في اليقظة .. ما لا وجود له في الخارج ، ويسمع من نفسه تارة من الأرواح التي تتمثل له كلاما لا يسمعه غيره وان كان بجانبه ، ويشم روائح طيبة لا مصدر لها من المادة وتعرض له أذواق ووجدانات روحية كثيرة لا يمكن التعبير عنها .. » (١٠٨) .

---

(١٠٦) أسرار التوحيد ، ص ٢٣٨ ، وانظر احياء علوم الدين : ج ٢ ، ص ٣٨٨ .

(١٠٧) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، مطبعة المنار ، ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م ، ج ١ ، ص ١١١ .

(١٠٨) محمد رشيد رضا . تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده . ج ١ ص ١٢٧ .

لكن كيف يهاجم الامام محمد عبده التصوف وهو الجانب الروحى الذى يدعو المريد الى الصفاء والنقاء من خلال القيام بأوامر الشرع والبعد عن الأخطاء التى بها فساد القلب وقسوته ، فالتصوف هو مدرسة أخلاقية تربوية لمن التزم فيها بآداب الصوفية الأوائل (الزهاد) ، فمن تأدب بآدابهم عاش حياة الكمال الروحى ؛ ذلك لأنهم تأدبوا بآداب الرسول ﷺ من صفاء ورقة القلب وغيره .

وخلاصة القول ان الصوفى هو انسان ذو احساس مرهف يحس بمعانى الكلمات التى لا يفهمها غيره من السالكين المبتدئين ، وعندما يحس بهذه المعانى يغيب ويفنى عن كل ما حوله من المحسوسات ويشعر بعالم الروح ويدرك فيه لذة الخطاب الالهى ، وفى هذا العالم لا تكون له ارادة ولا حركة ولا اختيار فيما يقوم به من انفعالات واضطرابات نتيجة لقوة الوارد الالهى عليه ، ولكى يصل الى العالم الروحى ، أى عالم الصفاء والنقاء لابد من العديد من الآداب التى يجب عليه الالتزام بها ، منها الخلوة والعزلة عن مجالس السوء ، وحسن النية فى السماع وكذلك الاخلاص واختيار المكان والزمان المناسب لأوقات السماع وغير ذلك من الآداب الأخلاقية التى يلتزم بها السالك فى سماعه ، وهذا ما يتطلبه كل مجتمع وكل فرد .

اذن ، فالسماع الصوفى يجعل شخصية الانسان شخصية سوية من خلال الالتزام بقواعد السماع وآدابه ، وهذا هو ما أوضحناه فى علاقة السماع بالناحية النفسية وما يثمره السماع فى نفس المستمع .

الفصل الثالث

صلة السماع
بالترقي الأخلاقي وآداب السلوك

تمهيد

أولا : السماع والنفس الانسانية ·

ثانيا : السماع ورياضة النفس أخلاقيا ·

ثالثا : السماع وآداب السلوك ·

رابعا : السماع والآداب الباطنة ·

تمهيـــــد :

أوضحنا فى الفصل السابق السماع من الناحية النفسية وذلك من خلال شعور الصوفى بالسماع والحال الذى يرد على قلب المريد أثناء السماع (الوجد) ، وكذلك أوضحنا دور الارادة فى السماع ، وكيف أن المريد لا تكون له ارادة أثناء الوجد .

ورأينا أيضا كيف أن المريد يحاسب نفسه ويراقبها أثناء السماع من خلال التخلص من الصفات الذميمة والسماع السيىء المثير للشهوة، والدعوة الى السماع الحسن والصفات الحميدة ، واصطناع المجاهدات والرياضات الشاقة : مثل الصحبة ، والخلوة ، والعزلة ، والمراقبة ، والصوم ، والذكر ، وغير ذلك ، وأيضا أوضحنا حال الثبات والحركة وتقطيع الخرقة ، وموقف الصوفية من سماع الموسيقا وما ينتج عنها من الطرب واللذة .

أما فى هذا الفصل فسوف نعرض كيف تترقى نفس السامع أخلاقياً ، وذلك من خلال الالتزام بالكتاب والسنة والتحلى بالصفات والأخلاق الحميدة ، والبعد والفناء عن الصفات السيئة ، ولا يكون ذلك الا من خلال بعض الآداب والواجبات التى يعتبرها الصوفية من أهم الأمور التى يجب الالتزام بها فى مجالسهم ؛ ومن هذه الآداب ما يجب على المريد الالتزام بها ، منها يخص المسموع ، ومنها ما يختص بالأمور الواجب توافرها فى مجالس السماع ، وكذلك نوضح كيف أن مجالس الصوفية تعد الانسان لأن يصبح انسانا أخلاقيا بمعنى الكلمة من خلال الالتزام بالصدق فى السماع وحسن الظن بالمسموع والقائل ، وترك سماع الغيبة والنميمة والكذب والفحش والفجور والبهت ، والدعوة الى الاستقامة والتقوى فى السماع وغير ذلك من الأمور الأخلاقية ، وفى النهاية نوضح كيف أن الصوفية اعتبروا الفهم للمسموع من أول درجات السماع والعمل به .

أولا : السماع والنفس الانسانية :

ان طهر النفس وصفاءها لا يتم الا من خلال مجاهدتها ، فالنفس الانسانية باهمال المجاهدة والرياضات الروحية تأنس بملاذها الحسية وتبذل لذلك كل ما يمكنها من حجب لطائف القلب ، والسماع بالحق هو أحد هذه الرياضات الروحية الذى يتم به رقة القلب وخشوعه والتنزة والفناء عن كل ما يثير الشهوة ، أما السماع البارح فهو ما يخرج صاحبه عن حدود الشرع ويثير كل ما يحس على الشهوة والهوى ، وهذا ما يؤكده الحلاج فى قوله : « جال بى السماع فى ميدان من ميادين البهاء ، فأوجدنى فى وجود الحق عند العطاء فأسقانى بكأس الصفاء ، فأدركت به منازل الرضا وأخرجنى الى رياضة النزهة والفناء » (١) .

النفس هى الأمارة له بعدم السماع الحق ، وبكل خاطر مذموم ومبعث ذلك الهوى والشهوة ، ولذلك ينصح الصوفية المريد بالمجالسة مع الأبرار واستماع نصائحهم والبعد عن الفجار واستماع أحاديثهم ، وهذا ما يوضحه الشيرازى (٢) بقوله : ومن الأمور المعتبرة الواجبة فى حفظ صحة النفس ، عدم المواظبة على الوظائف العلمية يبطل استعداد النفس لقبول الأنوار الالهية والمواهب القدسية ومنها المجالسة مع الأبرار واستماع نصائحهم والمجانبة عن الفجار واستماع أحاديثهم » (٣) .

ولقد أوضح الصوفية أن المستمع يجب عليه عدم التعود على السماع حتى لا يصبح عادة سيئة تثير فى نفسه الصفات والأفعال السيئة ، وانما السماع الحق يثير فى نفس المستمع الشوق الى لقاء الحق تعالى ، والوجد والواردات الالهية وكل ما يمثل الأخلاق الحميدة ، وهذا ما يؤكده أبو بكر الكتانى بقوله : « المستمع يجب أن يكون فى سماعه غير مستروح اليه يهيج منه السماع وجداً أو شوقاً أو غلبة أو واردا ، والوارد عليه يغنيه عن كل حركة وسكون ، فيتقى الصادق استدعاء الوجد ويجتنب الحركة فيه » (٤) .

---

(١) اللمع : ص ٣٤٢ .

(٢) الشيرازى (هو صدر الدين محمد ابراهيم) : رسالة فى علم الأخلاق ، مطبعة الموسوعات ١٣١٩ هـ ، ص ٣٢ .

(٣) الشيرازى : رسالة فى علم الأخلاق ، ص ٣٢ .

(٤) عوارف المعارف : ص ١٦٨ .

فالسماع الحسن اذن جوهرة لا يعرف ثمنها الا أفاضل القوم الذين يلتزمون فيه بالآداب والواجبات الواجبة له من الستر وعدم الافصاح عنه لمن ليس من أهل الطريق . وذلك على حد قول أبى مدين : « السماع جوهرة لا يطلع عليه الا الأفاضل ، فاذا حضرتم السماع فأغلقوا أبوابكم ؛ لأن طريقة القوم على الستر عمن ليس من أهلها » (٥) .

يوضح الصوفية بأن المريدين فى مجالس السماع يجب عليهم غلق أبواب المجلس عن ضعفاء النفوس وأصحاب الأهواء والشهوات ، ولا يدخل مجالسهم الا من كان قوى الحال والارادة ، أى البخل بالسماع على ضعفاء النفوس ، عكس مجالس الطعام ، فانهم يفتحون المجلس للجميع قوى الحال أو ضعيفه وهذا ما يوضحه القول السابق .

ويبين لنا الصوفية كذلك أنه يجب على السامع عدم التقصير فى أى أمر من أمور المجاهدة ، بل يجب عليه الالتزام بكل أوامر المجاهدة من اماتة شهوات النفس السيئة ، ويقظة القلب بالأخلاق الحية والحميدة ، وقيامه بحقوق الحق تعالى لما فيها من رضاه ، وتباعد أهوائه الخبيثة ومناه ، وهذا ما يوضحه القشيرى بقوله : « لا يصح السماع الا لمن كانت نفسه ميتة ، وقلبه حيا ، ومن علامة من ماتت نفسه زوال آفاته ، وسقوط شهواته ، وقيامه بحقوق ربه ، وما فيه رضاه ، وتباعده عن حظوظ نفسه ومناه » (٦) .

فالشيطان عند الصوفية هو أساس كل خلق مذموم وكل آفة تدعو المستمع الى الخروج عن حدود السماع ؛ ولذلك يعالج الشيطان بضده وهو التحلى بمكارم الأخلاق وحسن الاستماع ، وحماية القلب من وساوس النفس أمر ضرورى ، ذلك لأن الوساوس أدخنة ثائرة من نار النفس الأمارة بالسوء ، ويقسى القلب ويفسده ويجعله يسلك سلوكا غير أخلاقى ، وهذا ما يوضحه السهروردى بقوله : « فمن تملكته الوساوس وغلب على باطنه حديث النفس لا يقدر عن حسن الاستماع » (٧) .

---

(٥) قطع النزاع وكشف القناع عن دليل جواز السماع : ص ٣٧ .

(٦) الامام القشيرى ، سيرته ، آثاره ، مذهبه فى التصوف ، ص ٢٧٧ ــ ٢٨٨ ، وانظر شرح تائية السلوك الى ملك الملوك ، ص ٩٤ .

(٧) عوارف المعارف ، ص ١٩ ، ٢٠ .

ويستمد الصوفية هذه المعانى من الحديث النبوى الشريف « عن أبى الجوزاء قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بأهل الجنة وأهل النار ؟

أهل الجنة من ملئت مسامعه من الثناء الحسن وهو يسمع ، وأهل النار من ملئت مسامعه من الثناء السيىء وهو يسمع » (٨) .

فسماع أهل النار أهل السوء ، أما سماع أهل الجنة فهو سماع أهل الحسن ، والسماع الصحيح لا يتحقق الا اذا تخلص العبد من الشيطان والوساوس الشيطانية وكان قلبه حاضراً بالحق تعالى ، وفى مثل هذه الحالة لا يكون للشيطان أى أثر على القلب وسماعه ، فالنفس والهوى والشيطان أعداء يطالبون فرصة الظفر بالعبد وهما مما يخرج العبد عن حدود السماع ، وهذا ما يوضحه قول الشعرانى بقوله : « الخلل فى حال السامع لكونه كاذباً فى حالة بأن يتحرك صاحب النفس بالشعور والاحساس فيكون مسخرة (١٠) للشيطان وملهاه للوسواس مردوداً عند الله وعند الناس » (١١) .

والسماع الحق أيضا تأمل دائم فى النفس ورعاية كاملة لعدم خروج المريد عن حدود الشريعة ، فيسمع عن طريق التأمل والعمل على تنقية وتصفية سريرته فيقرب من الله ويبتعد عمن سواه ، فالقلب المتطهر من دنس الهوى يطمئن بكل اشارة وعبارة تشير الى جمال الحق تعالى ، وهذا ما يوضحه ابن عربى بقوله : « أن الانسان يريد أن لا يسمع شيئاً من نفسه أصلا ولا مما يقوم فى خاطرة لكون ذلك الشيء من هواه وهو غير متحقق فى الطريق ، فيكون أبداً أسيراً لهواه وان سعى فى خير ، ألا ترى ذا النون كيف قال كل فعل لا يكون عن أثر فهو هوى للنفس » (١٢) .

ويذهب الغزالى الى أن وقع الكلام فى نفس المستمع مثل الطعام منه الضار ومنه النافع ، فالسماع الحسن يدعو الى الأخلاق والصفات

---

(٨) المروزى (عبد الله بن المبارك) : كتاب الزهد والرقائق ، تحقيق حبيب الرحمن الاعظمى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ١٥٤ ، اخرجه ابن ماجه عن طريق مسلم .

(١٠) مسخرة : العوبة فى أيدى الشيطان أو كالريشة فى مهب الريح لا تملك من أمرها شيئا طالما كان كاذبا فى سماعه مدعيا فى حاله ، يترك نفسه لوساوس الشيطان .

(١١) د. كوكب عامر : السماع عند الصوفية خاصة الغزالى ، مطبعة أخوان رزيق ، القاهرة ، ١٩٨٨ م ، ص ٩٨ ، وانظر عوارف المعارف : ص ١٧٧ .

(١٢) ابن عربى : مواقع النجوم ومطالع أهل الأسرار . مكتبة صبيح ، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م ، ص ١٥١ .

الحسنة وما تحققه من راحة فى القلب ، وترد الوساوس الشيطانية والهواجس النفسية ؛ ذلك لأن الكلام الطيب قد يلازم الانسان طوال عمره لا يستطيع أن ينساه ، أما الكلام السيىء فيتعب صاحبه وتورد عليه الوساوس ، وهذا ما يجب تركه ، وذلك ما يتضح بقوله : « أن الكلام الذى يقع فى قلب الانسان وسمعه بمنزلة الطعام الذى يقع فى جوفه فمنه الضار ، ومنه النافع ، ومنه الغذاء ، ومنه السم ، بل ان بقاء الكلام وتجرعه اكثر وأبلغ من الطعام فان الطعام يزول عن المعدة بنوم وغيره وربما يبقى أثره زماناً ويزول وله دواء يزيل أثره من جسم الانسان ، وأما الكلام الذى وقع فى قلبه فربما يبقى معه جميع عمره ولا ينساه فان كان رديئاً فلا يزال يتبعه ويعيبه .. ، ولو كنت حفظت سمعك عما لا يغنيك كنت عن هذه المؤن مستريحا » (١٣) .

على الجملة يجب على المستمع اختيار ما يعود عليه بالخير من السماع الاخلاقى الفاضل ، والابتعاد عن السماع السيىء ، فالمستمع الحق هو الذى يبتعد عن كل ما تميل اليه النفس وتهواه ، والسماع الحسن هو أساس كل خلق وسلوك اخلاقى ، وبدون السماع الحسن لا يصبح المستمع فاضلا ، وهذا ما يوضحه السكندرى بقوله : « أيها العبد ألق سمعك وأنت شهيد يأتك منى المزيد واصغ بسمعك فأنا لست عنك ببعيد ، كنت بتدبير لك قبل أن تكون لنفسك فكن لنفسك بألا تكون لها » (١٤) .

وكذلك أوضح الصوفية أن المستمع الذى يزود أو يقلل فيما يسمعه أو يكذب ، فانه يحرم من حضور مجالس الذكر والسماع ؛ لأن ذلك من مكاره الأخلاق . أما المستمع الحق هو الذى يستمع بصدق وبقلب واع لما يسمعه واخلاص النية فى السماع ، وهذا من أهم آداب الأخلاق ، وهذا ما يوضحه أحمد الرفاعى بقوله : « الكاذب يحرم عليه السماع ، ويلزم بعدم الحضور فى مجالسه حتى يصدق » (١٥) .

---

(١٣) الغزالى : منهاج العارفين الى الجنة ، المطبعة الكاستلية ١٢٨٨ هـ ، ص ٤٧ ، وانظر شمس الدين التسترى : مكارم الأخلاق والسياسة ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٣٥٣ تصوف ، ميكروفيلم ٣٣٤٥٥ ، ٢١ ورقة ، ص ١٥ ، ١٦ .

(١٤) السكندرى (ابن عطاء الله) التنوير فى اسقاط التدبير وبهامشه تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس ، المطبعة الميمنية ، ١٣٢١ هـ ، ص ٥٨ ، ٦١ ، وانظر الحديقة الندية شرح الطريقة المحمدية : جـ ٢ ، ص ٤٠٧ .

(١٥) الرفاعى (أحمد) : البرهان المؤيد ، ص ٧٠ : ٧٢ .

ثانيا : السماع ورياضة النفس أخلاقيا :

أخلاق المريد نتيجة مجاهدته لنفسه ، فيقال أن العبد قد تحقق بالسماع اذا رسخ له معنى المسموع ، ورياضة السماع تتضمن فى باطنها قاعدة أخلاقية هامة ، وهى أن يتحقق المستمع بالأخلاق الفاضلة ، وذلك باحلال الصفات والأخلاق الكريمة محل الصفات الذميمة ، ولكى يتحقق للمستمع الكمال الأخلاقى لا بد له من اخلاص النية فى السماع والايثار والقناعة والصدق والاستقامة وحسن الاستماع والصفاء والطاعة والاجابة ويتخلى عن استماع الغيبة والنميمة والباطل والعجب والرياء وغير ذلك من الأخلاق الرذيلة ، وهذا ما يسمى برياضة النفس من الناحية الأخلاقية . وحول هذا المعنى يقول ابن عربى : « وعلامة السامعين المحققين فى سماعهم انقيادهم الى كل عمل مقرب الى الله تعالى من جهة سماعه ؛ أعنى من التكليفات المتوجهة على الأذن من أمر ونهى كسماعه للعلم والذكر والثناء على الحق تعالى والموعظة الحسنة ... ومن علامته أيضاً التصامم عن الغيبة والنميمة والبهتان والسوء من القول كالخوض فى آيات الله تعالى والرفث والجدال وسماع القيان ... قال تعالى :

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ (١٦) (١٧)

ان من أهم رياضات النفس اخلاقياً ، الاخلاص فى السماع وعقد النية على أن هذا السماع من أجل وجه الحق تعالى ، وليس من أجل كسب منزلة بين الناس بل من أجل التحقق بالوجد نتيجة لالتذاذه بذكر اسم الحق تعالى ، ويقتضى الاخلاص عند الصوفية أن يفرغ المستمع قلبه عن الكل ، وأن يثق بأن لذة السماع لا تتحقق الا باخلاص النية فى السماع ، وهذا ما يؤكده عبد القادر الجيلانى بقوله : « أمر المرشدين أن يلذذوا الأسماع بكلمة الاخلاص لأن المحب يلتذ باسم محبوبه حتى يحصل الذاكر الوجد الذى هو غشيان الروح من استلذاذ الذكر »(١٨) .

---

(١٦) سورة القصص : آية (٥٥) .

(١٧) مواقع النجوم ومطالع أهل الأسرار والعلوم : ص ٦٨ ، ٧٣ .

(١٨) عبد القادر الجيلانى : آداب المريدين ، المطبعة الرسمية التونسية ، ١٣١٣ هـ ، الطبعة الاولى ، ص ١٦ .

ويعتبر الصدق من أهم المقامات ذات الأهمية الأخلاقية عند الصوفية ، ويعنى عندهم الثبات والاستقرار النفسى وعدم الاضطراب وقت السماع ، فالصدق يذهب ظلمة الشك والريب من قلب المستمع ، وفضيلة الصدق تعمل على نظافة القلب وطهارته من هذه الآفات النفسية المظلمة للمستمع ، فالصدق عكس الشك والريب فى السماع ، أى أن للصدق قيمة أخلاقية ، وهذا ما يوضحه قول عبد الوهاب الشعرانى : « اعلم أن السماع سر من أسرار الله تعالى يظهر فى الصادقين من العشاق ولا يعرفه حق المعرفة الا من ذاق » (١٩) .

إذن فحقيقة السماع عند الصوفية هو صدق الحال فى السماع واعتماد القلب على الحق تعالى فيما يسمع ولا تكون نفسه متعلقة بالشهوات فى هذا السماع الحسن ، فاذا سمع كأنه يسمع من الحق تعالى واليه ، كما أن الصدق فى السماع يعمل على التخلص من العادات السيئة أو السلوك المذموم عن طريق الاكتفاء بالله تعالى فيما يسمع من خلال معرفته بأسماء الله تعالى وصفاته ، ولا يكون قلبه ملوثاً بحب الدنيا وحب الثناء والمحمدة ، ولا يكون فى قلبه طمع فى الناس والتشوق اليهم ، مراعيا لقلبه حافظاً لحدود الحق تعالى وأمره ، وهذا ما يوضحه قول أحمد بن عطاء الروزبارى (ت ٣٦٩ هـ) : « سر الصادق فى السماع ثلاثة : العلم بالله ، والوفاء بما عليه ، وجمع الهم » (٢٠) .

ويذهب الصوفية أيضاً الى أنه يجب على المريد فى السماع أن يكون صادقاً فى سماعه ، ولا يكون هذا السماع من أجل الاستطابة والالتذاذ لكيلا يصير عادة فيشغله عن عبادته ورعاية قلبه ، ولا يحضر السماع الا فى مواضع يجرى فيها ذكر ما يحثه على المعاملة والطاعة ، فاذا كان كذلك يسمع ما يكون داخلا فى صفة التائبين والخاشعين والخائفين والراجين والصادقين ، وهذا ما ذهب اليه أبو العباس الخضر عندما سئل عن السماع ؟ فقال : هو الصفا الزلال لا يثبت عليه الا أقدام العلماء » (٢١) .

(١٩) السماع عند الصوفية خاصة الغزالى : ص ٢١ ، ٧٥ ، وانظر قول الشيخ سعدى فى تاريخ التصوف الاسلامى : ج ٢ ، ص ٥٧٥ ، وانظر قول أبى عثمان الحيرى فى الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٧٤ ، وانظر اللمع : ص ٣٤٩ ، وانظر الرسالة القشيرية فى علم التصوف : ص ٢٦٦ ، والرسالة القشيرية تحقيق عبد الحليم محمود : ج ٢ ، ص ٦٤٨ ، وانظر الامام القشيرى ، سيرته ، آثاره ، مذهبه فى التصوف : ص ٢٢٩ ، وانظر الفجر المنير : ص ٧٧٩ ، وانظر قول أبى حيان التوحيدى : الاشارات الالهية ، تحقيق وداد القاضى ، دار الثقافة بيروت ، ١٩٧٣ ، ج ١ ، ص ٦٧ .

(٢٠) طبقات الصوفية : ص ٥٠٠ طبعة الخانجى ، ١٩٥٢ .

(٢١) عوارف المعارف : صـ ١٥٦ ، وانظر آداب المريدين ، ص ٤٧ .

فالصدق إذن هو صفاء الظاهر من شهود المحسوسات والأشباه وقت السماع ، بل يشهدها نورا ظاهراً ، وكذلك هو صفاء الضمير ، وعندما يفنى المستمع كل الأمور الغيرية المحدثة فى باطنه يبقى بالحق تعالى ، ومن ثم فالسماع يقوم على الصفاء النفسى الذى هو أساس الصدق .

وكذلك استقامة الظاهر والباطن مبدأ لا بد من توافره فى كل مقام وحال عند الصوفية ، أى فراغ القلب من استماع الخبائث فى الظاهر والباطن ، فان كفر المستمع بهذه النعمة بأن تابع حظوظ نفسه وشهواتها وأهواءها فى السماع شوش الله عليه قلبه وسلبه ما كان يجده من صفاء قلبه ؛ ذلك لأن حظوظ النفس تنفى صفاء القلب وطمأنينته ورقته ، وتجعل القلب لا يألف الطاعة والأخلاق الحميدة الا تكلفاً ، وهذا ما يوضحه ابن مسروق (ت ٢٩٩ هـ) : « لا ينبغى للفقير سماع التغزلات الا أن كان مستقيماً فى الظاهر والباطن قوى الحال ، إما ما فى العلم وأما أمثالنا فلا يليق بنا سماعها لأن قلوبنا لم تألف الطاعات الا تكلفاً (٢٢) .

كما أن أهل الاستقامة من العارفين هم الذين يورد الحق تعالى عليهم الوارد الالهى فيبعث هذا الوارد حال حركة أو سكون دون ارادة من جانبهم ، وهم فى أعلى درجة من درجات السماع ، وهذا ما يوضحه أبو عثمان الحيرى بقوله : « القسم الثالث : سماع أهل الاستقامة من العارفين فهؤلاء لا يختارون على الله فيما ينزله على قلوبهم من الحركة والسكون » (٢٣) .

وأهل الاستقامة من العارفين هم طبقة خواص الخواص وهى أعلى درجة من درجات السماع التى يصل خلالها المريد الى مرحلة الكشف الالهى ، ومن آفات السلوك التى تعكر صفو السماع أيضاً طول الاستماع الى الباطل ، وقد أمر الحق تعالى المريد أن يستعيذ من شرور الاستماع الى الباطل ، وأن يتعلم حسن الاستماع ، كما يتعلم حسن الكلام ؛ ذلك لأن المستمع شريك القائل ، وأن يكف سمعه عن الاصغاء والانتباه الى صاحب بدعة أو مكروه ، وأن يستمع وينصت لما

---

(٢٢) الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٨٠ .

(٢٣) الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٧٤ ، وانظر الرسالة القشيرية ، ج ٢ ، ص ٦٤٨ ، وانظر اللمع : ص ٣٤٩ ، وانظر الفجر المنير ، ص ٧٩ ، وانظر أيضاً الامام القشيرى ، سيرته ، آثاره ، مذهبه فى التصوف : ص ٢٢٩ .

فيه الخير له وللمجتمع ، وهذا ما يوضحه أحمد الرفاعى بقوله :
« لا تعط أذنك طريق السير الى السماع الكذب والزور وفحش الكلام (٢٤) .

فالسماع عند الصوفية له أيضاً قيمة أخلاقية عظيمة من حيث أنه يدعو السالك الى ترك سماع السوء وكذلك الفناء عن سماع الغيبة والنميمة والفحش وكل ما يثير الشهوة والأفعال السيئة التى تعارض تعاليم المجتمع وتقاليده ، وهذا السماع السيىء يطفىء حلاوة الطاعة فى القلب المؤمن الخاشع لربه ، ومن أجل ذلك لابد لهذا السالك من البعد عن السماع الباطل ، وهذا ما يوضحه قول عبد الله بن خبيق الموصلى : « طول الاستماع الى الباطل يطفىء حلاوة الطاعة من القلب ، ومن أراد أن يعيش هنيئاً فى حياته فلينزل الطمع عن القلب » (٢٥) .

اذن فرياضة النفس أخلاقياً تجعل شخصية المستمع شخصية سوية خالية من الأحقاد ، تتعامل مع الآخرين بنفس طاهرة من خلال ترك الاستماع الى الخبائث وتنزيه اللسان عن النطق بها وغير ذلك من الأخلاق الكريمة الفاضلة التى يرضاها الدين والمجتمع والبعد عن رذائل الأخلاق ، فالرياضة الأخلاقية قاعدة أساسية لكل مستمع للحق ، وهى المطهر العملى للنفس من كل أدناسها وشوائبها التى تعكر صفو الاستماع الى الحق ، وهذا ما يوضحه قول بعضهم :

سمعك صن عن سماع القبيح كصون اللسان عن النطق به
فإنك عن سماع الخنا شريك لقائله فانتبه » (٢٦)

---

(٢٤) احمد الرفاعى : النظام الخاص لأهل الاختصاص ، المطبعة العلمية ن ١٣١٣ هـ ، الطبعة الأولى ، ص ٨ ، وانظر قول الشعرانى فى لطائف المنن والأخلاق : ج ١ ، ص ١٦ .

(٢٥) الكواكب الدرية ، ج ١ ، ص ٢٥٤ ، وانظر طبقات الصوفية ، ص ١٤٥ ، وانظر أيضا قول سفيان الثورى فى حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : ج ٧ ، ص ٢٦ .

(٢٦) أبى بكر البينانى : اتحاف أهل العناية الربانية فى اتخاذ طريق أهل الله وان تعددت مظاهره الحقانية ، المطبعة العامرة ، الشرقية ١٣٢٤ هـ ، ص ٦٢ ، وانظر أبى الحسن البصرى الماوردى : أدب الدنيا والدين ، المطبعة الأميرية ١٣٤١ هـ ــ ١٩٢٣ م ، ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، وانظر ابن قتيبة الدنيورى : عيون الأخبار ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٤٦ هـ ــ ١٩٢٨ م ، ج ٢ ، ص ١٤ ، الطبعة الأولى ، وانظر محمد بهاء الدين العاملى : الكشكول ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٢ م ، ج ٢ ، ص ١١٠ ، وانظر منهاج العابدين الى الجنة ، ص ٤٧ ، وانظر الكواكب الدرية : ج ١ ، ص ١٤٤ ، وانظر مختصر منهاج القاصدين : ص ١٧١ ، ١٧٢ ، وانظر مخطوط اداب المريدين : ص ٣١ ، وانظر العقد الفريد : ج ٢ ، ص ٣٩٩ ، وانظر قول الشافعى فى حلية الأولياء ، وطبقات الأصفياء : ج ٩ ، ص ١٢٣ .

ومن ثم فسماع الكلام الخبيث فيه الخروج عن حدود السماع ، أما السماع الحسن فهو سماع الكلام الطيب الذى تلتذ النفس بسماعه . وكما ان اللسان يصم عن النطق بالكلام السيىء فانه يجب أيضاً على حاسة السماع التصامم عن سماع السوء ؛ ذلك لأن المستمع للسوء مثل القائل به ، وهذا ما يوضحه القول السابق .

إذن ، لا صفاء للنفس الا بمجاهدة البدن بالجوع والسهر ، بالاضافة الى رياضة أخرى هى الصمت عن الكلام ، وذلك لا يعنى حبس اللسان عن الكلام ولكن الحرص فى القول وعدم البوح بالسر ، لذلك يفضل الصوفية الصمت فيما عدا ذكر الحق تعالى ، والصمت عند الصوفية هو صمت القلب واللسان عن الكلام ، وكلام القلب هو الخواطر والأسرار والواردات الالهية ، ولذلك يقول الجريرى : « مكثت عشرين سنة لا يخطر لى ذكر الطعام حتى يحضر ، ومكثت عشرين سنة أصلى الفجر على طهور العشاء .. ومكثت عشرين سنة لا يسمع لسانى الا من قلبى ، ثم حالت الحال ، فمكثت عشرين سنة لا يسمع قلبى الا من لسانى » (٢٧) .

ومعنى قوله لا يسمع لسانى الا من قلبى أى لا أقول الا الحقيقة التى أنا عليها ، وقوله لا يسمع قلبى الا من لسانى ، أى حفظ وصمت اللسان عن القبائح ، لذا قال الحق تعالى فى حديث قدسى ((ما زال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى ينطق)) (٢٨) .

كما ذهب الصوفية الى تفضيل الصمت والاستماع عن كثرة الكلام ، ذلك لأن الصمت له أهمية أخلاقية هى عدم الميل الى التفاخر أو المدح والثناء أو حب الظهور والاعجاب ، وذلك آفات غير أخلاقية لا يرضاها المجتمع ، وكذلك يكره سماع المدح والثناء ، لأن فى ذلك نوعاً من التملق وهو أيضاً مكروه وفضول ، وهذا ما يوضح ابن عربى بقوله : « فأما

---

(٢٧) التعرف لمذهب أهل التصوف : ص ١٤٩ ، وانظر الرسالة القشيرية فى علم التصوف : ج ١ ، ص ١٠٠ ، وانظر قول المحاسبى فى الكواكب الدرية : ج ١ ، ص ٢١٩ ، وانظر أيضا قول حذيفة المرعش فى صفة الصفوة ، دار الكتب المصرية ، ١٣٩٤ هـ ، ج ٤ ، ص ٢٦٣ .

(٢٨) اللمع : ص ٨٨ ، أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الرقاق الصحة والفراغ ولا عيش الا عيش الآخرة ، باب التواضع ، ج ١١ ، ص ٢٨٦ ــ ٢٨٩ .

محبتهم سماع المدح مواجهة فذلك غير مستحب لأنه من جنس التملق وحب التملق مكروه لأنه من قبيل الخديعة » (٢٩) .

ويقول فى نفس المعنى السابق أيضاً يزيد بن حبيب : « ان من فتنة العالم الفقيه أن يكون الكلام أحب اليه من الاستماع وان وجد من يكفيه، فان فى الاستماع سلامة ، وزيادة فى العلم » (٣٠) .

فالصوفية ترى أن فى الاستماع السلامة من وساوس النفس ، من خلال الاستماع الى الكلام الطيب الطاهر وسماع العلم والحكمة ، وهذا ما ذهب اليه يزيد بن حبيب ، كما اعتبر الصوفية أن سماع الكمل من القوم هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وهو سماع القرآن الكريم والكلام الطيب ، والكلام الطيب هو كلام الفضيلة والأخلاق الحميدة التى يستلذ بها المريد ، وعندما يستلذ المريد ما يسمع يجب عليه أن يفرق بين معانى المسموع الحسن والمسموع السيىء وأن يستزيد ويشبع روحه بأفضل معانى المسموع الحسن ، وذلك من باب الأخلاق الحميدة ، وهذا ما ذهب اليه الصوفية وكذلك أرسطوطاليس بقوله : « لأن المحسن اليه دون المحسن ويجب أن يفضل ، وهو يستلذ سماع الفضيلة ويستبشع سماع ما أفضل به عليه » (٣١) .

وخلاصة القول ان السماع هو هداية الناس الى ما كان عليه رسول الله ﷺ من أخلاق وأحوال وأفعال ، ومن هنا يمكن أن نتخذ من السماع علاجا لما نشكو منه من آفات وآثام غير أخلاقية تعكر صفو الحياة ونقاءها ، من خلال الالتزام بآداب السماع والانصات ، وقلة الكلام وحسن الظن وسلامة الصدر من هذه الآفات ، وهذا ما يوضحه أحد الصوفية : « السماع هو اظهار الخشوع ودوام وسلامة الصدر وحسن

---

(٢٩) رسالة تهذيب الأخلاق : ص ١٥٦ ، وانظر كتاب الزهد والرقائق : ص ١٦ ، وانظر كتاب الأخلاق : ص ٣٠ .

(٣٠) عبد الوهاب الشعرانى : تنبيه المغترين وبهامشه الكشف والتبين ، المطبعة المحمودية ، ١٣١٥ هـ ، ص ٥٧ ، وانظر أيضا عبد القادر الطرابلسى : احياء القلوب ، المطبعة العلمية ، ١٣١٥ هـ ، ص ٢٦٧ .

(٣١) أرسطو طاليس : الأخلاق ، ترجمة اسحق حنين ، تحقيق د. / عبد الرحمن بدوى وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٨٢ م ، ص ١٥٧ ، وانظر عوارف المعارف : ص ٢٧ ، وانظر قول حكيم فى ، محمد الغزالى : التبر المسبوك فى نصائح الملوك ، دار الكتب ، ١٢٧٧ هـ ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ . وانظر محمد الطرطوشى : التبر المسبوك هامش على سراج الملوك ، المطبعة الخيرية ، ١٣٠٦ هـ ، ص ٩١ ، ١٢٣ .

الظن واعتقاد القول ودوام السكوت وقلة التقلب وجمع الهم وترك التهمة » (٣٢) .

من ذلك يتضح لنا أهمية الرياضات العلمية من الناحية الأخلاقية ، خاصة السماع الحسن ، أما السماع غير الأخلاقى فانه يورث الآفات النفسية غير الأخلاقية مثل النفاق والعناد والكذب والفجور ، وهذا ما يوضحه قول بعض العارفين : « السماع يورث النفاق فى قوم ، والعناد فى قوم ، والكذب فى قوم ، والفجور فى قوم ، والرعونة فى قوم » (٣٣) .

ثالثا : السماع وآداب السلوك :

أقام الصوفية للسماع آداباً وأوجبوا الالتزام بها فى مجالسهم ، كما اتضح من البحث أيضا أن أصحاب الطريق يراعون فى السماع تلك الآداب ويحترمونها بل ويجلونها ، وقد وضع لها الصوفية قواعد وأصولا منها ما يتخلق به السامع أخلاقيا ، ومنها ما يخص موضوع السماع ، ومنها ما يشترطون توافرها فى مجلس السماع ؛ ومن بين هذه الآداب مراعاة المكان الذى تجرى فيه جلسة السماع ، بمعنى أن لا يكون السماع فى شارع مزدحم أو فى مكان مطروق بل يتم السماع فى زاوية مخصصة لذلك ، ولا يدخل فيها من ليس من أهل الطريق . أما المنكرون ومدعو الزهد من أهل الدنيا فانهم يستبعدون من هذه المجالس لما يسببونه من أضرار ومتاعب ، وهذا ما يوضحه ابن عربى بقوله : « تجرى جلسة السماع فى زاوية ولا يدخل فيها من ليس له شيخ»(٣٤) .

وإذا كان الصوفية يشترطون للسماع مراعاة المكان فانهم يشترطون أيضاً مراعاة الزمان بمعنى أن لا يتم السماع وقت الصلاة ، أو وقت حضور الطعام أو وقت النوم أو أى وقت يكون انتباه المريد فيه مشغولا بشاغل يجذب انتباهه ويبعده عن الانصات والانتباه للسماع ، أى عدم حضور القلب وقت السماع ، وكذلك يجب مراعاة الصحبة والاخوان المشاركين فى السماع ، فلا يكونوا من المدعين للزهد والمنكرين للطريق ،

---

(٣٢) أبى حامد الغزالى : رسالة الأدب فى الدين ، مطبعة كردستان العلمية ١٩٥٠ ، ص ٧٠ ، وانظر الغزالى : المنقذ من الضلال ومعه كمياء السعادة والقواعد العشر والادب فى الدين بقلم أنيس منصور ، مكتبة الجندى ، ١٩٧٣ ، ص ١٥٧ ، وانظر أيضا العقود واللآلىء من رسائل الامام الغزالى ، المطبعة المحمودية عام ١٩٣٩ ، ص ٧ .

(٣٣) حكم الاسلام فى الغناء : ص ٣٨ .

(٣٤) مواقع النجوم : ص ١٦٥ ، وانظر السماع عند الصوفية وخاصة الغزالى ، ص ٩٥ .

وهذا ما يوضحه الغزالى حينما يورد قول الجنيد : « السماع يحتاج الى ثلاثة أشياء والا فلا تسمع : الزمان ، والمكـــان ، والاخـــوان ومعناه أن الاشتغال به فى وقت حضور الطعام أو خصام أو صلاة أو صارف من الصوارف مع اضطراب القلب لا فائدة فيه » (٣٥) .

كما أن من آداب الصوفية فى مجالس السماع أيضاً وجود الشيخ الذى يرشد المريد الى طريق الصواب ويهــديه الى الصراط المستقيــم حتى لا يغرق فى مذلة هوى النفس عند دخوله هذا المقام ، كما أن هذا المريد يقوم بخدمة الاخوان وأعمال النظافة ، وغير ذلك من الأعمال الأخــرى التى تناسب مقامه ، وهذا ما يوضحه ابن عربى بقوله : « هو مزلة قـدم لمن لا تحصيل له ولا شيخ يرشده ، وكثير من أهل زماننا زلت به قدم الغرور فى مهواة من التلف عند دخولهم فى هذا المقام » (٣٦) .

كما يذهب الصوفية الى أن من آداب مجالس السماع أيضا ترك الغيبة والنميمة ؛ ذلك لأن من باب الادب أن يسمع المرء أبياتا أو حديثاً من رجل صالح فتهيج له مشاعره حزنا وبكاء على انقطاعــه عــن باب مولاه فيستيقظ بذلك من الغفلة فى أمر دينه ودنياه ، وهذا ما يوضحه النصر باذى : « حيث كان كثير الولع بالسماع فعوتب فى ذلك فقال : نعم هو خير من أن نقعد ونغتاب ، فقال له أبو عمرو بن نجيد وغيره من اخوانه : هيهات يا أبا القاسم زلة فى السماع شر من كذا وكذا سنة نغتاب الناس » (٣٧) .

فلقد كان حسن الاستماع من أهم دعائم المذهب الأخلاقى الصوفى ، فالسماع الحسن الذى فيه صالح الفرد فى الدنيـا والآخرة خير من أن يجلس ويغتاب وينم الناس ، وهذا ما توضحه الأقوال السابقــة .

---

(٣٥) احياء علوم الدين : ج ٢ ، ص ٣٨٥ ، وانظر الرسالة القشيرية ، ص ٢٦٥ ، وانظر اللمع : ص ٣٤٢ ، وانظر التصوف الاسلامى الخالص : ص ٧٦ ، وانظر الدكتور حسن محمد الشرقاوى : ألفاظ الصوفية ومعانيها ، دار الكتب ، ١٣٩٥ هـ ــ ١٩٧٥ م ص ١٩٩ .

(٣٦) مواقع النجوم ومطالع أهل الأسرار : ص ١٥١ .

(٣٧) عوارف المعــارف : ص ١٦٨ ، ٣٠٠ ، وانظر تاريخ التصوف الاسلامى ج ٢ ، ص ٥٧١ ، وانظر مخطوط آداب المريدين ، ص ٤٧ ، وانظر التنوير فى اسـقاط التدبير ، ص ٢٨ ، ٥٢ ، وانظر مخـطوط فتح الأســماع فى شرح السـماع : صص ٧٣ : ٨١ ، وانظر كفاية الاتقياء ومنهاج الأصفياء ، ص ١٧ ، وانظر ابن سلام الباهلى : الذخائر والأعلاق فى آداب النفوس ومكارم الاخلاق ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣٥ م ، ص ٧٨ ، وانظر قواعد التصوف : ص ٨٤ ، وانظر أيضا الفتوحات الألهية : ج ٢ ، ص ٢٧٨ .

كذلك ينصح الصوفية المريد أيضاً بترك التكلف فى السماع ، والتكلف هو ادعاء حال أو مقام ليس عليه صاحبه ، والتكلف يكون على ضربين : ضرب يتعلق بنفس المستمع وقلبه الملوث بحب الدنيا يستمع تكلفاً لطلب جاه أو منفعة دنيوية من مال أو طعام أو ثياب ، وذلك مذموم لما فيه من التلبس على العامة ، وضرب ثان محمود وهو التكلف فى السماع من أجل استدعاء الوجد والتباكى ، وهو طلب حقيقة السماع كمن يطلب الوجد بالتواجد ، وهذا ما يوضحه قول السهروردى عندما سئل عن التكلف فى السماع فقال : « هو على ضربين تكلفه من المستمع لطلب الجاه أو منفعة دنيوية وذلك تلبيس وخيانة وتكلف منه لطلب الحقيقة كمن يطلب الوجد بمنزلة التواجد وهو بمنزلة التباكى من البكا » (٣٨) ٠

والتكلف عند الصوفية كما سبق توضيحه ، مظهر من مظاهر الرياء وطلب السمعة ، وهذا ما يحذر منه أرباب القلوب الواعية ، وربما يصبح التكلف عادة ، فيكون ذلك غلظة للقلب وظلمة ، ويقول فى نفس المعنى السابق أيضاً عبد القادر الجيلانى : « من ذلك أن لا يتكلفون السماع ولا يستقبلوه بالاختيار فاذا أنفق السماع فمن حق المستمع أن يقعد بشرط الأدب ذاكراً لربه بقلبه مشتغلا بحفظ قلبه من طوارق الغفلة والنسيان » (٣٩) ٠

وبذلك يكون من أهم آداب السماع أن يكون السامع صادقا مع نفسه ومع الحق تعالى بعيداً عن التكلف والرياء والغرور وأن يكون متواضعاً فى سماعه متفهما لمعانى المسموع حريصا على تنفيذها والالتزام بها فى حدود الشرع وتعاليمه ٠

وكذلك يذهب الصوفية الى أن من أهم الآداب الأخلاقية التى يجب على المريد الالتزام بها أيضا هو أن يتعلم آداب السماع على يد شيخ يرشده ويؤدبه بآدابه من حسن الانصات ، وقلة الكلام ، وعدم الحركة ، والاهتزاز ، الا اذا كان ذلك نتيجة لوارد قوى ، وعدم التكلف فى السماع، وكذلك يكره الصوفية حضور الصبية والفتيات مجالس السماع حتى لا يفتروا بالسماع فتثار فيهم الشهوة والهوى ، وانما يحضره من أراد

---

(٣٨) آداب المريدين : ص ٤٩ ، وانظر عوارف المعارف : ص ١٨٥ ، وانظر مخطوطه رسالة فى السماع والتواجد : ص ٤ ، وانظر أيضا المنقذ من الضلال ومعه كمياء السعادة والقواعد العشر والآداب فى الدين : ص ١٥٢ ٠

(٣٩) الغنية لطالبى طريق الحق : جـ ٢ ، ص ١٦٧ ، وانظر آداب المريدين ، ص ٤٩ ، وانظر أيضا اللمع : ص ٢٤٧ ٠

قمع نفسه وابعادها عن مجالس الشرب والفساد ، وهذا ما يوضحه العديد من أقوال الصوفية منها قول السهروردى : « ضرورة أن يتعلم المريد آداب السماع على يد شيخ يقصده ليؤدبه فيه وأنه يكره للشبان القيام فى حضرة المشايخ واظهار الحال ، وأنه لا رخصة للأحداث فى القيام والتحرك ، وأن أكثر المشايخ يكرهون حضورهم مجلس السماع .. » (٤٠) .

وكذلك يقول ابن عطاء الله السكندرى فى القول السابق : « انما أمروا فى حال السماع بغلق الباب لئلا يحضر معهم من يجتنب حضوره من الأحداث والعوام والنساء وغير ذلك مما لا يليق حضوره ، لأن مجلس السماع اذا كان ربانيا فهو كمجلس الذكر والمذاكرة ومجلس الذكر والمذاكرة ، غذاء الأرواح ورضاع القلوب » (٤١) .

فالصوفية يذهبون الى أن مجالس السماع اذا توافرت فيها مبادىء العمل الأخلاقى والدينى والبعد عما يتطلبه مجالس الشرب كان هذا المجلس أشبه بمجلس الذكر والعلم ، وكلاهما غذاء للروح والقلب .

وإذا كان الصوفية يمنعون الأحداث (صغار السن) من حضور مجالس السماع خوفا عليهم من اثارة الشهوة والانحلال والانحراف الاجتماعى ، فان هذا يتفق مع ما قاله أفلاطون (من أن مذاهبنا التربوية الحديثة .. تطالب بفرض نوع من الرقابة على ما يلقى على مسامع الطفل من أقاصيص حتى لا تنمو فى نفسه روح الخرافة اللا علمية أو احاسيس الرعب أو مبادىء الانحلال » (٤٢) .

مما سبق يتضح لنا أن السماع له تأثير على شخصية وتكوين الفرد ، فشخصية الفرد تتوقف على ما يتلقاه من مسامع وأحاديث خلال

---

(٤٠) السماع عند صوفية الاسلام : ص ١١٧ ، وانظر الامتاع بأحكام السماع قول القرطبى : ص ٢٩ وانظر قول ابن عربى فى مخطوطة شمس الطريقة ، بدون ترقيم ، رقم ٩٦ مجاميع ، ميكروفيلم ٣٠٢٥٥ ، ١٨ ورقة ، وانظر عبد الغنى النابلسى فى الحديقة الندية شرح الطريقة المحمدية : ص ٣٤١١ ، وانظر أيضا ابن عربى حياته ومذهبه : ص ١٧٦ ، ١٨٠ .

(٤١) الفتوحات الالهية فى شرح المباحث الأصلية : جـ ٢ ، ص ٢٨٨ ، وانظر قول عبد الله بن خبيق : جـ ٢ ، ص ٢٨٠ ، وانظر شرح تائية السلوك الى ملك الملوك : ص ٩٤ ، ٩٥ ، وانظر أيضا قواعد التصوف : ص ٨٦ .

(٤٢) أفلاطون : الجمهورية ، ترجمة ودراسة د. فؤاد زكريا ، دار الكتب ، ١٩٧٤ ، ص ١٢٢ .

مراحل نموه المختلفة ، وذلك يرجع الى معانى المسموع وتفهمه لهـا ؛ لذلك فالصوفية وضعت العديد من الآداب والمبادىء فى مجالس السماع وتطالب بفرض نوع من الرقابة على كل ما يلقى على مسامع المريـد ، حتى لا تنمو فى نفسه روح اللامبالاة بما يسمعه أو اللا علمية بذلك ، وهذا يتفق مع ما ذهب اليه فلاسفة اليونان مثل أفلاطون وغيره .

ويذهب الصوفية أيضاً الى أنه يجب على المريد عـدم الايضـاح والتحدث عن الحال الذى هو فيه حتى لا يحرمه الحق من نعمة الوصول الى ذلك الحال ، وهذا ما يوضحه أبو عمر الزجاجي (ت ٣٤٨ هـ) بقوله : « من تكلم على حال لم يصل اليه ، كان كلامه فتنة لمن يسمعه ، ودعوى تتولد فى قلبه ، وحرمه الله الوصول الى ذلك الحال وبلوغه » (٤٣) .

كما أن السماع عند الصوفية أداة للترفيـه عـن نفس المستمع واستجمام من تعب الوقت ؛ ذلك لأن الحياة اذ لم يكن فيها فترة ترفيـه من وقت لآخر لا تستمر هذه الحياة ، بل تكون حياة جافة ليس لها معنى ، وهذا ما يوضحه الكلاباذى بقـوله : « السـماع : استجمام من تعب الوقـت ، وتنفس لأربـاب الأحـوال واستحضـار الأسرار لـذوى الأشغال » (٤٤) .

وإذا كان الصوفية قد ربطوا بين السماع والوقت فان هذا يتفق مـع ما ذهب اليه ابن سينا من ضرورة وجود الزمان الـذى يحـدث فيه السمع ، وذلك عكس البصر الذى لا يحتاج الى الزمان : « وكـما أن البصر يستبق السمع فانه اذا اتفق أن فرغ انسان من بعد جسما ما على جسم ، رأيت الفرع قبل أن تسمع الصوت ، لأن الابصار ليس فى زمان ، والاستماع يحتاج الى أن يتأدى تمـوج الهواء الـكائن الى السـمع وذلك فى زمان » (٤٥) .

وكذلك يذهب الصوفية الى أن من بين الآداب أيضاً أن يكون السامع منتبها كل الانتباه الى ما يسمع من القوال مصغيا فى هـدوء وسكينـة حاضر القلب ، مطرق الرأس متماسكا الا اذا غلب عليـه الوجـد دون اختياره ، وأن يلزم الصمت والصدق وعدم الرياء فى حركاته ، وهـذا ما يوضحه الغزالى بقوله : « ليكن مجلسك هادئاً وحديثك منظومـا مرتبا ، واصغ الى الكلام الحسـن ممن حـدثك من غير اظهـار تعجب

---

(٤٣) طبقات الصوفية : ص ٤٣٢ .

(٤٤) التعرف لمذهب أهل التصوف : ص ١٩٠ .

(٤٥) أ. د / محمد عاطف العراقى : مذاهب فلاسفة المشرق ، ص ١٢٧ .

مفرط ، ولا تسأله اعادته ، واسكت عند المضاحك والحكايات ، ولا تحدث عن اعجابك بولدك وشعرك وكلامك وتصنيفك وسائر ما يخصك » (٤٦) .

ولا ريب أن من جوز السماع من الصوفية يجمعون على حضور القلب فى السماع وعدم الغفلة والانشغال بأى شاغل من داخل نفسه أو من الخارج ، بل يجب عليه اليقظة وحضور القلب فى السماع ، وحضور القلب هو التفهم لمعانى المسموع والعمل به ، وهذا ما يوضحه ابن عربى بقوله : « ان السمع لا يحضر الا مع الحضور أعنى حضور القلب ، قال الله تعالى :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٤٧) (٤٨)

ان السماع فى حد ذاته ليس من الأمور الضرورية عند الصوفية ، اذا لم يلزم هذا السماع عمل وطاعة وانابة ، فالسماع بدون تحقيق وتنفيذ لما يسمع من أحاديث مجالس علم وحكمة مثل مجهود يبذل بدون فائدة من هذا المجهود ، فكذلك السماع الصحيح يصبح صالحا عندما يحقق ويجيب كل ما يسمع ، ولهذا شمل الكتاب المقدس العديد من الآيات التى تربط بين السمع والطاعة ، اذ انه لا يمكن الطاعة لأوامر الحق تعالى ونواهيه بدون السمع والمعرفة بها ، وكذلك لا يصبح السماع له قيمة بدون الطاعة والعمل والانابة ، وهذا ما تشمله العديد من الآيات الكريمة ، اذ يقول الحق تعالى :

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ
وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٤٩)

---

(٤٦) بداية الهداية : ص ٤٦ ، وانظر قول السلمى فى الفتوحات الالهية : ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

(٤٧) سورة ق : آية (٢٧) .

(٤٨) مواقع النجوم : ص ٦٧ .

(٤٩) سورة الأنعام : آية (٣٦) .

ويقول الحق مخاطباً الكافرين :

مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٥٠)

ويقول أيضا

وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ

وكذلك العديد من الآيات الكريمة ٠ (٥١)

وإذا كان الصوفية ينصحون المريد بحسن الاستماع فانهم ذهبوا أيضا الى أن ترك السماع وعدم العمل بما يسمع من باب الجهل ، أما العلم فينشأ ويعرف من خلال السمع والمشاهدة ، أى أن الصوفية قد جعلوا السمع خطوة من خطوات المنهج العلمى السليم ، كما ذهبوا أيضا الى أن السمع أداة من أدوات التعلم والعمل بما يسمع على أساس منهج علمى سليم ، فالسماع والعلم وجهان لعملة واحدة ، فلا يمكن الاستغناء بأحدهما عن الآخر ، اذ لا يصح السماع بدون العلم بما يسمع والمعرفة به ، وكذلك لا يمكن معرفة المعلومات بدون السماع ، وهذا ما توضحه العديد من الأقوال الصوفية ، اذ ينصح الأوزاعى مريده بقوله : « فلا تجهلن ، قال : وكيف أجهل ؟ قال : تسمع ولا تعمل بما تسمع (٥٢) ويقول أيضا فى نفس المعنى السابق الحارث المحاسبى (ت ٢٤٣ هـ) : « اذا لم تسمع نداء الله فكيف تجيب دعاءه ومن استغنى بشىء دون الله جهل قدره » (٥٣) ٠

---

(٥٠) سورة النساء : آية (٤٦) ٠

(٥١) سورة المائدة ٠ آية (٧) ٠

(٥٢) التصوف الاسلامى فى الآداب والأخلاق : جـ ٢ ، ص ١٢٠ ٠

(٥٣) الكواكب الدرية : جـ ١ ، ص ٢١٩ ، وانظر د٠ / عبد الحليم محمود : أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبى ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٧٣ م ، ص ٧ ، وانظر د٠ عبد الحليم محمود : التصوف الاسلامى شخصيات ونصوص ، دار الشروق للطباعة ، ص ٩ ، وانظر المحاسبى : المسائل فى أعمال القلوب والجوارح والمكاسب والعقل ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، مطبعة عالم الكتب ، ١٩٦٩ م الطبعة الأولى ، ص ٦٦ ٠

كما يذهب الصوفية الى أن سماع الحكمة ومجالس العلم فيه كمال المريد من الناحية الأخلاقية ، أما اذا ترك هـذا السماع فهو منافق لا يتصف بالكمال الأخلاقى الذى هو غاية الحياة الصوفية ، فالهداية الى الطريق المستقيم فيما يرى الصوفية من باب العلم والطاعة لما يسمع ، اذ يقول ابن أبى سفيان : « من سمع بأذنه حكى ، ومن سمع بقلبه وعى ، ومن عمل بما يسمع هدى واهتدى » (٥٤) .

هكذا ذهب الصوفية الى أن سماع الكمل من القوم هو السماع الربانى ، الذى يلتزم فيه أصحابه بالصمت والاصغاء بالاضافة الى السرية فى السماع وعدم الافشاء لما يورد عليهم من واردات وبوارق إلهية ، وهذا ما يوضحه قول أبى عبد الله الصبيحى : « السماع بالتصريح جفاء ، والسماع بالاشارة تكلف ، وألطف السماع ما يشكل الا على مستمعه » (٥٥) .

لقد أوضح الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازانى أن الصوفية استخدموا الرمزية فى التعبير عن معانى المسموع المعبر عنها فى صورة اشتغال القلب به فهذا مباح ، وهذا ما يوضحه ابن عجيبة الحسنى حركات أو اهتزازات ، وهذه الرموز تبدد الشهوة وتوقظ مشاعر السامعين بمعنى الكلمات المسموعة ولا يكون ذلك الا لأهل الذوق والاحساس المرهف ، وهذا ما يؤكده بقوله : « ولا ينبغى النظر الى اصطلاحات الصوفية أو رموزهم على أنها مجرد الفاظ ، بل هى تدل على المعانى التى وضعت لها فى حالة حركية ، وتصور اتجاه الانفعالات والأفكار التى تعتلج بها نفس المتصوف تصويرا حيا ، فهى بمثابة أدوات توقظ مشاعر سامعيها بمعنى الكلمة بشرط أن يكونوا من أهل الذوق » (٥٦) .

كما يوضح الصوفية أنه لا يصح للمريد أن يلهى أو يبتسم فى السماع ، فمن يسمع لأجل التذاذ فسماعه هذا يشغله عن القيام بالعبادة ولا يؤدى به الى الوجد ، أى أن التلاهى من سوء الأدب فى السماع ، أما اذا كان هذا التلاهى والتبسم من أجل الترويح عن النفس فقط وعدم اشتغال القلب به فهذا مباح ، وهذا ما يوضحه ابن عجيبه الحسنى بقوله : « وأما التبسم فيه فان فيه اساءة الأدب فان غلبه خرج والا أخرج

---

(٥٤) طبقات الصوفية : ص ٤٢١ ، وانظر قول أبى على بن الكاتب نفس المرجع ص ٣٨٧ .

(٥٥) طبقات الصوفية : ص ٣٢٩ .

(٥٦) مدخل الى التصوف الاسلامى : ص ١٣٩ .

وزجر ، قال السالمى رحمه الله « ولا يحضر مجلس السماع من يتبسم أو يتلاهى » (٥٧) .

هكذا وضع الصوفية كثيراً من الآداب التى لا بد للمريد من الالتزام بها ، وكذلك آداب خاصة بزمن ووقت مجلس السماع ، فانهم اشترطوا أيضاً بعض الآداب الخاصة بالقوال ؛ منها أن يكون حسن الصوت ، وذلك لأن الروح لا تستلذ الا بسماع الصوت الطيب ، لذلك ذم الحق تعالى الصوت القبيح والصوت المرتفع وشبهه بصوت الحمير لما فيه من خشونة وازعاج وعدم استلذاذ الأذن به ، كما أنهم اشترطوا أيضاً أن يكون القوال جميل الوجه والصوت وما يقوله من الأشعار جميل كذلك ، وذلك من أجل الترويح عن قلوبهم ، لأن القلوب تعشق وتحب كل ما هو حسن جميل ، وهذا ما يوضحه قول رزوبهان البقلى فى كتابه الأنوار فى كشف الأسرار : « انه ينبغى أن يكون القوال (أى المغنى) جميل الطلعة ، لأن العارفين يحتاجون لترويح القلوب فى مجلس السماع الى ثلاثة أشياء : الروائح الطيبة ، والوجه الصبيح ، والصوت المليح »(٥٨)، ويقول فى نفس المعنى أيضاً ابن القيم : « انهم جعلوا السماع مباحاً ، يكون مستلذا طيباً تلذه النفوس وتستروح اليه ، وأن الطفل يسكن الى الصوت الطيب والجمل ينسى تعب السير ، وبأن الله ذم الصوت القبيح فقال تعالى :

﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾

(٥٩) (٦٠)

إذن فتأثر النفس الطيبة باللحن والصوت الجميل طبيعة فى الانسان الكامل ، لا ينكرها انسان قط ، ألا ترى أنه سوف يكون من متع الجنة أن يستمع أهلوها لصوت الرحمن عز وجل وكيف اختار رسول الله (بلال) للأذان وكيف أنه ﷺ أقام منبراً لحسان بن ثابت فى المسجد ينشد الشعر عليه .

---

(٥٧) الفتوحات الالهية : جـ ٢ : ص ٢٨٠ ، وانظر مخطوط آداب المريدين : ص ٤٩ .

(٥٨) تاريخ التصوف فى الاسلام : ص ٥٦٧ .

(٥٩) سورة لقمان : آية (١٩) .

(٦٠) مدارج السالكين : جـ ١ ، ص ٢٧٦ ، وانظر الرسالة القشيرية فى علم التصوف : ص ٢٦٣ ، وانظر اللمع ص ٢٣٩ ، ص ٣٤٠ ، وانظر قول السبكى (تاج الدين أبى نصر عبد الوهاب) : معيد النعم مبيد النقم ، مطبعة ليدن ، ١٩٠٨م ، ص ١٥٧ .

وإذا كان الصوفية اشترطوا للسماع العديد من الآداب الخاصة بسلوك المريد وقت السماع ، فانهم اشترطوا أيضاً عدم الصياح والبكاء طالما أن المريد (الصوفى) قادر على ضبط نفسه ، وهذا لا يعنى أن البكاء والزعق وما سواهما غير مباح فى السماع ، وانما يعنى عدم المراءاة والرياء حتى لا يخرج عن حدود السماع ، « وحكى أن شاباً كان يصحب الجنيد وكلما سمع شيئاً زعق وتغير فقال له الجنيد أن ظهر منك شيء بعد هذا فلا تصحبنى فكان بعد ذلك يضبط نفسه » (٦١) .

لقد ذهب الصوفية الى أن تمزيق الخرقة اذا لم يكن نتيجة لوارد قوى كان ذلك ازهاقا للأموال واضاعتها فى الباطل ، « ولهذا قال ابراهيم المارستانى عندما سئل عن الحركة فى السماع وتخريق الثياب وتمزيقه : بلغنى أن موسى عليه السلام ، قال : قل له : مزق لى قلبك ولا تمزق ثيابك » (٦٢) .

كذلك اشترط الصوفية بعض الشروط الخاصة بطرح الخرقة أو تمزيقها وقت السماع، وعما اذا كان من حق القوال أو الجماعة فى استرداد هذه الخرقة أو تقسيمها بينهم ، وهذا ما يوضحه السهروردى بقوله : « وأما الخرق التى تقع فى السماع فما كان منها على طريق مساعدة فهى للجماعة وما كان منها لقول قوال وانشاد ومنشد .. فقد اختلفت أقاويل المشايخ فيه ، فذهب بعضهم الى أنها للقوال .. وذهب بعضهم الى أنها للجماعة والقوال فيه كأحدهم لأن بركة حضور الجماعة لا تقتصر على قول القوال .. ومنهم من قال ان كان القوال أجيراً فليس له منها شيء ، وان كان متبرعاً فله ما يصلح له منها .. » (٦٣) .

ويجمل الغزالى العوارض والفضول التى تحرم السماع ، وتعتبر من سوء الأدب فى السماع من الناحية الأخلاقية فى خمسة عوارض ؛ منها عارض المسمع ، فيخشى على المريد الاستماع من المرأة أو الشباب والفتيات خوفاً من الفتنة واثارة الشهوة وعارض آلة السماع حيث أباح الصوفية سماع الدف والطبل وذلك كما كان متبعاً فى زمن الرسول ﷺ حيث استقبلوه بالترحاب والأشعار الموزونة ، كما لا يبيح الصوفية سماع المزامير والآلات الموسيقية خوفاً من اثارة الفتنة والشهوات ، أما العارض الثالث فهو الصوت الحسن الشجى الذى يطرب سامعيه

---

(٦١) آداب المريدين : ص ٤٧ ، وانظر اللمع : ص ٣٥٨ ، وانظر المرشد الأمين الى موعظة المؤمنين من احياء علوم الدين : ص ١١٣ ، ١١٤ .

(٦٢) اللمع : ص ٢٤٦ ، وانظر الرسالة القشيرية : ص ٢٦٨ ، وانظر قواعد التصوف : ص ٨٦ .

(٦٣) آداب المريدين : ص ٥٠ ، ٥١ .

بالمعانى الجميلة الطيبة ، والعارض الرابع هو نوعية الأشعار التى يقولها القوال وما تحمله من معان ، فان كانت تدعو الى الطاعة ومكارم الأخلاق ، كان ذلك جميلا عقلا وشرعا ، أما اذا كانت تدعو الى الفحش ومجالس الشراب فهذا غير مباح به . وأخيراً العارض الخامس ، وهو درجة المستمع فى السماع ، فان كان من العوام ولم يغلب عليه حب الشهوة كان السماع فى حقه محبوباً ، أى أن الغزالى صاحب نظرية متكاملة تعبر عن معظم آراء الصوفية فى السماع وآدابهم فيه ، وفى ذلك يقول معددا مجموعة هذه العوارض « عارض فى المستمع ، وعارض فى آلة السماع ، وعارض فى نظم الصوت ، وعارض فى نفس المستمع أو فى مواظبته ، وعارض فى كون الشخص من عوام الخلق » (٦٤) .

اذن فالصوفية أصحاب نظرية أخلاقية تدعو المريد الى الالتزام بها فى مجالسهم ، وهذه النظرية تجعل الفرد فى انسجام وتوافق مع باقى أفراد المجتمع ، وتحقق التعاون الاجتماعى ، ومن ثم يحاول الانسان أن يصل الى مرحلة الكمال ، ووصول الانسان الى مرحلة الكمال الأخلاقى لا يتم الا بتأهيل النفس لذلك من خلال حب الجمال الالهى .

رابعا : السماع والآداب الباطنة :

وبعد أن تعرضنا لآداب السلوك وما يجب على المريد الالتزام به خلال قيامه فى مجالس السماع ، كان لابد لنا من أن نتعرض لأهمية الفهم بالنسبة للمسموع ، وادراك المستمع له ؛ اذ انه لا يمكن التحلى بمكارم الأخلاق والسمع والطاعة والعمل بما يسمع بدون فهم ومعرفة المعنى الحقيقى للمسموع .

ان السامعين يختلفون فى السماع حسب اختلاف أحوالهم النفسية ودرجة فهمهم للمسموع ودرجة قربهم من الحق تعالى ، وهذا ما يؤكده ابن القيم بقوله « فهذا السماع أساس الأيمان الذى عليه بناؤه وهو على ثلاثة أنواع ، سماع ادراك بحاسة الأذن ، وسماع فهم وعقل ، وسماع فهم واجابة وقبول ، والثلاثة فى القرآن » (٦٥) .

ويذهب الغزالى الى ما ذهب اليه ابن القيم من اختلاف الناس فى درجة الفهم للمسموع بقوله : « الفهم ، وهو يختلف باختلاف أحوال

---

(٦٤) قطع النزاع وكشف القناع عن دليل جواز السماع : ص ٢٠ ، ٢١ ، وانظر قول ابن سلام الأشبيلى فى الذخائر والاعلاق فى آداب النفوس ومكارم الأخلاق ، ص ٧٨ .

(٦٥) مدارج السالكين : ج ١ ، ص ٢٧٣ .

المستمع ؛ وللمستمع أربعة أحوال : أحداهما : أن يكون سماعا بمجــرد الطبع أى لاحظ له فى السماع الا باستلذاذ الألحان والنغمات .. اذ الابل شريكة له فيه ، الحالة الثانية أن يسمع بفهم ... الحـــالة الثالثة : سماع المريدين لا سيما المبتدئين ·· الحالة الرابعة سماع من جاوز الأحوال والمقامات فعزب عن فهم ما سوى الله تعالى .. » (٦٦) .

مما سبق يتضح لنا أن السامع بربه فى غاية الدرجات ، ذلك لأن سماع الكمل بالعقل والفهم ، أما سماع أرباب الأحوال بالنفس والشهوات والهوى ، فالسماع رسول الايمان الى الحق وداعيه ومعلمه ؛ ولذا يستلزم الفهم للمسموع وتدبره .

وكذلك يورد الصوفية العديد من القصص والأقاويل حول تفاوت درجة الفهم للمستمعين حتى لو كان المسموع واحدا « ويكفيك فى هــذا أن ثلاثة سمعوا منادياً يقول يا ســعتر برى ، ففهم كل منهم الله مخاطبــة لخوطب بها فى سره ،

سمع الواحد سع ترى برى
وسمع الآخر الساعة تر برى
وسمع الثالث ما أوسع برى

فالمسموع واحد ، واختلفت أفهام الســـامعين ... ، فأما الـــذى سمع : اسع ترى برى فمريد دل على النهوض الى الله بالأعمال ليستقبل الطريق بالحد ، فقيل له : اسع الينا بصدق المعاملة تر برنا بوجــود المواصلة ، وأما الآخر ، فكان سالكاً الى الله طاولته الأوقات فخاف أن تفوته الوصلة فقيل له ، ترويحاً على قلبه لما أحرقته نار الشغف الى الساعة ترى برى ، وأما الثالث ، فعارف كشف له عن وســع الكلام فخوطب من حيث اشهد فسمع ما أوسع برى » (٦٧) .

ويؤكد الصوفية على أن الغفلة هى عدم الفهم ويقظة القلب وتفهمه لما يلقى عليه من الأمور ، واذا ازدادت غفلة القلب عمى بها عن الفهم ، كما أنه لكى يتحقق الفهم الحقيقى للمسموع لا بد للمريد من الاعــراض والغفلة عن الأهواء والشهوات ، وهذا ما يوضحه ابن قيم بقــوله : « وأما سماع الفهم فهو المنفى عن أهل الاعراض والغفلة بقوله تعالى :

---

(٦٦) احياء علوم الدين : جـ ٢ ، ص ٣٦٧ : ٣٧١ ، وانظر قول القشيرى فى : لطائف الاشارات ، جـ ٣ ، ص ٩٧ ، ٢٢١ ، وانظر جـ ١ ، ص ١٣٠ .

(٦٧) د. عبد الحليم محمود : العارف بالله ابو العباس المرسى ، دار الشعب ، ١٩٧٥ ، وانظر اللمع : ص ٣٦٢ .

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ

(٦٩)

ويقول أيضاً القشيرى فى نفس المعنى السابق : « فان من سمع بالحق سمع كل ما يقال عن الحق من كل من يقول الحق ، فيحصل له الفهم لما يسمعه لأنه اذا كان من أهـــل الحقائق يكون سمعه من الله وبالله وفى الله » (٧٠) .

وكذلك قول بعض العلماء » كل علم كثر على المستمع ولم يطاوعه الفهم ازداد القلب به عمى ، وانما ينفع سمع الأذان اذا قوى فهم القلوب فى الأبدان » (٧١) .

فالفهم إذن أمر ضرورى فى يقظة القلب وعدم الغـــفلة ، ولا يكون للسمع أى فائدة للقلب ما لم يصحبه فهم للمعنى المســـموع ، والفهـــم والمعرفة يكون للسماع الحـــق من الحـــق تعالى البعيـــد عن الغفـــلة والاعراض ، فالفهم للمسموع يكشف الأسرار والمعـــارف الالهيـــة التى لا يستطيع أن يعرفها من هم فى غفلة عن المسموع ، ومن ثم يرفع الحجاب بين الروح وبين هذه الأسرار فيتمتع باللذة الروحية والاطراب ، وان من لا يفهم المعنى ويستلذ به انما هو مثل البراغيث تأكل وترقص دون أن تدرك المعنى ، وهذا ما يوضحه قول الفاكهى : « انما هم مثل البراغيث يأكلون ويرقصون » (٧٢) .

وإذا كان الصوفية يشترطون للسماع العديد من الآداب فان الفهـــم أيضاً بالاضافة الى أنه أمر ضرورى ومهم للسماع فانه يعتبر من أهم آداب السلوك عندهم ، فالسماع بداية والفهم مرحلة تالية للســـماع والعمل به مرحلة تلى الفهم ، وهذا ما يوضحه الشعرانى بقوله : « فالأول فى الحديث السماع ثم الحفظ ثم الفهم ثم العمل » (٧٣) ، وكذلك قـــول ابن عربى : « وآداب السمع أن تسمع حديثا سماع مستفهم » (٧٤) .

---

(٦٨) سورة النمل : اية (٨٠) .
(٦٩) ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين ، جـ ١ ، ص ٢٧٣ .
(٧٠) لطائف الاشارات : جـ ٦ ، ص ١٧٠ .
(٧١) ادب الدنيا والدين : ص ٦٦ .
(٧٢) الامتاع بأحكام السماع : ص ٦٤ .
(٧٣) الكشف والتبيين هامش على تنبيه المغتربين : ص ٣٣ .
(٧٤) شمس الطريق : بدون ترقيم .

لعله قد تبين الآن من خلال حديثنا عن السماع والترقى الأخلاقى وآداب السلوك أنه قد اكتملت عناصر النظرية الأخلاقية فى السماع من خلال طهر النفس ونقائها من الأدناس والأهواء والفضول والتزامها بالأخلاق الكريمة من صدق وحسن الظن واخلاص النية ، كما عرفنا أيضاً كيف أن الصوفية اتخذوا من الوجد وسيلة عملية لترقيق القلوب وطهارتها، وكيف تعقد الصوفية مجالس السماع ، وانهم يتفاوتون فى درجة التأثر بالمسموع ، مما يؤدى الى أختلاف درجات المريدين فى السماع وفهمهم للمسموع ، وذلك يتم من خلال الالتزام بالعديد من الآداب والواجبات ٠

الفصل الرابع

صلة السماع بالمقامات والأحوال

ـ تمهيد :

أولا : السماع والمقامات :

[١] السماع ومقام التوبة •

[٢] السماع ومقام الورع •

[٣] السماع ومقام الزهد •

[٤] السماع ومقام الفقر •

[٥] السماع ومقام الشكر •

[٦] السماع ومقام التوكل •

ثانيا : السماع والأحوال :

[١] السماع وحال الذكر •

[٢] السماع وحال يقين القلب وحضوره •

[٣] السماع وحال الأنس •

[٤] السماع وحال الخوف •

[٥] السماع وحال الاستمرارية •

[٦] السماع وحال الوصول •

[٧] السماع وحال الثبات والتمكين •

[٨] السماع والمحبة الالهية •

[٩] السماع وحال الفناء والبقاء •

تمهيـــــد .

بعد أن تحدثنا فى الفصل السابق عن السماع من الناحية الأخلاقيـــة وكيف أن المريد لا بد له من الالتزام بالعديد من الآداب فى مجالس السماع ، من حسن الظن بالمسموع واخلاص النية فى الســـماع وتـــرك التكـــلف والفضول وغير ذلك من الآداب فسنحاول أن نوضح فى هذا الفصـــل ارتباط السماع بالمقامات والأحوال .

والمقامات عند الصوفية هى مراحل الطريق الى الله تعالى ، وهى ما يرسخ للسالك من أحوال السلوك نتيجة مجاهداته المختلفة فيقـــال مثلا أن السالك متحقق بمقام التوبة ، أى التوبة عن سماع المعـــاصى وكل ما يحث على عدم طاعة الحق تعالى ، ويتدرج السالك فى مقامات السلوك مجاهداً نفسه حتى يستوفى جميع المقامات ، وقد اتفقت الصوفية على أن السالك لا يمكن أن يتحقق فى مقام من المقامات الا اذا كان مشتغلا بالرياضة له ، وهو بهذا يكون كسباً له ، ومن بين هذه المقامات مقام ــ التوبة ــ الورع ــ الزهد ــ الفقر ــ الشكر ــ التوكل ، أما الأحوال مثل الذكر ــ يقين القلب وحضوره ــ الأنس ــ الخوف ــ الوصول ــ الثبات والتمكين ــ المحبة والشوق ــ الفناء والبقاء وغير ذلك .

ولهذا فقد جعل بعض الصوفية السماع هو الوقت الذى لا يضعـــه المريد فى الباطل ، وانما يسمع ويحقق فيه ما يسمعه بحيث لا يعارض آداب الكتاب والسنة ، وذلك ما يؤكده قول أبى على الدقاق حين سئل عن السماع فقال : « السماع هو الوقت فمن لا سماع له ، لا سـمع له ، ومن لا سمع له فلا دين له ، لأن الله تعالى قال :

﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ (١)

وقال ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٢)

فالسماع سفير من الحق ورسول من الحق ، يحمل أهل الحق بالحق الى الحق فمن أصغى اليه بحق تحقق ، ومن أصغى اليه بطبع تزندق » (٣) .

---

(١) سورة الشعراء : آية (٢١٢) .
(٢) سورة الملك : آية (١٠) .
(٣) أسرار التوحيد : ص ٩٨ .

أولا : الســـماع والمقامات :

نجد أن فكرتى المقام والحال مرتبطتان بالسماع فى جميع الأحوال : « والمقام معناه مقام العبد بين يدى الله عز وجل فيما يقــام فيه مــن المجاهدات والرياضات والعبادات ، وشرطه أن لا يرتقى من مقام الى مقام ما لم يستوف أحكام ذلك المقام » (٤) .

[١] الســماع ومقــام التوبة .

ولما كانت التوبة فى مقامات الطريق هى المقام الأول ونقطة البدء فى السير والسلوك رأينا من المناسب أن نتكلم فى شرحها وعلاقتها بالسماع، والتوبة هى الندم على ارتكاب الذنوب وصون الجوارح عن الخوض فى الباطل ، ومن ذلك صون السمع عن سماع الباطل والتجافى عن سماع الشهوة واخراج المظلمة وترك سماع الغيبة والنميمة .

فالتوبة إذن هى الرجوع عن الآثام الى الطاعة للحق تعالى ، وتوبة العوام هى عن سماع الذنوب والمعاصى ، أما توبة الخواص هى عدم الغفلة واليقظة والذكر والسماع الدائم لأوامر الحق تعالى ونواهيه ، وهذا ما يوضحه قول ذى النون المصرى : « وتوبة السمع صونه عــن سماع الأباطيل » (٥) .

والتوبة من الخصال الفاضلة التى تعمل على صفــاء النفس مــن الأخطاء والمعاصى ، والتوبة ذات قيمة أخلاقية هامة فى حياة كل فرد ، اذ تجعله يتحلى بالأخلاق الفاضلة بعد الندم والتوبة عــن الأفعــال الرذيلة ، وبالتوبة يتخلى العبد عن كثير من السلوك السيىء مثل سوء الظن بالمسموع والغيبة والنميمة والبغضــاء ، والتكلف فى الســماع ، والسماع لا يتم الا بالتخلى عن معاصى النفس وما يعكر صفوها ولا يتحقق ذلك الا عن طريق التوبة ، والسماع هو أحد أسباب التوبة ، فقــد يسمع المريد آية من آيات الذكر الحكيم أو بيتا من الشــعر أو الحكمــة أو موعظة توقظ قلبه الى الطريق المستقيم فتجعله يتوب عن المعاصى والشهوات ، وهذا ما حدث للفضيل بن عياض (حينما كان الفضيــل شاطراً يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس ، وكان سبب توبته أنــه عشق جارية فبينما هو يرتقى الجدران اليها ، سمــع تاليــاً يتلو :

---

(٤) معجم المصطلحات الصوفية : ص ٢٤٨ ، وانظر اللمع : ص ٦٥ .

(٥) تاريخ الصوفية فى الاسلام : ص ٣٠٧ .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٦) .

فقال : يارب قد آن فرجع ، فأواه الليل الى دربه .. فتاب ، الفضيل وأمنهم وجاور الحرم حتى مات » (٧) .

والتوبة والندم على الذنوب من أهم الأقسام الثلاثة فى السماع ، إذ أن الناس فى السماع ثلاثة : تائب ، وصادق فى سماعه ، ومستقيم ، وهذا ما يوضحه قول ابن عطاء الله السكندرى « أهل السماع ثلاثة تائب وصادق ومستقيم » (٨) .

فالتوبة من الذنوب فى السماع لا تكون سليمة اذا لم يكن صاحبها صادقاً فى توبته مستقيما فيما يسمع بعيداً عن العودة الى المعاصى والمخالفات ، كما يذهب الصوفية — أيضا — الى ان مجالس الحكمة توقظ القلب وتبعده عن ارتكاب المعاصى من خلال التذكر ليوم القيامة والحث على الطاعات والعبادات وهذا ما يوضحه ابن عطاء الله السكندرى بقوله : « لا يفتك مجلس الحكمة ولو كنت على معصية فلا تقل ما الفائدة فى سماع المجلس ولا أقدر على ترك المعصية بل على الرامى أن يرمى فان لم يأخذ اليوم يأخذ غداً (٩) .

[٢] السماع ومقام الورع *

ويأتى بعد ذلك الحديث عن مقام الورع وارتباطه بالسماع ، فالورع من الأخلاق الحميدة التى يلتزم بها المريد فى حضوره مع الله وقت السماع ، وأساس الورع الزهد فى الدنيا وملذاتها ، والورع هو التخلص من مظالم الدنيا بحيث لا يكون لهذه الأشياء مكان فى القلب ،

---

(٦) سورة الحديد : آية (١٦) .

(٧) د. محمد جلال شرف : التصوف الاسلامى فى مدرسة بغداد ، دار المطبوعات العلمية بالاسكندرية ، ١٩٧٥ م ، ص ٨٦ ، وانظر الامام القشيرى ، سيرته ، آثاره مذهبه فى التصوف : ص ١٧٢ ، وانظر قول السهروردى فى عوارف المعارف : ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٨) ابن عجيبة : الفتوحات الالهية : جـ ٢ ، ص ٢٧٤ ، وانظر تهذيب مدارج السالكين ، ص ٢٣٨ .

(٩) تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس : ص ٤٣ .

وتطلب من الحق تعالى الا يشتت قلبك ببعده عنه ، وهذا ما يوضحه قول السهروردى البغدادى « سئل بعض المشايخ عن السماع فقال مستحب لأهل الحقائق مباح لأهل النسك والورع ، مكروه لأصحاب النفوس والحظوظ » (١٠) .

واذا كان للورع أهمية عظيمة فى السماع فان هذه الأهمية لا تكتمل الا بالزهد فى السماع ، وذلك لأن الزهد هو أساس كل الأحوال ، فالمريد الصادق لا بد من أن يزهد فى سماعه ، بمعنى أن يترك سماع مجالس الفساد والغناء ، لأن هذه المجالس تذهب وقاره وهيبته ، أما مجالس العلم والحكمة والموعظة التى حث عليها الشرع تزيده هيبة ووقاراً وعلماً ، وهذا ما يوضحه قول السهروردى : « كل قلب ملوث بحب الدنيا فسماعه سماع طلب وتكلف (١١) .

[٣] السماع ومقام الزهد .

كما يربط الصوفية بين السماع ومقام الزهد ، والزهاد فى السماع هم فى المرحلة الثانية من مراحل السماع ، أما المرحلة الأولى فهى للعوام والمبتدئين ، أما المرحلة الثالثة وهى أعلى مراحل السماع فهى للعارفين ، والزهد فى السماع مباح للمريدين نتيجة لقيام أنفسهم بالمجاهدات البدنية الشاقة وهذا ما يوضحه الجنيد حينما يقول : « الناس فى السماع على ثلاثة أضرب : العوام والزهاد والعارفون ، اما العوام فحرام عليهم لبقاء أنفسهم وأما الزهاد فيباح لهم لحصول مجاهدتهم وأما أصحابنا فيستحب لهم » (١٢) .

والزهد فى السماع لا يعنى الزهد فى كل شىء يسمعه وانما يتم فى بعض الأمور مثل الزهد فيما حرمه الله تعالى الى سماعه ، لذلك يجب على المريد أن يقهر نفسه بسماع مجالس الذكر والوعظ والحكمة وما يعود عليه بفائدة فى دينه ودنياه ، وهذا ما يوضحه قول السهروردى : « وآداب السماع أن لا يستمع الى الفحش والخنا والغيبة والنميمة وكل منكر كما قيل شعرا أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه كان به عن كل فاحشة ، بل يستمع الذكر والوعظ والحكمة وما يعود عليه بالفايده دينا ودنيا » (١٣) .

---

(١٠) مخطوط اداب المريدين : ص ٧ .

(١١) عوارف المعارف : ص ١٦١ .

(١٢) مخطوط فتح الأسماع فى شرح السماع ، ص ٧٥ ، وانظر مخطوط الامتاع فى أحكام السماع ، ص ٣١ .

(١٣) آداب المريدين : ص ٣٠ .

كما يوضح الصوفية أن العبد اذا زهد فيما يسمع ولم يعلق قلبه بالشهوات والأهواء ، فانه يتحقق له كل ما يريده وذلك بفضل من الله عز وجل ، أى أن الزهد هو أساس السماع ، ومن أقوى النصوص الدالة على الزهد فى السماع « حديث عبد الله بن عمر عندما سمع مزمار الراعى فوضع أصبعه فى أذنيه ، وناء عن الطريق وكان معه نافع ، فقال له هل تسمع شيئاً فقال لا ، فرفع أصبعيه من أذنيه وقال كنت مع رسول الله ﷺ فسمع مثل هذا فعل مثل هذا » (١٤) ، ولهذا قال عليه السلام لابن عمر أتسمع ولم يأمره بسد أذنيه أيضاً ، ولكن انما فعل ذلك عليه السلام زهداً فيما هو من مباح الدنيا ، كما كان ﷺ يترك لذيذ المأكولات والمشروبات المباحة ويتباعد عنها زهداً فيها لا حرمة لها ، والزهد فى السماع هو عدم سماع غير كلام الحق تعالى والزهد فيما سواه ، وتدبر وفهم معنى المسموع الحسى ، وهذا ما يؤكده قول عبد القادر الجيلانى « الزاهد لا يسكن الى غير ربه عز وجل ولا يسمع غيره ولا يعقل عن غيره ولا يسكن الى غير وعنده » (١٥) .

[٤] السماع ومقام الفقر .

كما يذهب الصوفية الى أن الفقر من أهم المقامات المرتبطة بالسماع أيضاً ، والفقر فى السماع هو أن يكون سماعه مستقيما وليس سماعاً من أجل كسب مادى أو جاه ، أى سماع فقر الى الحق تعالى ، والاستغناء به عن كل شىء سواه ، وبالفقر يعرف السامع عبوديته وربوبيته تعالى ، أى أن الفقر فى السماع هو الفقر عن سماع هوى النفس وهواجسها ، وهذا ما يوضحه : « الهجويرى عندما سأل أبا القاسم الجرجانى فى طوس : ما أقل ما ينبغى للفقر حتى يكون جديراً باسم الفقر ؟ قال : يبقى له ثلاث ، ولا أقل منها :

أولا : يجب أن يعرف كيف يخيط المرقعة خياطة مستقيمة .

ثانياً : يجب أن يعرف كيف يسمع الكلام سماعاً مستقيما .

ثالثاً : يجب أن يعرف كيف يضرب الأرض بقدم مستقيمة » (١٦) .

---

(١٤) سنن أبى داود : باب النهى عن الغناء ، جـ ٧ ، ص ٢٢٨ ، وانظر ابن ماجة : جـ ١ ، ص ٦١١ ، وانظر أيضا التصوف الاسلامى شخصيات ونصوص ، ص ٥٧ .

(١٥) الفتح الربانى والفيض الرحمانى : ص ١٨٠ .

(١٦) الهجويرى : كشف المحجوب ، دراسة وترجمة د. اسعاد عبد الهادى قنديل ، مراجعة د. أمين عبد المجيد بدوى ، اشراف محمد توفيق عويضة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٧٤ م ، ص ٢٤٦ ، وانظر أيضا تاج الدين زكريا القرشى : مخطوط تعريب نفحات الأنس من حضرات القدس – رقم ٩٧٩٥ . الرمز ح ، ميكروفيلم رقم ١٨٣٦٧ ، ص ٣٧٧ .

ويؤكد الصوفية أيضا على أنه يجب على الفقير في السماع اذا حضر مجلس السماع أن يلتزم السكون وعدم الحركة ، وأن يراعى آداب الشيخ ، وأن يستغنى بالله عز وجل فى سماعه ولا يستعين بغيره ، وهذا ما يؤكده عبد القادر الجيلانى بقوله : « واذا كان فى القوم شيخ حاضر فى السماع فالواجب على الفقير السكون ما أمكنه ومراعاة حشمة ذلك الشيخ .. ، ولا ينبغى للفقير أن يستعين بغيره فى حال السماع (١٧) .

والسامع الحق فيما يرى صوفية الاسلام يكون فقره وغناه بالحق عز وجل وليس بالأغيار والأسباب من مال أو جاه أو نفس ، أى يكون السامع فقيراً فى سماع الشهوات وما يثير المعاصى والذنوب ، غنى بسماع مجالس العلم والحكمة والموعظة وكل ما يثير فى نفس العبد الطاعة والخشية ، فهذا السماع ينزل الرحمة على المستمعين ، ذلك لأنهم لا يسمعون الا عن حق ويقين ولا يقولون الا عن وجد ناتج عن السماع ، وهذا ما يوضحه الجنيد بقوله : « تنزل الرحمة على الفقراء فى ثلاثة مواطن : السماع فانهم لا يسمعون الا عن حق ولا يقولون الا عن وجد وعند أكل الطعام فانهم لا ياكلون الا عن فاقة وعند مجاورة العلم فانهم لا يذكرون الا صفة الأولياء » (١٨) .

ويعلل الصوفية ما سبق بقولهم أن الفقير فى السماع اذا حصل له الفناء عن هوى الذات وتفهم معانى المسموع ، فالسماع فى حقه مطلوب لما فيه من زيادة الفناء ، ذلك لأن النفس اذا ماتت لا تميل الا الى الحضرة ولا تسمع الا منها ، وكذلك يبين لنا الصوفية أن السماع دواء شاف لضعفاء النفوس وأن الفقير اذا أحب السماع واستلذ به واستغنى به عن الحق وأصبح عادة عنده تشغله عن القيام بأوامر الحق تعالى ،

---

(١٧) الغنية لطالبى طريق الحق : ج ٢ ، ص ١٥٧ .

(١٨) الرسالة القشيرية فى علم التصوف : ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، وانظر اللمع : ص ٣٤٣ ، وانظر قوت القلوب : ج ٢ ، ص ١٢٢ أو ج ٣ ، ص ٩٠ ، وانظر مكاشفة القلوب المقرب الى حضرة علام الغيوب ، ص ١٧٩ ، وانظر عوارف المعارف : ص ١٧٦ ، وانظر الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٧٣ وانظر التعرف لمذهب أهل التصوف : ص ١٦١ ، وانظر القوصى (أحمد حنفى نصار) : مع التصوف الاسلامى معارج ونماذج ، دار وهدان للطباعة ١٩٩٢ م ، ص ٤٧ ، وانظر المنوفى (محمود أبو الفيض) : التصوف الاسلامى الخالص ، دار نهضة مصر ، ١٩٨٠ م ، ص ٧٦ ، وانظر تلبيس ابليس . ص ٢٣٩ ، وانظر الكواكب الدرية : ج ١ ، ص ٢١٥ ، وانظر قول أبى عثمان فى ايقاظ الهمم فى شرح الحكم : ج ١ ، ص ١٦٥ ، وانظر أيضا قول ابن عجيبة الحسنى فى الفتوحات الالهية : ج ٢ ، ص ٤٥٣ .

فان هذا الفقير يميل الى البطالة والرفاهية ، فى حين أن السماع الحق يتطلب من المريد المجاهدة فى السماع وهى ضد البطالة ، ومن لا يجاهد نفسه لا يشاهد نور الحق تعالى ولا يتم الوصول اليه ، وهذا ما يؤكده قول ابن عجيبة الحسنى : « السماع انما هو دواء ورخصة للضعفاء لتقوية حالهم فاذا حصل الشفاء استغنى عن الدواء ، فاذا رأيت الفقير يحب السماع ويميل اليه على الدوام فاعلم أن فيه بقية من البطالة ومن لا مجاهدة له لا مشاهدة له ومن لا مشاهدة له لا سير له ومن لا سير له لا وصول له » (١٩) .

ومما يراه الصوفية أيضاً أن السماع يقوم على صفاء الروح وتخليصها من كدرات النفس ، ذلك لأن الروح لا تقوى الا بضعف النفس ، ولا تظهر آثارها الا بخفاء آثار النفس ، ولهذا فان نهاية السماع لدى الصوفية هى الفناء عن سائر الأمور الخلقية ، والبقاء بعد ذلك بالصفات الربانية ، وهذا ما يؤكده أبو نصر السراج بقوله : « أهل السماع على ثلاث طبقات : فقوم يرجعون فى سماعهم الى مخاطبات الحق لهم فيما يسمعون ، وقوم يرجعون فيما يسمعون الى مخاطبات أحوالهم ومقامهم وأوقاتهم ، وهم الفقراء المجردون الذين قطعوا العلائق ولم تتلوث قلوبهم بمحبة الدنيا والجمع والمنع فهم يسمعون لطيبة قلوبهم ويليق بهم السماع فهم أقرب الناس الى السلامة وأسلمهم من الفتنة » (٢٠) .

كما يذهب الصوفية الى أن السماع هو غذاء الروح كما أن الطعام غذاء للأبدان ولكى يستطعم المريد هذا الغذاء مثل استطعام البدن للطعام ، لا بد لهذا المريد من الحاجة الى معرفة معانى المسموع والفقر اليه ، وهذا الغذاء لا يصلح لكل الناس ؛ ذلك لاختلاف أحوالهم ودرجة تفهمهم للمسموع ، وهذا ما يوضحه قول ابن عباد النفرى بقوله : « المستمعون موسومون بالفقر والحاجة الى معنى ما يستمعون اليه من المواعظ والحكم ، وهو قوت قلوبهم ، وغذاء أرواحهم ، كما أن المستطعمين والسؤال موسومون بالفقر والحاجة الى قوت أبدانهم ،

---

(١٩) الفتوحات الالهية : جـ ٢ ، ص ٢٧٧ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ .

(٢٠) عوارف المعارف : ص ١٦٠ ، وانظر مع التصوف الاسلامى معارج ونماذج ، ص ٤٦ .

وكما أن أقوات هؤلاء مختلفة فلا يصلح لواحد من هؤلاء ما يصلح للآخر من الأطعمة والأشربة لاختلاف طبائعهم » (٢١) .

[٥] السماع ومقام الشكر .

كذلك يربط الصوفية بين السماع ومقام الشكر ، والشكر هو الاعتراف بالنعم للمنعم والاقرار بالربوبية للحق تعالى وحده ، ومن هذا الشكر شكر الجوارح واستعمالها فى طاعة الحق تعالى ، ومن بين هذه الجوارح الأذن وشكرها يكون عن طريق حسن الاستماع وصرف السمع فى استماع الحكمة والموعظة ، فحاسة السمع نعمة من عند الحق تعالى قد من بها على عباده لذلك يجب الشكر والحفاظ عليها ، وهذا ما يوضحه صوفية الاسلام عندما يقول بشر الحافى : « من شكر الله بلسانه دون بقية أعضائه قل شكره لأن شكر البصر أن رأى خيراً وعاه أو شراً ستره وشكر السمع أن سمع خيراً حفظه أو شرا نسيه » (٢٢) .

لذلك يذهب الصوفية الى أنه يجب على المريد أن يكون بالحق تعالى فيما يسمع وفيما يبصر ، بمعنى أن لا يسمع حراما ، واذا سمع عيباً ستره ، وصرف السمع عن استماع اللهو والغناء وفحش الكلام ، وهذا من باب الشكر للحق تعالى ، وذلك على حد تعبير السبكى : « من شكر نعمة الأذنين أن لا تسمع حراما وأن تستر كل عيب تسمعه ، فان أنت تصدقت كل يوم بدرهمين شكراً لله تعالى على نعمة الأذنين وهتكت كل قبيح سمعته وأصغيت الى كل حرام وغيبة فلست من الشاكرين » (٢٣) .

ولكى يتحقق للمريد مقام الشكر للحق تعالى لا بد له من السمع والطاعة ، ذلك لأنه عن طريق السمع يستطيع أن يعرف النعم

---

(٢١) ابن عباد الرندى : غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العطائية ، تحقيق د. عبد الحليم محمود ، د. محمود بن الشريف ، دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٠ هـ - ١٩٧٠ م ، الطبعة الأولى ، ج ٢ ، ص ٥٠ .

(٢٢) تنبيه المغترين : ص ٨٧ ، وانظر غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العطائية : ج ١ ، ص ١٨٨ ، وانظر حسن رضوان : مطهرة النفوس وترويض القلوب ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢١ م ، ص ١١١ .

(٢٣) معيد النعم ومبيد النقم : ص ٢١ ، وانظر شرح تائية السلوك : ص ٤٧ ، وانظر أيضا الغنية لطالبى طريق الحق : ص ١٩٤ ، وانظر لطائف الأشارات : ج ٤ ، ص ٢٥٥ ، وانظر أيضا الرسالة القشيرية : ج ١ ، ص ١٢٩ .

والخيرات التى أنعم الله بها عليه ، وذلك من خلال الاستماع الى القرآن الكريم والأقوال الحسنة ، كما لا يجوز الشكر لغير الحق تعالى ، والشكر للحق تعالى يكون فى حالى السراء والضراء فى المنع والعطاء ، ولا يكون فى حال دون الآخر ، فالشكر على الضراء له الثواب العظيم ، كما أن هذا الشكر لا بد أن يقارنه الصبر فى العسر واليسر ، وهذا ما يوضحه عبد القادر الجيلانى (ت ٦٤٥ هـ) بقوله : « احفظوا نعمه بالشكر قابلوا أمره ونهيه بالسمع والطاعة ، قابلوا العسر بالصبر واليسر بالشكر » (٢٤) .

[٦] السماع ومقام التوكل :

لقد ربط الصوفية ايضا بين مقام السماع ومقام التوكل على الحق تعالى ، فالتوكل هو الاعتماد على الحق تعالى وحده مع الأخذ بالأسباب والأحداث دون الاعتماد عليها ، ولكى يتحقق للمريد التوكل السليم لا بد من عدم الانصات والاصغاء الى صاحب بدعة ، والتوكل الحقيقى هو الفناء عن هوى النفس وما تدعو اليه ، وهذا ما يوضحه سفيان الثورى بقوله : « من أصغى بسمعه الى صاحب بدعة وهو يعلم أنه صاحب بدعة خرج من عصمة الله ووكل الى نفسه » (٢٥) .

كما يذهب الصوفية الى أن التوكل الحق هو عدم الركون الى الخلق والانقياد لهم والاعتماد على حواسه الخمس فى التوكل ؛ ذلك لأن هذه الحواس هى مصدر الضرر والنفع للمريد ، وانما التوكل الحقيقى هو التوكل والاعتماد على الله عز وجل بقلوبهم مع صفاء النفس من أدناسها وأهوائها ، وهذا ما يؤكده الجيلانى بقوله « اعتمادك على كسبك وربحك وحولك وقوتك وسمعك وبصرك وبطشك آلهة رؤيتك للضر والنفع والعطاء والمنع من الخلق آلهة كثير من الخلق متكلون على هذه الأشياء بقلوبهم ويظهرون أنهم متكلون على الحق عز وجل قد صار ذكرهم للحق عز وجل عادة بألسنتهم لا بقلوبهم » (٢٦) .

مما سبق يتضح لنا أنه لكي يتمثل المريد السماع بالمعنى الصحيح لا بد له من التوبة من السماع السيىء والزهد فيه والفقر عنه والغنى بسماع الحق ، والشكر على عدم سماع السوء وستره وكذلك الاعتماد والتوكل على الحق تعالى وحده فى السماع .

---

(٢٤) الفتح الربانى والفيض الرحمانى ، ص ١٠ – ١١ .

(٢٥) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، جـ ٢ ، ص ٣٤ ، وانظر أيضا فاطمة فؤاد : مقام التوكل عند صوفية الاسلام ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد ، ١٩٩٣ م ، ص ١٥٩ .

(٢٦) الفتح الربانى والفيض الرحمانى : ص ٥٥ .

ثانيا : السماع والأحوال :

وإذا كان الصوفية قد ربطوا بين رياضة السماع والمقامات ، واعتبارهم المقامات مكاسب ، فانهم قد ربطوا أيضاً بين السماع والأحوال ، والحال عندهم « هو ما يرد على القلب من طرب أو حزن أو بسط أو قبض ، وقيل الأحوال هى المواهب الفائضة على العبد من ربه اما واردة عليه ميراث للعمل الصالح المذكر للنفس المصفى للقلب .. وقيل هو ما يحل بالقلوب أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار » (٢٧) .

ويذكر الصوفية العديد من الأحوال منها الذكر — اليقين — الأنس — الخوف — الاستمرارية — الوصول — الثبات والتمكين — المحبة والشوق — الفناء والبقاء وغير ذلك من الأحوال .

[أ] السماع وحال الذكر .

الذكر هو الأساس فى الطريق ، فلا يصل أحد الى الله تعالى الا بدوام ذكره ، والذكر عند الصوفية ثلاثة أنواع : ذكر باللسان ، وذكر بالقلب ، وذكر بالروح وهو الغاية القصوى ، وحقيقة الذكر أن تذكر الله تعالى وأنت ناس لكل شيء سواه ، وهذا ما يؤكده القشيرى بقوله : « فاذا فنى الذاكر فى ذكر اللسان انقطع عنه ذكر اللسان ، وعندئذ لا يجد العبد من نفسه شيئاً : لا من السمع ولا من البصر الا شيئاً ضعيفا ، ويصير كل ذلك بعدئذ الى القلب ، فيسمع من قلبه الذكر .. ، وعند هذه الحالة يتمنى أن يكون وحده فى مفازة » (٢٨) .

أى أن من سمع فظهرت عليه صفات نفسه وذكرته حظوظ الدنيا ، فالسماع عليه حرام ومن سمع فظهر له به ذكر ربه وتذكر به أفضل ما شوق الله اليه واعده لأوليائه فهو له ذكر من الأذكار ، فالقلب يتذكر ويتيقظ بسماع الحكمة والمواعظ ، وهذا ما يوضحه عبد القادر الجيلانى بقوله : « من كان ذاكرا الله عز وجل بقلبه فهو الذاكر ومن لم يذكره بقلبه فليس بذاكر اللسان غلام القلب وتبع له دوام على سماع المواعظ فان القلب اذا غاب عن المواعظ عمى » (٢٩) .

---

(٢٧) معجم المصطلحات الصوفية : ص ٧٣ ، وانظر التصوف الاسلامى الخاص ، ص ٩٨ .

(٢٨) القشيرى (عبد الكريم بن هوازن) : ترتيب السلوك فى طريق الله تعالى تحقيق د. ابراهيم بسيونى ، مطبعة التيسير ، ١٩٨٥ ، ص ٢٣ .

(٢٩) الفتح الربانى والفيض الرحمانى ، ص ٨٢ .

كما يربط عبد الكريم الجيلى بين السماع وأحوال التصوف ومقاماته ويبين لنا أقسام علوم الحقيقة وارتباطها بالسماع ، وعلوم الحقيقة هى العلوم التى تشتمل على العلاقة بين الحق والخلق وما يتعلق بالآخرة والحياة بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك من الأمور الدنيوية والآخروية وهذا ما يوضحه بقوله : « فمنهم من سماعه بحسب الأمور الواردة فى قسم النهايات وهى تسعة : المعرفة ، والفناء ، والبقاء ، والتحقيق ، والتلبيس ، والوجود ، والتجريد ، والجمع ، والتوحيد ، ومنهم من سماعه بحسب العلوم الواردة فى علم الحقيقة وهى على اقسام : القسم الأول علم النسبة أى بين الحق والخلق .. ، والثانى علم جمعية الانسان ، الثالث علم افراد الحق .. ، الرابع علوم الأكوان مما يتعلق بها من الملك والملكوت ، والخامس علم الأولياء ، فيما يتعلق بأمور السوابق وما كان فى الأزل ، السادس علوم الآخرة مما يتعلق بأمور اللواحق ، وما سيكون فى الأبد فى أحوال البرزخ والقيمة والجنة والنار .. ، فهذه اقسام تنحصر فيها جميع علوم الحقيقة » (٣٠) .

والذكر عند الصوفية وسيلة الى القرب من المذكور واستبدالا للغيبة والغفلة عنه بالحضور ، أى حضور القلب مع الحق تعالى فى سماع ما يذكر ، والذكر الحقيقى هو دوام الحضور والاستغراق فى شهود المذكور مع قطع العلائق أى الفناء عن ما سوى الحق تعالى وكذلك الفناء عن النفس أوقات السماع ، والبقاء بسماع ذكر الحق تعالى ، وهذا ما يوضحه قول السمرقندى : « ينبغى أن يقبل المستمع الى وجه المذكر ويسمع منه بصحيح القلب ولا يشتغل بشىء غيره لما روى عن النبى عليه السلام أنه قال : [من سمع مسألة وحديثا فعمل بذلك فانه حى ومنجى ومن سمع حديثا فلم يعلم فانه يهلك] (٣١) .

---

(٣٠) سهيلة عبد الباعث الترجمان : نظرية الانسان الكامل عند عبد الكريم الجيلى ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٨ م ، ص ٢٠٣ .

(هو عبد الكريم بن ابراهيم بن عبد الكريم بن خليفة .. ، البغدادى الأصل ، ومن الظواهر البارزة فى عصر الجيلى انتشار ظاهرة السماع الصوفى ومجالسه وحلقاته بمظاهره العديدة من الجذب والوجد والحركة البدنية ، انظر المناظر الالهية عبد الكريم الجيلى : دراسة وتحقيق د. نجاح محمود الغنيمى ، دار المنار عام ١٩٧٨ م . ص‌ص ١١ : ٣٤) .

(٣١) السمرقندى (نصر بن محمد بن ابراهيم) : بستان العارفين هامش على تنبيه الغافلين ، مكتبة الجمهورية المصرية ، بدون تاريخ طبع ، ص ١٨ .

فسماع مجالس الذكر يذهب عن القلب مخاوفه كلهـا وله تأثير عجيب فى حصول الأمن والطمأنينة ، اذ أنه يجب للمذكر أن يســاوى بين خوفه ورجائه ، فليس للخائف الذى قد اشتد خوفه أنفع من الذكر المقترن بالرجاء فى مجالس السماع ، فالمستمع لابد له من أن يســاوى بين خوفه ورجائه فلا يكثر من الخوف على حساب الرجـاء وأيضـا لا يكثر من الرجاء على حساب الخوف حتى يصبح خـوفه مساويـا لرجائه ، « وهذا ما يوضحه حبيب بن ثابت عندمـا قـال : وينبغى للمذكر أن يكون فى مجلسه الخوف والرجاء ولا يجعله كله خوفاً ولا كله رجاء لأنه نهى عن ذلك فان كان المذكر يحتاج الى تطـويل المجـلس فيستحب له أن يجعل فى خلال مجلسه كلاما يستظرفونه فان ذلـك يزيدهم نشاطا واقبالا على السماع » (٣٢) .

وإذا كان الصوفية قد ذهبوا الى أن الذكر أمر شرعى مفروض فما هو هذا الذكر ؟

هل هو الذكر المبنى على آداب الشرع دون مصاحبة لما يشغله عن الحق تعالى من أدوات اللهو والموسيقا والطرب ؟ أما اذا كـان معـه انشاد لبعض المعانى الرقيقة الرفيعة التى تثير النشاط والشوق الى الحق تعالى وتحرك الهمة اليه ، فقد عد أئمة الصوفية هذا من الأمور المباحة ، وهذا ما يوضحه قول أحمد الرفاعى « اذا دخلتم مجـالس الذكر ، فراقبوا المذكور واسمعوا بأذن واعيـة ، اذا ذكر الحادى أسماء الصالحين فالزموا أنفسكم اتباعهم لتكونوا معهم (المرء مـع من أحب) أو حبوا وعليكم التخلق بأخلاقهم » (٣٣) .

كما يذهب الصوفية أيضاً الى أنه إذا سمع المريد ما يذكره بالحق تعالى أو ما يحثه على التوبة من الذنوب والخوف والرجاء للحق تعالى والشوق الى لقائه كان هذا المسموع من الأمور الضرورية عند الصوفية، كما أن أهمية سماع الذكر عند الصوفية لا تقتصر على سماع بيت يحث على التوبة أو الخوف من الحق تعالى ، وانمـا تمتد الى التـدبير والتفكير فى قدرة الحق تعالى وتسبيحه ، وهذا ما ذكره السهروردى بقوله : « فالسامع من الشعر بيتاً يأخذ منه معنى يذكره ربه اما فرحاً ، أو حزنا أو انكسارا ، أو افتقارا ، كيف يقلب قلبه فى أنواع ذلك ذاكراً

---

(٣٢) بستان العارفين : ص ١٨ .

(٣٣) محمود مصطفى شحاته : أهمية الذكر عند الصوفية مؤيدا بالكتاب والسنة ، ابن تيمية ، ابن قيم الجوزية ، ١٤٠٢ هـ ــ ١٩٨٢ م ، ص ١٢٠ : ١٢٣ .

لربه ، ولو سمع صوت طائر طاب له ذلك الصوت وتفكر فى قدرة الله تعالى وتسويته حنجرة الطائر وتسخير خلقه .. ، فاذا سمع صوت آدمى وحضره مثل ذلك الفكر وأمتلأ باطنه ذاكراً وفكر فكيف ينكر ذلك » (٣٤) .

وإذا كان الصوفية الأوائل قد وضعوا العديد من الآداب لمجالس الذكر ، الا أن الطرق الصوفية الآن لم تعد تلتزم بتلك الآداب ، فقد تنقلب مجالس الذكر أحياناً الى مجالس فنية للغناء والطرب أو صياح وعويل وأصوات عالية وغير ذلك مما هو يبرأ منه الاسلام . وهذا ما يوضحه الامام المجدد ابن باديس من خلال نقده لطريقة الذكر ومجالس السماع عند بعض الصوفية : « ويأخذ ابن باديس على الصوفية انشغالهم الكلى بالذكر اللسانى فيأتون منه بالآلاف ، فيما يرددونه منه بأصواتهم ، وفاتهم جانب التفكير الذى هو أعظم أذكار القلب جميعها ، وما الذكر اللسانى الا احدى وسائله ومن ثم تشغلهم الوسيلة عن المقصود ، وليس ذلك هو ما كان عليه النبى ﷺ فقد كان دائم الفكر ، وفضلا عن هذا كله فان الاستغراق فى مجالس الذكر .. ، قد يقطعهم عن مجالس العلم .. ، كما يصف ابن باديس مجالسهم .. ، ولنشاهد أكبر مهزلة يبرأ منها الاسلام ، صياح وعويل من الدار ، وآذان وتكبير ، وصلاة على النبى ﷺ ، وسورة البقرة ويس وتبارك ، وجمهرة وتخريج وأحزاب قادرية ومدائح عيساوية وطيبية شاذلية وتيجانية » (٣٥) .

ويشرح لنا الأستاذ الدكتور أحمد الجزار لماذا هاجم ابن باديس الطرق الصوفية ووجه نقداً لطريقة الذكر فى مجالسهم بقوله : « ولا يعيب ابن باديس على الصوفية اشتغالهم بالذكر بما هو ذكر ، اذ العبد مأمور بذكر الله ، ولكنه يعيب عليهم اشتغالهم بالذكر بصيغ من صنعهم مما يخالف الأذكار الشرعية ، وهى عنده تستقى من القرآن أولا فقد أحتوى على أفضل الأذكار ، فوق أنه هو الذكر الحقيقى نفسه يضاف الى هذا ما ورد عن النبى ﷺ من الأذكار مما ينبغى أن تكون أذكارا للأخذين بسنته قولا وعملا » (٣٦) .

---

(٣٤) عوارف المعارف : ص ١٨١ ، وانظر بوارق الألماع فى تكفير من يحرم السماع ، بدون ترقيم صفحات .

(٣٥) د. احمد الجزار : الامام المجدد ابن باديس والتصوف ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٣٦) د. أحمد الجزار : الامام المجدد ابن باديس والتصوف ، ص ٩٣ ، ٩٤ .

وإذا كان ابن باديس قد انتقد مجالس الذكر والسماع لما يقام بها من أمور تخالف الشرع ، فان الدكتور زكى مبارك يقدم لنا الشرح والوصف التحليلى لما يدور داخل جلسات الذكر ، اذ هى مجالس للذكر الحق فى الظاهر ، لكنها فى الحقيقة هى مجالس طرب وغناء ، ومن هذه المجالس تخرج العديد من المغنين ، وهذا ما يوضحه بقوله : « وقد لاحظت أن مجالس الصوفية كانت تنقلب أحيانا الى مجالس فنية فهى مجالس تعقد ظاهرا لذكر الله ، ولكن الغرض منها الغناء ، فقد كان فى الحسين منزل تقام فيه حضرة كل ليلة ثلاثاء ، وكان ذكر الله فى الله فى الصورة الشكلية يتولاه طائفة من العجزة عجزة الدراويش ، أما نظام المجلس فيقوم على فن الشيخ حسن الحويحى ، وكان منشداً حلو الصوت عذب الأداء .. » (٣٧) .

اننا نسمى مثل هذه المجالس الصوفية مجالس شذوذ ، ذلك لأنهم لن يلتزموا بآداب مجالس السماع والذكر من خلال سماع الأبيات التى تثير الشهوة وتدعو الى الخروج عن حدود الشرع وحدود آداب السماع الحق ، فمثل هذه المجالس كانت تشبه بالمدارس لتخريج المغنيين والمولدين والدراويش ، أما اذا كانت هذه المجالس تدعو الى سماع الأبيات والأشعار التى تحث على الطاعة والعمل الصالح ، فانها تكون مجالس صالحة وملتزمة بآداب الصوفية فى ذلك المجلس .

ويذهب الصوفية الى أن الجهر بالذكر لا تنكره الا نفس جاهلة غبية ، ذلك لأن للذكر أهمية عظيمة للسامعين من حيث ايقاظ قلب الذاكر وجمع همته وسمعه الى معانى المسموع ويزيده نشاطا ويبعده عن الغفلة ، وذلك على حد تعبير أبى بكر محد البنانى : « حقيقة ما عليه الصوفية لا ينكرها الا كل نفس جاهلة غبية وأما حلق الذكر والجهر به وانشاد القصائد فقد جاء فى الحديث ما اقتضى طلب الجهر

---

(٣٧) التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق : جـ ٢ ، ص ١٦٨ ، ٢٦٩ .

(وفى بداية هذا القرن كانت مجالس الذكر الصوفى بداية لتخريج العديد من المغنيين والمنشدين من خلال التردد على هذه المجالس ... ، وهذا ما يوضحه د. زكى مبارك بقوله : ان مجالس الذكر كانت مدرسة لتخريج المغنيين ففيها ظهرت تباشير النبوغ للمطربين عبد الحامولى ، ومحمد عثمان وسلامة حجازى ويوسف المنيلاوى وسيد درويش ، وفى القرى المصرية فئات من قراء الموالد هم فى الأصل من اتباع الصوفية ، انظر زكى مبارك : التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق : جـ ٢ ، ص ٢٧٠ .

به نحو قوله فى الحديث القدسى « وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه » رواه البخارى ومسلم والترمذى .. ، وان ذلك يتعدى فائدته الى السامعين ويوقظ قلب الذاكر ويجمع همته الى الذكر ويصرف سمعه اليه ويطرد النوم ويزيد النشاط » (٣٨) .

فالذكر اذن وسيلة لتطهير النفس وتنقية الباطن من الآفات السيئة والخروج من ميدان الغفلة ، وقيمة الذكر للسامع أن له فائدتين من الناحية الأخلاقية والناحية الروحية ، فالناحية الأخلاقية تتمثل فى فراغ القلب من كل هم وفكر ، أى أنه وسيلة لغاية أسمى وأهم ألا وهى تطهير القلب ، أما الجانب الروحى فهو اهمال وسلب كل ما سوى الحق تعالى ، وذلك كما يقول عبد القادر الجيلانى : « أن لا يتكلفوا السماع ولا يستقبلوه بالاختيار فاذا اتفق السماع فمن حق المستمع أن يقعد بشرط الأدب ذاكراً لربه بقلبه مشتغلا بحفظ قلبه من طوارق الغفلة والنسيان فاذا قرع سمعه شىء يرى القارىء للقرآن كأنه مستنطق من قبل للحق عز وجل » (٣٩) .

[٢] السماع وحال يقين القلب وحضوره .

لقد ربط الصوفية أيضاً بين السماع وحضور القلب ويقينه أثناء السماع ، واليقين هو ذهاب ظلمة الشك والريب فى المسموع ، أى سماع تدبر وعظة ، أما سماع الظاهر فلا عبرة به ولا عظة ، والسماع الحقيقى هو سماع القبول والطاعة ، وذلك على حد تعبير القشيرى : « أن السمع فى الحقيقة سمع القبول ، وذلك عن عين اليقين يصدر ، فأما سماع الظاهر فلا عبرة به » (٤٠) .

والحضور عند الصوفية لا يعنى الحضور المادى (الجسد) وانما يعنى حضور القلب مع الحق تعالى ، ولا يتم ذلك الا اذا كان حاضراً فى السماع بمعنى الثبات والتمكين فى السماع وفهمه ، وهذا ما يوضحه قول ابن عربى : « ان السمع لا يحضر الا مع الحضور أعنى

---

(٣٨) ابن تيمية : الفتوى الحموية الكبرى ، القاهرة ، ١٣٧٨ هـ ، ص ٦٣ ، وانظر قول خير الدين الرملى فى تحفة أهل الفتوحات والأذواق : تأليف أبى بكر البنانى ، مطبعة التقدم ، ١٩٧٧ م ، ص ٦٣ .

(٣٩) الغنية لطالبى طريق الحق عز وجل : جـ ٢ ، ص ٣٥٧ .

(٤٠) لطائف الاشارات : جـ ٢ ، ص ١٦١ ، وانظر التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص ١٦١ .

حضور القلب » (٤١) ، ويقول فى نفس المعنى السابق أيضاً أبو عثمان المغربى : « قلوب أهل الحق حاضرة وأسماعهم أسماع مفتوحة » (٤٢) .

إذن فالحضور عند الصوفية هو أن تسمع ما يلقى عليك كأنك تسمعه من الرسول ﷺ ، ثم من جبريل ثم من الحق تعالى ، وهذا كمال الحضور فى السماع ، أى فراغ القلب من كل هم وفكر ، وقوة المشاهدة لنور الحق تعالى وصفاء الذكر وحسن الأدب فى السماع ، وهذا ما يوضحه الخراز بقوله : « أول القاء السمع لاستماع القرآن هو أن تسمعه كأنك النبى ﷺ يقرؤه عليك ثم ترقى كأنك تسمعه من جبريل عليه السلام ثم ترقى كأنك تسمعه من الحق » (٤٣) .

[٣] السماع وحال الأنس .

حال الأنس هو الاعتماد على الحق تعالى والسكون اليه والاستعانة به ، والأنس فى السماع هو الأنس بالله تعالى واستوحاش سماع ما سواه من الأغيار والأستار ، كما أن الأنس لا يتم الا لعبد قام بكل حقوق الله ، وكملت طهارته وصفا ذكره وتحلى بالأخلاق الحميدة ، فعند ذلك يكون الحق تعالى مؤنسه ، وهذا ما يوضحه أبو سعيد الخراز بقوله : « من ادعى أنه مغلوب فى السماع فعلامته الصحيحة أن لا يبقى فى ذلك المجلس محق الا أنس به ولا مبطل الا استوحش منه » (٤٤) .

كما يجعل الصوفية الأنس بنور الحق تعالى الدرجة الأولى من درجات السماع ، وهو الأنس بسماع القرآن الكريم الذى هو غذاء العارفين مستوحشاً من السماع الشيطانى المشتمل على محاب النفوس ولذاتها (أى سماع الغناء) وهذا ما يوضحه ابن قيم الجوزية بقوله : « وهو على ثلاث درجات : الدرجة الأولى الأنس بالشواهد ، وهو استحلاء الذكر والتغذى بالسماع والوقوف على الاشارات .. ، فهو يستأنس بالذكر طلباً لاستئناسه بالمذكور ، ويتغذى بالسماع كما يتغذى الجسم بالطعام والشراب ، فان كان محباً صادقاً طالباً لله عاملا على

---

(٤١) مواقع النجوم : ص ٧٢ ، وانظر الاشارات الالهية : ج ١ ، ص ١٣٨ ، وانظر التصوف الاسلامى فى مدرسة بغداد ، ص ٢٨٢ .

(٤٢) فتح الأسماع فى شرح السماع : ص ٨٢ ، وانظر الرسالة القشيرية فى علم التصوف ، ص ٢٦٦ ، وانظر قول أبو عمرو القرشى فى الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ١٣٠ .

(٤٣) اللمع : ص ١١٣ ، ٣٥٥ .

(٤٤) الكواكب الدرية : ج ١ ، ص ١٩٠ ، وانظر الرسالة القشيرية شرح زكريا الأنصارى : ص ٢٦٧ ، وانظر أيضا العارف بالله ذو النون المصرى : ص ١٥٢ .

مرضاته،كان غذاؤه بالسماع القرآنى الذى كان غذاء سادات العارفين.. وان كان منحرفاً فاسد الحال ملبوساً عليه .. ، كان غذاؤه بالسماع الشيطانى الذى هو قرآن الشيطان المشتمل على محـاب النفـوس ولذاتها » (٤٥) .

كما يذهب الصوفية أيضا الى أن العبد اذا تحقق بالمحبة الالهيـة تحقق له الأنس من خلال سماعه لما يحبه الحق تعـالى ، فالمحبة شرط أساسى للسماع ، والعبد المحب لله يستوحش من سماع كـلام غـير كلام الحق تعالى ويأنس ويستلذ بسماع الخطاب الالهى ، « وهـذا ما يؤكده القشيرى بقوله : اعلم ان الأحباب يحبون سماع كلامه فطول عليهم القول الى آخر الآية ، ليزدادوا عند سماع ذلك أنساً على أنس وروحا على روح » (٤٦) .

كما يؤكد الصوفية على أن المحبة تجعل صاحبها فى أعلى درجـة من درجات السماع ، ذلك لأنهم يحبون ان يسمعوا كلام الحق تعالى ، ومن ثم فالحق تعالى يحب ان يسمع كلامهم ، وهذا ما يوضحه المكى بقوله : « اهل المحبة يحبون أن يسمعوا كلامه ، وهو يحب أن يسمع كلامهم » (٤٧) ، وكذلك يقول ابن عربى : « المرء مع من جالس لأن المجالسة والاستماع ينتجـان عن المحبـة وقـال ﷺ « المـرء مع من أحب » (٤٨) .

إذن فالأنس حال سوى يجعل المرء فى قرب من الحـق تعالى من خلال سماعه للكلام الحسن وحب الطاعة لهذا الكلام والعمل به .

[٤] السـماع وحال الخـوف .

أما عن ارتباط السماع بحال الخوف عند الصوفية ، فانهم رأوا أن المريد الواثق بالله لا يهتم بالأسباب ولا يخاف خذلان الحق وانما يسمع ما يخوفه من أهوال يوم القيامة ، أو سماع الخوف من العقاب من فوت ثواب ، أو فوت الأنس والقرب ، وهذا الخوف يثمر عنه البكـاء أو تغير اللون والحزن أو الشهقة ، ولهذا كان سماع القرآن الكريم أشد تأثيراً

(٤٥) مدارج السالكين : جـ ٢ ، ص ٢٠٦ .
(٤٦) لطائف الاشارات : جـ ٤ ، ص ٢٢٥ .
(٤٧) قوت القلوب : جـ ٢ ، ص ١٤٠ .
(٤٨) مواقع النجوم : ص ٧٥ .

على نفس المستمع من تأثير الغناء والانشاد ، وهذا ما يوضحه العز ابن عبد السلام : « السماع يختلف باختلاف السامعين والمسموع منهم - وهم أقسام أحدها : العارفون بالله : ويختلف باختلاف أحوالهم ، فمن غلب عليه الخوف أثر فيه سماع المخوفات وظهر أثر ما عليه من البكاء وتغير اللون والحزن ، والخوف ، أما خوف عقاب أو خوف فوت ثواب ، أو فوت الأنس والقرب ، وهذا من أفضل الخائفين وأفضل السامعين فمثله لا يتصنع ولا يصدر منه الا ما غلب من آثار الخوف ، وهذا اذا سمع القرآن كان تأثيره فيه أشد من تأثير الانشاد والغناء » (٤٩) .

وإذا كان خوف العارفين هو الخوف من أهوال يوم القيامة أو خوف فوت ثواب أو خوف فوت الأنس والقرب من الحق تعالى ، فان خوف العام فيما يرى الصوفية هو حفظ وصون السمع عن سماع ما تخالف الشرع ، وكذلك حفظ جميع الجوارح ، والسماع لا يثمر شيئاً فى القلب وانما يحرك ما فى القلوب من السرور والحزن والخوف والرجاء والشوق حتى تبكى أو تطرب ، ولهذا قيل : « السماع يحرك ما تنطوى عليه القلوب من السرور والحزن والخوف والرجاء والشوق فربما يحركه للبكا وربما يحركه للطرب » (٥٠) .

وقد يكون البكاء عند الصوفية نتيجة الخوف وفهم معانى المسموع وتدبر معناه وقد يكون أيضاً نتيجة للشوق والفرح بلقاء الحق تعالى ، وذلك على حد قول الشيخ حماد : « اعلم أن للباكين عند السماع مواجيد مختلفة فمنهم من يبكى خوفاً ، ومنهم من يبكى شوقاً ، ومنهم من يبكى فرحاً كما قال القائل :

طفح السرور على حتى أننى من عظم ما قد سرنى أبكانى » (٥١)

وإذا كان للخوف أهمية عظيمة فى السماع ، فان هذه الأهمية لا تكتمل الا بالرجاء للحق تعالى . ذلك لأن الخوف والرجاء هما جناحا السماع ، لا يكتمل الا بهما فيسمع المريد التشديد فيخشى ويرهب الحق تعالى ، ويسمع اللين فيرجوه ، اذ انه يجب على المريد أن يرجو الحق

---

(٤٩) كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع : ص ٢٧ ، وانظر قول المكى فى التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق : ج ٢ ، ص ١٥٣ ، وانظر قول عبد الوهاب الشعرانى فى تنبيه المغترين : ص ٣٣ .

(٥٠) آداب المريدين : ص ٤١ .

(٥١) عوارف المعارف : ص ١٩٦ .

تعالى فى كل ما يريده من أمور الدنيا ولا يرجو ما سواه ، فالرجاء والدعاء هما وسيلة الربط بين العبد وربه ، ولهذا قال سفيان الثورى :

« تسمع التشديد فتخشى ، وتسمع اللين فترجوه لأهل القبلة ، ولا نقص » (٥٢) .

ويذهب الصوفية الى أن المريد اذا سمع بحق ظهرت عليه معالم الخوف من أهوال يوم القيامة ، وفاضت عيناه بالدموع وأقشعر جلده وبكى وذلك حال معظم الصوفية ، ومن بينهم الفضيل بن عياض حيث كان « اذا ذكر الله أو ذكر عنده أو سمع القرآن ظهر به الخوف ، وفاضت عيناه ، وبكى حتى يرحمه من يحضرنه ، وكان دائم الحزن شديد الفكر » (٥٣) ، وهذا ما يؤكده قول الحق تعالى :

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٤) .

فالنفس الانسانية اذا حزنت خمد هواها وشهواتها عند السماع الحق ، أما اذا سمعت ما يطربها ويسعدها ازداد واشتعل فيها حب سماع الشهوات والأهواء ولهذا استخدم ملوك فارس السماع فى التفريج عن المحزون وأيضا فى علاج أصحاب المرض ، إذ ان سماع بعض آيات الذكر الحكيم أو مقطوعة موسيقية تبعد الهم والتفكير من بال الانسان ، وهذا ما يوضحه أفلاطون بقوله : « من حزن يطربها الأصوات الحسنة، فان النفس اذا حزنت خمد نورها وإذا سمعت ما يطربها ويسرها اشتعل منها ما خمد ومازالت ملوك فارس تلهى المحزون بالسماع وتعلل به المريض وتشغله عن التفكير » (٥٥) .

ويعتبر الصوفية الحزن لوناً من ألوان الخوف والرهبة للحق تعالى ، لذلك ينصحون المريد وقت السماع بالحزن والبكاء والتأسف على ما ارتكبه من الذنوب والمعاصى وعدم القيام بالطاعات وذلك من

---

(٥٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : جـ ٧ ، ص ٢٩ ، وانظر قوت القلوب : جـ ٣ ، ص ١٩٧ .

(٥٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : جـ ٨ ، ص ٨٤ ، وانظر لطائف الاشارات . جـ ١ ، ص ٦٥ ، وانظر قول السهروردى فى عوارض المعارف : ص ١٧٢ .

(٥٤) سورة المائدة : آية (٨٣) .

(٥٥) مخطوط ايضاح الدلالات فى سماع الآلات : ص ١١ .

خلال سماعه للآيات والأبيات والقصائد التى تحث على ذلك وعدم سماعه لآلات اللهو والفساد ، وهذا ما يوضحه قول « على الخواص » : ليست هذه الدار بمحل لسماع الآلات انما هى محل الحزن والبكاء والنحيب ولا يزالون كذلك الى أن يجاوز الصراط فهنالك يخرجون عن التكلف » (٥٦) .

كما يعتبر الصوفية البكاء عند سماع تلاوة القرآن الكريم حال الضعفاء من المؤمنين ؛ ذلك أن المؤمن القوى يظل ثابت الحال قبل السماع وبعده أى سماع عظة وفهم بدون حركة أو اهتزاز ، وهذا ما يوضحه ابراهيم القادرى بقوله : « وأما البكاء عند التلاوة أو السماع فهو أقل حالا من أحوال المؤمنين ، والمعتبر فى ذلك بكاء المحبة والشوق والهيبة والخشوع لا بكاء الخوف أو الرجاء فان ذلك حظ النفس » (٥٧) .

[٥] السماع وحال الاستمرارية .

ومن أهم الأحوال أيضا التى ترتبط بالسماع عند الصوفية حال الاتصال ؛ وهو أن ينفصل بسره عما سوى الله ، فلا يسمع الا منه ولا يشهد غيره فى السماع ، وذلك من خلال دوام واستمرار حال السماع ، فلا يكون السماع فى وقت ثم ينقطع بل ينبغى أن يكون السماع متصلا فى جميع الأحوال وليس فى كل الأوقات ، وانما فى الأوقات المناسبة له ، وهذا ما يوضحه أقوال العديد من الصوفية منها قول الحصرى « ايش أعمل بسماع ينقطع أن أنقطع من يسمع منه » (٥٨) .

ذلك يعنى أن السماع لا ينتهى بانتهاء شخص معين قائله ، وانما يستمر السماع من أى شخص قائله ما دام المسموع واحداً وفى مجال صالح ، وهذا ما يتضح من قول القشيرى : « ينبغى أن يكون سماعك سماعا متصلا غير منقطع » (٥٩) .

[٦] السماع وحال الوصول .

كما يربط الصوفية أيضاً بين السماع وحال الوصول الى الحق تعالى ، فالعبد لا يصل الى الله تعالى ومعه شهوة من شهواته أو تدبير

---

(٥٦) بهجة النفوس والاخلاق : بدون ترقيم الصفحات .

(٥٧) القادرى (ابراهيم بن محمد الحسيني) : لسان البيان ومنهل العرفان فى الاسلام والايمان والاحسان ، مطبعة الظاهر ١٣٢٣ هـ ، ص ٣٨ .

(٥٨) مخطوط فتح الأسماع فى شرح السماع ، ص ٨٢ .

(٥٩) مخطوط فتح الأسماع فى شرح السماع ، ص ٨٢ .

من تدبيراته ، أو سماع من أشعاره ، ولن يصل العبد الى الله تعالى الا اذا أظهر الحق له الصفات القدسية وفنى عن صفات العبودية ويكون ذلك علامة الوصول ، أما اذا جعل العبد استماعه (صفات العبودية) واستماع الغناء طريقا الى الله ، فلا يكاد يوصله ذلك الا الى سخط الحق تعالى ، وهذا ما يوضحه قول ابن قدامة « فأما من يجعله دينا (الدف) ويجعل استماعه الغناء : قربة وطريقا الى الله سبحانه .. فلا يكاد يوصله ذلك الا الى سخط الله » (٦٠) .

[٧] السماع وحال الثبات والتمكين .

ولقد ربط الصوفية أيضا بين حال الثبات والتمكين والسماع ، والتمكين هو الرسوخ والاستقرار ، وما دام العبد فى طريق الوصول من حال الى حال فهو صاحب تلوين واذا وصل حصل له التمكين ، أى أن التمكين عكس التلوين والتردد والانتقال من حال الى حال ، فالمريد القوى الحال فى السماع لا يتحرك اذا سمع وانما يكون حاله واحدا قبل السماع وبعده ، وانما الذى يتحرك قلبه تعلقا بذكر الحق تعالى ساكن الجسد والجوارح وهذا ما يوضحه « أبو القاسم الجنيد عندما سئل عن سكونه وقلة اضطراب جوارحه عند السماع فأشار الى ذلك بقوله : قال تعالى :

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٦١)] (٦٢)

أى أن حال الثبات والتمكين هو حال الكمل من العباد ، أما من يهتز ويتحرك عند السماع فهو فى حال التلوين والانتقال من حال الى حال ، لذلك ترى الرجل ثابتا ساكنا وعندما يسمع شيئاً من آيات الذكر الحكيم تراه يضطرب ويهتز ؛ ذلك لأن الروح تتذكر لذة خطاب الحق تعالى فى عالم الذر اى عالم ما قبل الخلق أو اتصال الروح بالبدن .

---

(٦٠) فتيا فى ذم الشبابة والرقص والسماع : ص ٦٢ .

(٦١) سورة النمل : آية (٨٨) .

(٦٢) اللمع : ص ١٢٧ ، ٣٩٧ ، وانظر ترتيب السلوك فى طريق الله تعالى : ص ٩٠ ، وانظر التصوف الاسلامى فى مدرسة بغداد : ص ٣١٤ ، وانظر كشف القناع عن وجه السماع ، ص ٣ ، وانظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، وطبقات : ج ١ ، ص ٢٧١ ، وانظر قطع النزاع وكشف القناع عن دليل جواز السماع : ص ٣٧ ، وانظر بوارق الألماع فى تكفير من يحرم السماع ، بدون ترقيم صفحات .

وتلون العبد فى أحواله هو التغير وظهور قدرة القادر ، وتلونه وحركته عند سماع القرآن تختلف عن تلونه عند سماع الأشعار ، ذلك لأن القرآن الكريم كلام الحق ، أما الأشعار فهى من صنع الانسان ، واذا استمع اليها العبد ومال اليها نقص عقله وقل حياؤه وذهبت مروءته وفارقه بهاؤه ، بعكس سماع القرآن الذى فيه الوقار والبهاء والعقل والثبات والتمكين ، وهذا ما يوضحه قول ابراهيم الخواص : « سئل ما بال الانسان يتحرك عند سماع غير القرآن ويجد ما لا يجد فى سماعه، فقال أن سماع القرآن صدمة لا يمكن لأحد أن يتحرك فيه لشدة غلبته وعظمته وسماع القول ترويح يتحرك فيه » (٦٣) .

ويذهب الصوفية أيضاً الى أن المريد اذا كان قوى الحال كان متمكنا فى السماع ، أما اذا كان ضعيف الحال كان متلونا ومتغيرا وغير ثابت الحال ، وهذا ما يوضحه أبو عمرو عندما سئل عن السماع فقال : « ما أدون حال من يحتاج الى مزعج يزعجه اليه ، السماع من ضعف الحال ، ولو قوى لاستغنى عن السماع والأوتار » (٦٤) ، ويقول أيضا فى نفس المعنى السابق الكلاباذى : « فالسماع اذا قرع الأسماع آثار كوامن أسرارها ، فمن بين مضطرب لعجز الصفة عن حمل الوارد ، ومن بين متمكن بقوة الحال » (٦٥) .

[٨] السماع والمحبة الالهية .

كذلك ربط الصوفية بين السماع والمحبة الالهية ، فالحب شعور باطنى يملك الحياة النفسية كلها فى كل الأحوال ويوجهها الى الحق تعالى ، بحيث لا يجد العبد مع الحق تعالى محبوباً غيره ، وهذا الحب هو حب لا نهائى ومصدر الحياة وأساس الوجود ، فبداية المحبة للسماع وينتج عنه الاستحسان ، ثم يقوى هذا فيتولد عنه المودة ، ثم تقوى هذه المودة فتصير محبة ، وما ينتج عنها من عشق وشوق للحق تعالى ، ثم يتولد منها اليتم وهذا أعلى مراحل المحبة الناتجة عن السماع لما يحبه العبد ويهواه ، وهذا ما يوضحه محمد بن داود بقوله : « أن الأحوال التى تتولد عن للسماع والنظر مختلفة ولها مراتب : فأول ما يتولد عن النظر والسماع الاستحسان ثم يقوى فيصير مودة ،

(٦٣) الكواكب الدرية : جـ ١ ، ص ١٨٦ .

(٦٤) طبقات الصوفية : ص ٤٣٢ ، وانظر فتح الاسماع فى شرح السماع ص ٨٠ ، وانظر قول سهل التسترى فى الكواكب الدرية : جـ ١ ، ص ٢٣٨ ، وانظر حال العز بن عبد السلام وحال عمر بن الفارض فى لطائف المنن والأخلاق : جـ ٢ ، ص ١٠٧ .

(٦٥) التعرف لمذهب أهل التصوف : ص ١٩٠ .

والموده سبب الارادة ، فمن ود انسانا ود أن يكون له خلا ومن ود غرضاً ود أن يكون له ملكاً ثم تقوى المودة فتصير محبة ثم تقوى فتصير خله ، ثم تقوى الخلة فتوجب الهوى ، ثم يقوى الهوى ، فيصير عشقا .. » (٦٦) .

محبة العبد لله لا تكون الا اثبات الحق تعالى فى القلب وكراهية كل ما سواه من الأغيار والسوى ، فالمحبة هى من الأخلاق الحميدة وهى نتيجة السماع لله تعالى ، فمتى تحقق العبد بالمعنى الكامل للسماع وجد محبة الله له ميراث سماعه ، ويوضح لنا ابن الخطيب : « أن السماع محرك الحب على الاطلاق فما دام فى هذه الرتبة عد سبباً ، واذا حصل الحب اختلفت فيه أحوال العشاق بحسب ضعفهم وتمكينهم ، فمنهم من يكون فى حقه معدلا ، ومنهم من يكون فى حقه مفرباً أو مهلكاً ، فاذا حصل الرسوخ والتمكين لم يكن به احساس » (٦٧) .

تختلف أحوال المريدين فى حال الحب فمنهم من يكون قوى الحال ، ومنهم من يكون ضعيفاً ومنهم من يكون معتدلا واذا حصل له الرسوخ والتمكين والثبات على حال الحب الالهى لا يكون له احساس بما حوله نتيجة لفناء ارادته فى ارادة الحق تعالى ، وكذلك فناؤه عن نفسه ، فبالحب يتذوق الانسان ما يسمعه من الأصوات الجميلة وأصوات الطيور والرياح ، ولهذا ذهب الصوفية الى أن الحب أصل كل عمل ، واذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل ، فأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله ، وكل ارادة تمنع كمال الحب لله ورسوله ﷺ وتزاحم هذه المحبة فهى تعارض الشرع ، فكذلك السماع الحسن ينتج عن المحبة لما يسمع وهذا يوافق الشرع ، وذلك على حد قول أبى عثمان المغربى : « كل من يدعى حب السماع ولا يتذوق أنغام الطيور وأصوات الوحوش وصرير الرياح فانه كذاب » (٦٨) .

وإذا أخلص العبد فى سماعه بأن ترك حب سماع الحرام وسماع الغناء وتحقق بحب سماع القرآن والمواعظ وفنى فى هذا السماع عما

---

(٦٦) التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق : ج ٢ ، ص ١٦٦ ، وانظر قول أبو سليمان الوارانى فى احياء علوم الدين : ج ٢ ، ص ٣٥٦ ، وانظر قول عز الدين ابن عبد السلام فى حل الرموز ومفاتيح الكنوز : ص ٦٦ ، ٦٧ ، وانظر بوارق الالماع فى تكفير من يحرم السماع بدون ترقيم ، وانظر أيضا قول الغزالى فى كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع ، ص ٢٧ .

(٦٧) ابن الخطيب (لسان الدين الخطيب بن الوزير) : روضة التعريف بالحب الشريف ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، ١٣٨٦ هـ — ١٩٦٦ م ، الطبعة الأولى ، ص ٢٧١ .

(٦٨) تاريخ التصوف الاسلامى : ج ٢ ، ص ٥٦٥ .

سواه ، كان الحق تعالى سمعه الذى يسمع به كما فى الحديث القدسى « ما تقرب الى عبدى بمثل اداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يمشى » (٦٩) .

فالآلات التى ذكرها الحق تعالى فى الحديث القدسى من السمع والبصر واليد والرجل هما آلات الادراك وهما يوردان على القلب الحب والبغض ، واذا كان العبد محفوظاً فى سمعه وبصره كان محفوظاً فى حبه وبغضه .

من ذلك يتضح لنا أن الصوفية لا تعنى بالمحبة محبة سماع سوى الحق تعالى من المخلوقين ، وانما المحبة تعنى حب سماع القيام بأمر الله ونهيه ، أى حب ما يحبه الله وكراهية ما يكره الله ، وهذه المحبة تقتضى منه ايثار سماع الحق على كل شىء سواه والاستغراق فى المحبوب ، وما لم يكن مستغرقا فى محبوبه كان ناقصا فى محبته ، وذلك من خلال حضور قلبه مع الحق تعالى ، وهذا ما توضحه أقوال العديد من الصوفية : « اختلف المشايخ والمحققون فى السماع ، فقالت طائفة انه آلة الغيب ، وقالت جماعة : ان السماع آلة الحضور ، لأن المحبة تقتضى الكلية ، وما لم يكن كل الحب مستغرقا فى المحبوب يكون ناقصا فى المحبة » (٧٠) ، وكذلك يقول ابن القيم : « والقلب يتأثر بالسماع بحسب ما فيه من المحبة ، واذا امتلأ من محبة الله وسمع كلام محبوبه أى بمصاحبته وحضور فى قلبه — فله من سماعه هذا شأن ولغيره شأن آخر » (٧١) .

كما يذهب الصوفية الى أن المحبة الآلهية كامنة فى القلب ، وهذه المحبة لا تتحرك الا بوجود باعث يحركها ، وهذا الباعث هو السماع ، كما أن هذه المحبة تشبه النار فى كمونها تحت الرماد لا يحركها الا سبب وتظهر آثارها وتختلف قوتها حسب اختلاف محركها ، وهذا ما يوضحه

---

(٦٩) الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى : ص ٢٠٨ : ٢١٠ ، أخرجه البخارى . وانظر محمد مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الاسلام ، دار احياء الكتب العربية ، عيسى الحلبى ١٩٤٥ م ، ص ٢٩ ، وانظر غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العطائية : ج ١ ، ص ٢١٣ .

(٧٠) كشف المحجوب : ج ٢ ، ص ٦٥٤ .

(٧١) ابن القيم : مدارج السالكين : ج ١ ، ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ . وانظر عبد المنعم صالح العلى : تهذيب مدارج السالكين / دار الوفاء للطباعة والنشر ١٩٨٣ م ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ .

قول نور بن حمد دين : « واعلم أن المحبة فى القلب كامنة فيه ككمون النار تحت الرماد ، ولا تتحرك هذه النار الا بسبب كما لا تتحرك النار المادية الا بسبب .. ، فكذلك نار المحبة تكون هامدة غالبا حتى تجد سببا يحركها ، والسبب المحرك هو السماع ... » (٧٢) .

[٩] السماع وحال الفناء والبقاء .

يعتبر الصوفية أن الفناء عن هوى النفس وشهواتها أحد معانى السماع وأيضا الفناء عن السماع نفسه وقت السماع من أعلى مراحل السماع ، هذا الفناء ينشأ عن شدة المحبة الالهية والصدق فيهما والشوق الى لقاء الحق تعالى ، وذلك من خلال سماع القرآن الكريم والسماع الحسن ، أما الذى غلب عليه حب الخلق وعشق الرباعيات لا يتحقق بالمحبة الالهية ، وينتج عن هذه المحبة حال يسمى « الوجد » ، وهذا ما يوضحه الغزالى بقوله : « الوجد الحق هو ما ينشأ من فرط حب الله تعالى وصدق ارادته والشوق الى لقائه ، وذلك يهيج بسماع القرآن أيضا ، وانما الذى لا يهيج بسماع القرآن حب الخلق وعشق المخلوق » (٧٣) .

والفناء الصوفى هو فناء صفات النفس وأوصافها الخبيثة والبقاء بصفات الكمال أثناء السماع ، أى البعد عن رذائل الأخلاق والسماع السيىء « الفناء البارح » والبقاء بالفضائل والسماع الحسن ، الفناء الصوفى هو وسيلة وأداة لازالة الحجب والأستار بين العبد والحق تعالى حتى يتحقق العبد بمشاهدة المحبوب (الحق) ، وعندما يفنى المريد فى سماعه ويكون صادقا فى هذا الفناء يحدث له حالة من الوجد ؛ وهذه الحالة عنصر مساعد على المشاهدة الالهية ، أما التواجد فهو حالة يتظاهر بها العبد امام اعوانه فهى ليست من عند الحق تعالى ، وهذا ما يوضحه ابو على الروذبارى عندما سئل عن الوجد فى السماع فقال : « مكاشفة الأسرار الى مشاهدة المحبوب » (٧٤) .

---

(٧٢) قطع النزاع وكشف القناع عن دليل جواز السماع : ص ٤ ، ٥ .
(٧٣) احياء علوم الدين : جـ ٢ ، ص ٣٧٩ .
(٧٤) القشيرى (عبد الكريم بن هوازن) : شرح أسماء الله الحسنى ، تحقيق وشرح أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى ، القاهرة ، مجمع البحوث الاسلامية ، ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م ، ص ٣٣٩ ، وانظر أيضا قول بعض الصوفية فى « أبو العباس المرسى » ، ص ٤٦ .

كما يذهب ابن الفارض الى أن فى المحبة الالهية والفناء فيها راحة للنفس وطمأنينة للقلب وشفاء من أمراض النفس ، وبالمحبة الالهية تصل نفس الصوفى الى الصفاء والنقاء ، هذا الصفاء هو أساس الوجود ، وعلى ذلك فان هذا الحب دائم ومستقر ، وبدون هذا الحب لا يصح السماع ، ذلك لأن العبد لا يسمع الا ما يحبه ويهواه فؤاده ، لذلك ينشد شعراً :

نحت بحبى آيــة العشــق من قبلى
فاهل الهوى جندى وحكمى على الكل
وكــل فتى يهــوى فانى امامــه
وانى برىء من فتى سامــع العــذل
ولى فى الهــوى علم تجل صفاته
ومن لم يفقهه الهوى فهو فى جهــل » (٧٥) .

لا شك أن صدق الحال وفناء النفس عن الرذائل فى السماع مطلب عام للصوفية جميعا ، فهم يطالبون المريد بالفناء عن نفسه ويسمع ويعى كل ما يسمعه ويعزل نفسه عن صفاتها وأهوائها ، ويبقى بصفات الحق تعالى ، وهذا ما يوضحه الحسين بن منصور بن الحلاج عندما يدعو المريد الى الاتحاد ، وهو شعور نفسى بالاتحاد بالذات الالهيــة أثناء الوجد الناتج عن السماع الحسن بقوله : « المحب هنا يعزل نفسه عن صفاتها ، بأن ينظر وكأنه بمثابة النظر لا الناظر ، ويسمع ويعى وكأنه بمثابة السمع والوعى ، لا السامع والواعى » (٧٦) .

بعد أن تفهمنا السماع ، ووقفنا على معناه ، وعرفنا أثره من الناحية النفسية ، واعتباره عند الصوفية وسيلة وأداة للارتقاء بالنفس الانسانية الى غاية الحياة الكاملة التى لا يشوبها نقص أو تقصير فى

---

(٧٥) ابن الفارض والحب الالهى : ص ١٧٢ : ١٨٧ ، ٢١٨ ، وانظر د. محمد مصطفى حلمى : الحب الالهى فى التصوف الاسلامى ، دار الكتب ، ١٩٦٠ م ، ص ١١٥ ، وانظر التصوف الاسلامى فى الادب والاخلاق : ج ١ ، ص ٢٩٩ ، وانظر الحياة الروحية فى الاسلام : ص ١٤٨ ، وانظر قول رابعة العدوية فى المحبة الالهية ، لويس ماسينون ومصطفى عبد الرازق : الاسلام والتصوف ، اعداد ابراهيم زكى خورشيد ، د. عبد الحميد تونسى ، دار الشعب ، ١٣٩٩ هـ ــ ١٩٧٩ م ، ص ٧٦ .

(٧٦) طه عبد الباقى سرور : الحسين بن منصور الحلاج شهيد التصوف الاسلامى ، دار نهضة مصر ، ١٩٨١ م ، ص ٢٧ .

أمر من أوامر الشرع ، وعرفنا كيف يعقد الصوفية جلسات السماع ، وانهم يتفاوتون فى التأثر بمعانى المسموع مما أدى الى اختلاف مقامات السامعين وأحوالهم .

كما عرفنا أيضاً الآداب التى يلتزم بها الصوفية فى مجالس السماع، كما تبينا انه يجب على المريد الندم والتوبة من الذنوب والمعاصى فى سماعه ، وأن يكون صادقاً مع نفسه ومع الحق تعالى فى سماعه ، وأن يتحلى بالورع والتخلص من مظالم الخلق ومظاهر الدنيا ، وأن يزهد فى سماع الرذائل والمعاصى ، ويكثر من سماع الحكم والمواعظ والعمل بها ، وأن يكون مستقيما فى سماعه ولا يسمع من أجل كسب مادى أو جاه ، أى سماع فقر الى الحق تعالى فى سماعه بعدم الانصات لصاحب بدعة ، وأن يفنى فى سماعه عن الخبائث والأهواء ، ويبقى بصفات الحق تعالى ، ويظل ثابت الحال غير متحرك عند السماع غير متلون ؛ ذلك لأن الثبات والتمكين من صفات قوى الحال . وأن يسمع ويحب كل ما يحبه الحق تعالى ويفضل سماع القرآن الكريم على سماع النغمات والألحان .

يجمع الصوفية على ضرورة تخلى العبد عن الصفات المذمومة ، والتحلى بالأوصاف والصفات الحميدة فى السماع ، وذلك عن طريق مجاهدة النفس ورياضتها حيث انها تميل الى كل ما هو مذموم ، حتى يمكن اكتساب الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة ، واذا تعلق قلب السامع بالحق تعالى فى سمعه غير ناظر الى ما سواه، وشهد احدية الله فى كل احواله وأعماله أصبح متحققاً بالمعرفة الالهية .

فالسماع على الأحوال نوع من القصور نظراً لوجود صفات النفس البشرية ، وانما الكمال أن يفنى عن نفسه وأحوالها مثل حال النسوة اللاتى قطعن أيديهن فى مشاهدة جمال يوسف عليه السلام حتى دهشن وسقط احساسهن ، بمعنى أن يكون سماعه بالله ، ولله وفى الله ومن الله وهذه رتبة من قطع العلائق والعوائق ، وذلك ما يؤكده الهروى بقوله : « السماع على الأحوال وهى ممتزجة بصفات البشرية نوع قصور وانما الكمال أن يفنى عن نفسه وأحوالها يعنى أنه ينساها فلا يبقى له التفات اليها كما لم يكن للنسوة ، التفات الى اليد والسكين ويسمع الله ولله وفى الله ومن الله » (٧٧) .

---

(٧٧) الغزالى : احياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ٢٨٨ ، وانظر فتح الاسماع فى شرح السماع ، ص ٨٧ .

وينبه الصوفية الى أن الكمال فى السماع لا يتحقق للسالك الا اذا فنى عما سوى الحق تعالى ، أى عدم شهود الأكوان وقت السماع ، وهذا ما يوضحه داود بن ماخلا بقوله : « أول مراتب السماع للقرآن غيبة السامع عن شهود الأكوان » (٧٨) ٠

كما يعتبر الصوفية السماع هو درجة الكمال التى يبلغها المريد العارف بالطاعات والواجبات ، وتجرده من أهواء نفسه وشهواتها من خلال مجاهدة النفس حتى يتم له حال الكشف والمشاهدة النور الالهى أى أن الفناء فى السماع هو الفناء عن السماع السيىء والبقاء بالسماع الحسن ، وهذا ما يوضحه الهجسويرى بقوله : « هو درجة كمال يبلغها العارفون الذين انتهى بهم الطلب الى الكشف فرأوا كل مرئى ، وسمعوا كل مسموع ، وادركوا كل أسرار القلب والذين اعترفوا بنقص كشفهم فأعرضوا عن كل شىء وفنوا فى مقصدهم وفنيت فى هذا المقصد كل مقاصدهم » (٧٩) ٠

والفناء عند الصوفية هو فناء أوصاف النفس ومحو الزائل ، والبقاء بأوصاف الحق ووجوده الدائم ، اذ يفنى العبد اذا سمع آية من آيات القرآن الكريم عن رؤية الأشياء والأغيار ثم بعدها يعود الى أحواله والى الناس ، وهذا ما يوضحه قول أبى على المغازلى عندما سأل الشبلى فقال : « ربما يطرق سمعى آية من كتاب الله عز وجل فتحدو بى على ترك الأشياء والاعراض عن الدنيا ثم أرجع الى احوالى والى الناس » (٨٠) ٠

---

(٧٨) الطبقات الكبرى : ج ١ ، ص ٢١٥ ٠

(هو داود الكبير بن ماخلا شيخ سيدى محمد وفى الشاذلى ، كان رضى الله عنه شرطيا فى بيت الوالى بالاسكندرية وكان يجلس تجاه الوالى وبينهما اشارة يفهم منها وقوع المتهم او براءته وله كلام عال فى الطريق ، وكان أميا لا يكتب ولا يقرأ ومن كلامه ما وردت حقيقة على عارف قط الا وذهب شاهده تحت سلطان أنوارها واما السامع منه فيمكن بقاء شاهده مع وجود تلقيها منه لأنها وردت من بشير اليه ، وكان يقول اذا تكلم العارف بكلمة غاب فيها وجود المستمع وذلك لأن الكلام ذكر والسماع أنثى والرجال قوامون على النساء ، انظر الطبقات الكبرى ، ج ١ صص ٢٠٨ : ٢١٥) ٠

(٧٩) د٠ عبد الوهاب عزام : التصوف وفزيد الدين العطار ، دار احياء الكتب العربية ، ١٣٦٤ هـ ـ ١٩٤٥ م ، ص ١١٢ ، ١١٣ ، وانظر أيضا الامام القشيرى ، سيرته ، مذهبه ، ص ٢٨٠ ٠

(٨٠) الرسالة القشيرية فى علم التصوف ، شرح زكريا الانصارى : ص ٢٦٨ ٠

والفناء عند الصوفية لا يتم الا بمجاهدة النفس ورياضتها وتحليها بمكارم الأخلاق فى السماع ، ولذا ينصح الصوفية بعدم حضور المبتدئين مجالس الذكر والسماع ، ذلك لبقاء أوصاف النفس وشهواتها ، على حين أباحوه للزهاد لما يقيمون به من مجاهدات ورياضات تعمل على فناء صفات النفس البشرية والبقاء بصفات الحق تعالى لما فى ذلك من حياة قلوبهم ، وذلك على حد تعبير أبى على الدقاق « السماع حرام على العوام لبقاء نفوسهم ، مباح للزهاد لحصول مجاهدتهم ، مستحب لأصحابنا لحياة قلوبهم » (٨١) .

وكذلك يعتبر الصوفية الفناء فى السماع هو فناء الوسائط بين السامع والمسموع أو بين العبد والرب ، فيغيب بمسموعه عن المخلوقات والأشياء والوسائط « ويفنى عن شهودها ، ويفنى عن شهود فنائه عنها » (٨٢) ، أى يفنى عن مشاهدة النفس وصفاتها وغوايتها الشريرة ، ولا يرى سوى الصفات والأخلاق الحسنة وقت ذلك ، من خلال تذكر النفس لحياتها السابقة قبل أن تحل بالبدن وعند هذه اللحظة لحظة الفناء يفنى السامع عن مشاهدة هذا الفناء أيضا ، وفى مثل هذا الفناء اماتة لشهوات النفس وأهوائها وبقائها وحملها على الطاعة والقيام بأوامر الحق ونهيه .

كما يذهب الصوفية أيضا الى أن الفناء عن الحظوظ والبقاء بالله تعالى لون آخر من الوان الفناء المتعددة ، اذ يفنى السامع عن حظوظه وآثاره البشرية ولا يعود مشاهدا فى الوجود الا الواحد الحق ، فهو فناء يقوم فيه الله عند الصوفى فى كل فعل وحركة ، وهذا ما توضحه اقوال الصوفية اذا قيل : « وسماع يشترط الحال فمن شرط صاحبه الفناء عن احوال البشرية والتنقى من اثاره الحظوظ » (٨٣) .

كما أن من صفات الفناء فى السماع حدوث بروق سريعة الزوال تظهر فترة ثم تخمد وتحمل معها أشعة المعرفة الالهية التى تتم بدون

---

(٨١) الرسالة القشيرية فى علم التصوف ، شرح زكريا الانصارى : ص ٢٦٤ .

(٨٢) مدارج السالكين : ج ١ ، ص ٥٠٥ ، وانظر الرسالة القشيرية : ص ٢٦٨ .

(٨٣) الرسالة القشيرية فى علم التصوف : ص ٢٦٨ ، وانظر مدارج السالكين : ج ١ ، ص ٤٨٢ ـ ٥٠٤ .

واسطة ، وهذا ما توضحه بعض أقوال الصوفية : « الوجد : بروق تلمع وتخمد » (٨٤) .

ويذهب الصوفية الى أن الفناء من الأمور الصعبة لما فيه من اماتة شهوات النفس واختفاء صفاتها الذميمة ، ولكنه مع ذلك من الأمور الضرورية التى تحافظ على العقيدة الدينية ؛ وذلك من خلال الالتزام بالطاعات والواجبات التى تأتى نتيجة العناية الالهية ، وهذا ما استنتجه المستشرق نيكلسون بقوله : « من الصعب أن ترى كيف يستطيع الشخص التقدم الى الفناء وهو من الأشياء التى تحافظ على العقيدة والتى تشير الى تقوى الصوفيين ، وهى تتم بحماس شديد وهى الصفة الدينية التى تأتى نتيجة العناية الالهية نتيجة الطاعة ... ومثال ذلك حالة أبى حمزة حيث كان سائراً فى شوارع بغداد وأخذ يتفكر فى القرب من الله وفجأة يقع فى هذا الهيام ويستمر فى طريقه بدون أن يرى أو يسمع حتى يسترد حواسه ويجد نفسه فى الصحراء .. ، وقد أفادت تقارير كتبها (سهل بن عبد الله) أنه اعتاد فى البقاء فى حالة هيام لمدة خمسة وعشرين يوما فى المرة الواحدة بدون تناول طعام » (٨٥) .

من ذلك يتضح لنا أن السماع الحق عند الصوفية هو الفناء عن حظوظ النفس البشرية وكذلك الفناء عن السماع نفسه والعالم والأكوان ، وهذا هو أعلى درجات السماع ، ومن ثم يتحقق له الكشف والمشاهدة والبقاء بنور الحق تعالى والتحقق بالمعرفة الالهية من خلال محو الصفات البشرية والبقاء بالصفات الالهية المحمودة ..

وبعد أن عرفنا كل ما سبق ، علينا أن نقف على معنى السماع وارتباطه بالوجود عند الصوفية المتفلسفين من أصحاب وحدة الوجود ، وكذلك تحقق المريد بالمعرفة الالهية من خلال السماع الحسن ، وشهود الأحدية فى الوجود عند أصحاب وحدة الشهود وأصحاب وحدة الوجود .

(٨٤) الرسالة القشيرية فى علم التصوف : ص ٢٧٢ .

(هو الفناء : لم يعرف التصوف القديم الفناء والبقاء تعريفا ما هويا ، بل كانت تعريفاته منصبة على الاضافات مثلا : الفناء عن كذا ، والبقاء هو بقاء بكذا وكذا ، فتعريف الفناء تعداد للفانى من الصفات ، والبقاء تعداد للباقى منها .. ، فالفنى أن تفنى الخصال المذمومة عن الرجل ، والبقاء أن تبقى وتثبت الخصال المحمودة فى الرجل ، فالسالكون يتفاوتون فى الفناء والبقاء ، ببعضهم فنى عن شهوته ، يعنى ما يشتهيه من الدنيا ، فاذا فنيت شهوته بقيت فيه نيته واخلاصه فى عبوديته ، ومن فنى عن اخلاقه الذميمة كالحسد والكبر والبغض وغير ذلك ، بقى فى الفتوى والصدق ، انظر د. سعاد الحكيم ، المعجم الصوفى الحكمة فى حدود الكلمة ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، وانظر الرسالة القشيرية : ص ٦١ ، ٦٢ .

(٨٥) انظر Nicholson (R.) : The Mystics of Islam, Khayats 1966, p. 59-60.

الفصل الخامس

صلة السماع بالمعرفة والوجود

تمهيد :

أولا : السماع والتحقق بالمعرفة .

[١] السماع وأداة المعرفة .
[٢] السماع والكشف الصوفى .
[٣] السماع وموضوع المعرفة .
[٤] السماع وغاية المعرفة .

ثانيا : السماع وشهود الأحدية فى الوجود .

ثالثا : السماع والاتحاد والحلول عند صوفية الشطح .

رابعا : السماع عند الصوفية المتفلسفين من أصحاب الوحدة .

[١] وحدة الشهود
[٢] وحدة الوجود

تمهيـــــد ٠

لقد أوضحنا فى الفصل السابق ارتباط السماع بالمقامات والأحوال عند صوفية الاسلام ، وكيف أن السالك لا ينتقل من مقام الى مقام أو من حال الى حال الا اذا تحقق بالمقام والحال الذى هو عليه ، وكذلـك أوضحنا كيف أن المقامات مكاسب والأحوال مواهب من عند الحـق تعالى ، وأيضاً أوضحنا ارتباط السماع بالمجاهدة ، وذلك يكون عـلى أساسين همـا :

١ ـ رياضة النفس من الناحية الأخلاقية ، وذلك بالتحلى بالصفات والأخلاق الفاضلة التى يعرفها المريد من خلال سماعه والبعد عن ملذات النفس وشهواتها الرذيلة حتى يتحقق بالكمال الأخلاقى ٠

٢ ـ اصطناع المريد الرياضات الروحية كالذكـر ، والخـلوة ، والصوم عن السماع السيىء ، وغير ذلك حتى يتحقق بالمعرفة الالهية ، وذلك من خلال الالتزام بآداب السلوك ٠

أما فى هذا الفصل ، فسوف نلقى الضوء على كيف يتحقق السالك بالسماع الحسن ، من خلال فنائه عن اغواء النفس وشهواتها ، وكل ما يدعوها الى ارتكاب المعاصى والذنوب التى تخرجـه عن حـدود الشرع ٠ وأيضا البقاء بالصفات الفاضلة التى يفهمها المريد من خـلال هذا السماع الحسن ٠

أما الفكرة الثانية فى هذا الفصل فسوف نوضح فيها علاقة السماع بالمعرفة واعتبار السماع مدخلا للمعرفة الالهية ، من خلال اداتها ألا وهو القلب الذى اعتبره الصوفية من أهم مصادر المعرفة عندهم ، فاذا صفا هذا القلب ورق وبعد عن الغلظة وكل ما يؤدى الى فساده تحقق بالنور والاشراق الالهى ، الذى يثمر سعادة ولذة روحية لا ينالها الا كل ذي طهر وصفـاء فى قلبه ٠

ثم نوضح كيف ذهب الصوفية الى القول بأن الوجـود الحقيقى المطلق متحقق فى كلمـات الله المسموعـة ، وهو ما يسميـه الصوفيـة المتفلسفون بالسماع الالهى ، وكذلك نوضح معنى السماع عند الصوفية المتفلسفين من خلال قولهم بوحدة الوجود ، وفناء السالك فى سماعـه عن شهود نفسه وكل ما حوله من الأكوان والأحداث والبقاء فى سماعه بالوجود الواحد الحق ، كأنه يسمع من الحق المطلق الوجود ، ومن ثم ينعم قلب هذا السـالك بمشاهـدة النور الالهى .

أولا : السماع والتحقق بالمعرفة .

يوضح الصوفية أن التحقق بالمعرفة الالهية أمر ضرورى للسامع ، والمعرفة هى أنوار تلقى على السامع القاء ، واذا تحقق العبد بالمعرفة الذوقية أصبح أكثر قربا من الله عز وجل وافتقارا اليه ، والمعرفة الالهية لا تعنى معرفة ذات الحق تعالى ، وانما تعنى المعرفة معرفة الصفات والأسماء ، وهذا ما يسمى بسماع العلم والصحو ، أما المعرفة بالحـال فمن شروطها الفناء والمحو للصفات البشرية المذمومة ، وهذا ما يوضحه بعض الصوفية بقولهم : « السماع على قسمين سمـاع شرط العـلم والصحو فمن بشرط صاحبه معرفة الأسامى والصفات والا وقع فى الكفر المحض وسماع الحال فمن شرط صاحبه الفناء عن أحوال البشرية والتنقى من آثار الحظوظ بظهور أحكام الحقيقة » (١) .

فالصفات الالهية هى صفات العلم والقدرة والكفاية والكمال والخلق وغير ذلك ، أما الأسماء فهى مثل العلم بأنه النافع والضار والوهاب والرحمن والغفور والتواب وغير ذلك ، والتحقق بالمعرفة أول مرحلة يقف عليها السامع من الحق تعالى ، فاذا تحقق العبد بهذه المرحلة كان تاما فى سماعه من الحق ، وحول هذا المعنى يقول الجنيد : « فالعارف هـو الذى يسمع من الله ، ومن لا يعرف الله لا يسمع من الله ومن لا يسمع من الله فالبهيمة خير منه ، وقال تعالى : « **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** » الأعراف آية ١٧٩ (٢) .

اعتبر الصوفية أيضا أن أهل المعرفة غذاؤهم السماع الطيب وهو غذاء الروح الذى يعمـل على تلطف القلب ورقته وصفائه وعدم فسـاده

---

(١) الرسالة القشيرية فى علم التصوف ، ص ٢٦٥ .

(٢) بوارق الالماع فى تكفير من يحرم السماع ، بدون ترقيم صفحات ، وانظر حل الرموز ومفاتيح الكنوز : ص ٥٩ .

وقسوته ، والتخلص من الشوائب المنحطة ، وهذه المعرفة تستلزم صحة القلب والتخلص من الحجب حتى يتم له المشاهدة ، والسامع الصادق يسمع كل ما يقربه من الحق تعالى ، أما أهل البطالة والجهل فغذاؤهم السماع المنحط الذى يعمل على اثارة الشهوات والخبائث ، وهذا ما يوضحه قول بعض الصوفية : « السماع تلطف غذاء الأرواح لأهل المعرفة وملهاة لأهل البطالة » (٣) .

كما يوضح الصوفية أنه اذا التزم المريد فى سماعه بالشروط والواجبات التى يدعو اليه الشرع من سماع الحق وكراهة سماع الأنغام والألحان ، والفناء عن صفات النفس الذميمة والبقاء بصفات الحق تعالى : فانه بذلك يكون قد أحكم قانون العلم فى معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ، وهذا ما يوضحه الغزالى بقوله : « من كان سماعه من الله تعالى وعلى الله وفيه ، فينبغى أن يكون قد أحكم قانون العلم فى معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته » (٤) .

ومن ثم فانه لا يمكن أن يعرف الانسان شيئاً ويحبه دون أن يكون رآه أو سمع به على الأقل ، فالرؤية والسماع من أهم طرق المعرفة الالهية ، ولكنها أقل درجة من المعرفة الحدسية التى هى عند الفلاسفة أتم وأكمل من المعرفة الحسية والاستدلالية .

وإذا كان الصوفية قد اعتبروا السماع مدخلا ومرحلة من مراحل المعرفة ، فان « اخوان الصفا » أيضا اعتبروا الفكر والتأمل وكذلك السمع والنظر من أهم طرق المعرفة المذكورة فى القرآن الكريم ، فالماضى يعرف عن طريق السمع والأخبار ، أما الحاضر عن طريق الاحساس بالموجود ، ومن خلاله يمكن الاستدلال لما هو كائن فى المستقبل ، وهذا ما يوضحه « اخوان الصفا » بقولهم : « ان هناك طرقا ثلاثا للمعرفة فى القرآن هى : « الفكر ، التأمل ، السمع والنظر » ، فبالفكر والتأمل تدرك النفس الموجودات والمعقولات ومن هذه الوسيلة أخذت الأنبياء (عليهم السلام) الوحى من الملائكة ، وعن طريق السمع تقبل النفس

---

(٣) التصوف الاسلامى الخالص : ص ٧٦ ، وانظر احياء علوم الدين : ج ٢ ، ص ٢٧٣ ، وانظر اللمع : ص ٣٤٢ ، وانظر أيضا الرسالة القشيرية ، ص ٢٦٥ .

(٤) احياء علوم الدين : ج ٢ ، ص ٢٦٨ .

معانى اللغات وما تدل عليه الأصوات من الأخبار الغائبة أما النظر فيه تشاهد النفوس الموجودات الحاضرة » (٥) .

كما يذهب الصوفية الى أنه لا تتم المعرفة الالهية للمريد الا من خلال السماع الحسن ، اذ انه اذا عرف السالك الحق تعالى تمام المعرفة من خلال معرفته بالأسماء والصفات الالهية ، ومحاولة التحلى بها والفناء عن صفاته البشرية ، تحقق له فهم ومعرفة معانى المسموع ، وهذا ما يوضحه النفرى بقوله : « اذا عرفت من تسمع عرفت ما تسمع » (٦) .

فالسماع إذا الحق به معرفة وفهم لمعانى المسموع (القرآن) ، كان هذا هو السماع الصحيح ، ذلك لأنه يستمع من الحق تعالى ، فالسماع هو رسول الحق يهدى أهل الحق بالحق ، أولئك هم الذين يخصهم الله بعنايته ولطفه ، وهذا ما أوضحه سعيد بن أبى الخير فى قوله : « وقد يستمع شخص لأحاديث الوصال والفراق وهذا كله يكون وبالا وظلاماً لذلك الشخص ، وعندما يكون العهد مظلما يكون السماع مظلما ، وربما يستمع شخص فى معرفة ، وذلك هو السماع الصحيح ، لأنه يستمع من الحق ، وأولئك هم الأشخاص الذين يخصهم الله بلطفه فالعبودية ملك وموضع اختصاص الله ، وقد اختص هؤلاء بأنهم عباده فيكون سماعهم من الحق بالحق » (٧) .

وإذا فنى السالك فى سماعه وصل الى درجة الكمال التى لا يصل اليها الا عارف مكين يتحقق له فيها الكشف نتيجة فنائه فى سماعه ، وهذا ما يوضحه الهجويرى بقوله : « هو درجة كمال يبلغها العارفون الذين انتهى بهم الطلب الى الكشف ، فرأوا كل مرئى ، وسمعوا كل مسموع وأدركوا كل أسرار القلب ، وأعرضوا عن كل شىء وفنوا فى مقصدهم ، وفنيت فى هذا المقصد ، كل مقاصدهم » (٨) .

وهذا ما ذهب اليه أيضا أبو حيان التوحيدى عندما ينصح السالك بقوله : « يا هذا : غب عن سماع قولى بمسموعه ، فلعلى أيضاً أغيب

---

(٥) مسعد أمين سليمان محمد : الفكر الصوفى عند اخوان الصفا ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٣ م ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٦) النفرى (محمد بن عبد الجبار) : كتاب المواقف والمخاطبات ، تصحيح آرثر يوحنا آربرى ، دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٣٤ م ، ص ٢٣ ـ ٦٧ .

(٧) سعيد بن أبى الخير : أسرار التوحيد ، ص ٢٩٨ .

(٨) طه عبد الباقى سرور : الحسين بن منصور الحلاج ، ص ١٩٩ .

عن قولى بحقيقة مقولى ، فان قلت لى لو بدأت فى قولــك بالتحقيق ، لحصلت فى سماعى على التصــديق ، كان لك ذلك ، ولكن ماذا يضرك ينتهى فى قولى عند اهتدائك فى سماعك ؟ » (٩) .

[١] الســماع وأداة المعرفة .

أداة المعرفة عند الصوفية القلب (١٠) ، والهدف الأساسى من تصفية القلب هو التوصل الى المعرفة الالهية ، وهى نور اليقين وبها يعــرف الانسان نفسه ، ومن ثم يتحقق بالمعرفة للحق تعالى ، واذا ما توصلت النفس الى المعرفة من خلال تجردها عن صفاتها الذميمة تحقق لها اللذة الروحية من خلال الاستماع الى أوامر الحق تعالى ونواهيه ، وهــذا ما يؤكده قول الحسين : « بصائر المبصرين ، ومعارف العارفين ، ونور العلماء الربانيين وطرق السابقين الناجحين ، والأزل والأبد وما بينهما من الحدث لما كان له قلب أو ألقى السمع » (١١) .

والقــلب عنــد الصــوفية هــو الذى يتلقى الأنــوار الالهيــة ، وهو مهبط لأوامره ومستودع الحقائق الكلية الالهية ، وهــكذا يكــون القلب مركز العلم والمعرفة معاً ، بل هو وحده القادر على أن يكون صورة للحق على قدر استعداده ودرجة من الكمال والصفاء ، وهذا ما يوضحه قول « ذى النون المصرى » « السماع وارد حق يزعج القلوب الى الحق فمن أصغى اليه بحق تحقق ومن أصغى اليه بنفس تزندق » (١٢) .

---

(٩) أبو حيان التوحيدى : الاشارات الالهية ، جـ ١ ، ص ١٣٥ .

(١٠) القلب جوهر نورانى مجرد يتوسط بين الروح والنفس ، وهو الذى تتحقق به الانسانية ، ويسميه الحكيم النفس الناطقة والروح باطنه .. ، كما مثله فى القـرآن بالزجاجة والكوكب الدرى ، والروح بالمصباح فى قوله تعـالى :

مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ
فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ
يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ .

والشجرة هى النفس : والمشكاة هى البدن والقلب هو الوسط فى الوجود ، وانظر عبـد الرزاق الكاشــانى ، اصطــلاحات الصوفيــة ، تحـقيق عبـد الخــالق محمود ، دار المعــارف ، ١٤٠٤ هـ ــ ١٩٨٤ م ، الطبعـة الثانية ، ص ١٥٤ .

(١١) عوارف المعـارف ، ص ٢٢ .

(١٢) الكواكب الدرية : جـ ١ ، ص ٢٢٦ ، وانظر الصوفية فى الاسلام ، ص ٦٧ ، ٦٨ ، وانظر التصوف الاسلامى الخالص : ص ٧٦ ، وانظر آداب المريدين : ص ٤٦ ، وانظر الرسالة القشيرية ، ص ٣٦٤ ، وانظر اللمع : ص ٣٤٢ ، وانظر أيضا أصول الملامتية ، ص ٥٤ .

فاليقين بالحق تعالى ينفى عن القلب الشك والريب وكل ما يسير فى القلب من هم أو حزن ، وعندما ينتفى من القلب كل ما سبق تتحقق له كل مظاهر الاشراق والنور الالهى ، وذلك على حد تعبير القشيرى : « فاذا قرعت سمعهم دعوة الحق ابتسمت البصيرة فى قلوبهم فسكنوا الى المسموع لما وجدوا من التحقيق » (١٣) .

واذا كان القلب هو أداة لهذه المعرفة الذوقية عند الصوفية ، فان المعرفة بالله تعالى أمر معنوى لا يتحقق الا اذا صفا القلب ونقى من اغواء النفس وملذاتها ، وغير ذلك حتى يشرق القلب بنور المعرفة ، وهذا ما يوضحه قول العديد من الصوفية منها قول أحمد الرفاعى : « السماع ينفع أرباب القلوب لأنه يحرك أزمة قلوبهم وأسرارهم الى المحبوب وهو يضر بأرباب النفوس لأن النفس تمنع من جانب الحق » (١٤) .

إذن فأداة المعرفة هى القلب الحاضر مع الله تعالى ، وأقربها الى الحق تعالى مارق وصفاً من الأكدار فى سماعه ، وأساسها المجاهدة والرياضات العملية ، والسماع هو يقظة هذه القلوب وحياتها بالمعارف والمواهب الالهية ، وموت النفس وذبحها بسيوف المجاهدة ، أى بقاء القلب بالحق تعالى فى سماعه ، وفنائه عن سماع السوى والأغيار التى تعكر صفوه ، وهذا ما تؤكده أقوال الصوفية منها قول أبى سعيد بن أبى الخير : « للسماع قلب حى ونفس ميت » (١٥) ، وكذلك قول ابن عطاء الله السكندرى : « السماع : هو القلب الذى يلاحظ الحق ويشاهده ولا يغيب عنه خطرة ولا فترة فيسمع به بل يسمع منه ويشهد به بل يشهده ، فاذا لاحظ القلب الحق بعين التجلال فزع وارتعد ، واذا طالعه بعين الجمال هدأ واستقر » (١٦) .

والمعرفة الصوفية إذن هى معرفة ذوقية وجدانية مباشرة وأداتها القلب ومستقرها القلب كذلك ، ليس للعقل أو الحس دخل فيها ، ولا تتم هذه المعرفة عن طريق التعلم أو التدريب ، وانما هى نوع من المدد الالهى يهبط على القلب ، ولا يتم ادراك هذا المدد الالهى الا بالقلب الخالى من الأهواء الغافل عن ملذات وشهوات الدنيا ، غير مشتغل بالسوى ولا يركن الا الى الحق تعالى ويخضع كل شىء للحق تعالى مجردا عن الأكوان النقى سمعه وشهد بصره ، وهذا ما يؤكده قول

---

(١٣) لطائف الاشارات : ج ١ ، ص ١٣٨ .

(١٤) الفجر المنير : ص ٤٩ ، ٨٢ ، وانظر الرسالة القشيرية : ص ٢٦٦ ، وانظر اللمع : ص ٣٤٣ ، وانظر عوارف المعارف ، ص ١٥٥ ، وانظر أيضا آداب المريدين . ص ٤٧ .

(١٥) أسرار التوحيد : ص ٣٤٥ .

(١٦) عوارف المعارف : ص ٢٢ .

عبد الكريم الجيلى : « والقلب عرش الله ، فسماع كلامه على عرشه أعلى ، وأشرف من سماع كلامه على غيره منه المشاهد ، وقد ورد أن الله تعالى يقول : لا يسعنى أرضى ولا سمائى ولكن يسعنى قلب عبدى المؤمن » (١٧) .

فالقلب هو وسيلة وأداة يعلو بها الفرد الى أرقى أنواع السماع ، وحقيقة السماع تنبيه القلب على معانى المسموع والعمل به ، كما أنه رسول الايمان الى القلب ، ووسيلة لتعلمه ، وهذا ما يوضحه قول ابن قيم الجوزية : « السماع رسول الايمان الى القلب وداعيه ومعلمه » (١٨) .

[٢] السماع والكشف الصوفى .

يعتبر الكشف عند الصوفية من أرقى مناهج المعرفة ، وهو منهج ذوقى لا دخل للعقل فيه أو الاستدلال الحسى ، بل هو منهج كشفى ذوقى يأتى عن طريق الالهام الالهى ولا يكتسب بالخبرة أو الممارسة ، وسماع العارفين يكون على أساس مشاهدة النور الالهى من خلال سماع الحق ، فاذا تمكن العارف فى سماعه وأصبح من أهل الحقيقة ، كان سماعه على الكشف ، أى زوال الحجب والأستار بينه وبين مشاهدة النور الالهى ، وهذا ما يوضحه قول أبى بكر الكتانى : « سماع العارفين على المشاهدة وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان » (١٩) .

كما يذكر الصوفية أن المريد يجد فى السماع صحة القلب وصفاءه ورفع الحجب بينه وبين الحق تعالى وينعم بمشاهدة الحق تعالى من خلال الفناء عن نفسه وعن التعلق بالأسباب والأغيار وقت السماع ، واذا أخلص المريد فى سماعه كان من الموقنين والمقربين من الحق تعالى ، أما اذا صم وعمى عن السماع كان من صفات الشك ، وهذا يتضح من قول المكى : « الصالحات هى مقتضى اليقين واللعب مقتضى الشك والسمع والبصر وصفان للمتقين والعمى والصمم وصفان للشك » (٢٠) .

---

(١٧) المناظر الالهية : ص ١٢٥ .

(١٨) مدارج السالكين : جـ ١ ، ص ٢٧٢ ، وانظر تهذيب مدارج السالكين : جـ ١ ، ص ٢٥٩ .

(١٩) عوارف المعارف : ص ١٦٦ ، وانظر قول ابن عطاء الله السكندرى فى مدارج السالكين : جـ ١ ، ص ٥٠٤ ، وانظر أيضا التنوير فى اسقاط التدبير ، ص ١٢٥ .

(٢٠) قوت القلوب ، جـ ١ ، ص ١٩٠ ، ٢٠١ .

من ذلك يتضح لنا أنه اذا تم للعبد الثقة واليقين بمعرفة الحق تعالى من خلال سماعه تم له نوع من الكشف والمشاهدة ، وحينئذ يصبح من المقربين الى الحق تعالى ، فمعرفة السمع فى الاسلام هو أنهم سمعوا به فعرفوه وهذا هو التصديق للمعرفة الالهية ، ثم يلى ذلك الفهم لمعانى المسموع والتدقيق فيها واذا تم له ذلك تحقق بشهود الحق تعالى فى سماعه وفناء الحجب والأستار ، وهذا ما يؤكده قول داود بن ماخلا : « أول هذا الأمر سماع وتصديق ثم فهم وتدقيق ثم شهود وتحقيق » (٢١).

وحقيقة السماع هو اليقين بوحدانية الحق تعالى ، أى مشاهدة أن الأفعال كلها صادرة من الحق تعالى ، والشهود فيما يرى الصوفية هو افراغ القلب عن كل ما يشغله مما هو خارج عنه وقطع الصلة بينه وبين شهواته وقواه الجزئية والتركيز الدائم على التعلق بالله ، والمواظبة على كل ما من شأنه أن يقوى العلاقة بين باطن العبد وبين الحق سبحانه ، وكل ذلك من شأنه رفع الحجب التى اكتسبتها النفس ، ومن ثم يجعل الصوفية السماع مشروطاً بالمشاهدة ، وهذا ما يوضحه قول السهروردى : « وسماعهم على حد الشهود » (٢٢) ، وكذلك قول أبى على الروزبارى : السماع هو مكاشفة الأسرار الى مشاهدة المحجوب » (٢٣) .

كما تتشابه أقوال الصوفية فى ارتباط رياضة السماع بالمعرفة الالهية مع قول ابن سينا ، اذ يرى أن العبد اذا أكثر من الرياضة ، فانه يتحقق بمشاهدة الحق تعالى فى كل شىء ويصبح فى حالة غشية عن كل شىء حوله ، ويتمتع بالسكينة ، وهى أعلى درجات السماع التى يغيب فيها العبد عن كل شىء وتحصل له معارف دائمة مستقرة ويتمتع فيها بالسعادة واللذة الروحية ، واذا ابتعد عنها أصبح حيران آسفا ، وهذا السماع هو سماع خواص الخواص وهى الدرجة الثالثة من درجات السماع وذلك على حد قول ابن سينا : « ثم انه اذا بلغت به الارادة والرياضة حداً ما عنت له جلسات من اطلاع نور الحق عليه لذيذة كأنها بروق تومض اليه ، ثم تخمد عليه وهو المسمى عندهم أوقاتاً ، وكل وقت يكتنفه

---

(٢١) الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ١٧٥ .

(٢٢) عوارف المعارف هامش على الاحياء : ج ٢ ، ص ٢٤٩ .

(٢٣) السماع عند الصوفية : ص ٢٨ ، وانظر تاريخ التصوف فى الاسلام : ص ٥٦٤ . وانظر الرسالة القشيرية ، ص ٢٦٧ ، وانظر قول ابن عطاء الله السكندرى : لطائف المنن والأخلاق : ج ١ ، ص ٣٥ ، وانظر قول أبو سعيد الخراز فى تاريخ التصوف الاسلامى ، ج ١ ، ص ٦٢٠ .

وجدان وجد اليه ووجد عليه ثم أنه لتكثر عليه هذه الغواشى اذا أمعن فى الارتياض ، ثم أنه ليتوغل فى ذلك .. ، فيكاد يـرى الحـق فى كـل شىء » (٢٤) .

كما يرى الصوفية ــ أيضاً ــ أن الروح اذا تجردت عن الجسـد وفنيت ، وخرجت عن نطاق المادة ، وعن جميع ارادتها ، كانت روحاً مجردة عن جميع أستارها ، وكافحت الحقيقة بالنور الالهى الذى منحها الحق سبحانه ، فقد صحت لها المشاهدة ، والمشاهدة الحقيقية هى مجلس الأسـماء الربانية ومقتضاها الانكسـار والافتقار الى الله ، ولذلك يقول الحق تعـالى :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٢٥)

ومن ثم فان ذلك لا يتحقق الا من خلال اثبات وجود القلب واستعداده لما يلقى فيه من أنوار الحق وتجلياته ، والمشاهدة هى سقوط الحجـاب بين الخلق والنور الالهى وهى فرق المكاشفة ، والمستمع الصادق يشتغل بكل ما يقربه من الحق تعالى من الأعمال الصالحة ويعى ما يسمع حتى يتحقق له المشاهدة لنور الحق تعالى ، وهذا ما يؤكده قول عز الدين ابن عبد السلام :

إذا ما كنت مستمعا لقـــول — فبالقلب أسمع من قبـل أذن
وألق السمع تشهد كل معنى — وتسمع فى شهودك كل من (٢٦)

والسماع الحق ليس فقط حضور القلب مع الحق تعالى ومشاهدة النور الالهى وما هو غائب من الأسرار والأنوار ، وانما أيضا الفناء عـن المشاهدة وقت المشاهدة والمكاشفة حتى يتحقق له البقاء بالمشاهدة ، وهذه الحالة لا تدوم طويلا ، وانما هى فترة ثم تزول سريعاً ، وهـذا ما يوضحه قول الفضيل بن عياض بقوله : « كن شاهدا لغائب ولا تكن غائبا لشاهد ، قال كأنه يقول : « اذا كنت فى جماعة الناس فأخـف شخصك وأحضر قلبك وسمعك ، دع ما تسمع ، فهذا شاهد لغائب ، ولا تكن غائباً لشاهد » (٢٧) .

---

(٢٤) ابن سينا (أبى على الحسين) : الاشارات والتنبيهات ، مطبعة ليدن ، ١٨٩٣ م ، ج ١ ، ص ٢٠٣ .

(٢٥) سورة ق : آية (٣٧) .

(٢٦) حل الرموز ومفاتيح الكنوز : ص ٦٧ .

(٢٧) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : ج ٧ / ص ٨٧ ، وانظر تاريخ التصوف فى الاسلام : ص ٥٦٤ .

٣ السماع وموضوع المعرفة ·

يعتبر السماع عند الصوفية مدخلا للمعرفة والفناء فيه لينال السامع عن المسموع له معرفة ذوقية ، وموضوع المعرفة عندهم ذات الله من خلال صفاته وأسمائه ، وهو يرتبط بالسماع عندهم ، حيث ان العارف فى فنائه عن السماع وعن نفسه يتحقق بالمعرفة الالهية بأن يشهد صفات الله وأسمائه ، وفى هذا السماع يكون العبد فانيا عن السماع باقيا بالأزل ، ووهبه الله أنوار الأزلية ، وهذه الأنوار الأزلية هى أنوار أسماء الحق وصفاته ، وفى هذه المعرفة تطمئن قلوب السامعين بذكره وذلك بحسب معرفتها بصفاته وهذا ما يوضحه قول بعض الصوفية : « السماع على قسمين : سماع بشرط العلم والصحو فمن شرط صاحبه الفناء عن أحوال البشرية والتنقى من آثار الحظوظ بظهور أحكام الحقيقة » (٢٨) ·

كما أن هذه المعرفة الصوفية هى معرفة ذوقية ، تدرس ذات الحق عن طريق الصفات والأسماء بطريقة المشاهدة دون تدخل من العقل أو الاستدلال المباشر ، ولكنها تظهر فى العالم الخارجى متمثلة فى الأشياء والمحسوسات ، ومن ثم لا يصبح السماع الا من خلال المعرفة بهذه الصفات والأسماء ، بالاضافة الى فناء القلب عن حب الدنيا وحب الثناء والمحمدة والفناء عن سماع الشهوة ومراعاة حدود القلب والمحافظة عليها ، واذا فعل العبد ذلك فى سماعه كان من التائبين والخاشعين والخائفين يسمع كل ما يحث على الطاعة والمجاهدة والغفلة عن سماع الشيطان ، وهذا ما يؤكده السراج بقوله : « ولا يصح السماع للمريد حتى يعرف أسماء الله تعالى وصفاته حتى يضيف الى الله ما هو أولى به ، ولا يكون قلبه ملوثا بحب الدنيا وحب الثناء والمحمدة » (٢٩) ·

كما ينبه الصوفية الى أنه من كان سماعه الحق من أجل الحق وبالحق والصدق فى سماعه ، كان عارفا بالحق تعالى وصفاته من خلال سماعه لمجالس العلم والحكمة ، عكس من يستمع لما يثير الشهوة والغفلة عن الذكر للحق تعالى فانه يستحيل عليه معرفة الحق تعالى ، ومن ثم يخرج عن حدود العقيدة ، وهذا ما يؤكده الغزالى بقوله : « ومن كان

---

(٢٨) الرسالة القشيرية فى علم التصوف : ص ٢٦٥ ، وانظر الامام القشيرى ، سيرته ، آثاره ، مذهبه فى التصوف ، ص ٢٢٦ ·

(٢٩) اللمع : ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ ·

سماعه من الله تعالى وعلى الله وفيه ينبغى أن يكون قد أحكم قانون العلم فى معرفة الله ومعرفة صفاته ، والا خطر له من السماع فى حق الله تعالى ما يستحيل عليه ويكفر به (٣٠) .

[٤] السماع وغاية المعرفة .

إن السماع الطيب يثمر سرور القلب بالمقدور فى جميع الأمور ، وطيب النفس وسكونها فى كل حال ، وطمأنينة القلب وبعده عن كل مفزع من أمور الدنيا ويقلل همه وغمه وحزنه وألمه ، فيفرغ لعبادة ربه بقلب خفيف من أثقال الدنيا وهمومها وأحزانها ، وغاية المعرفة الالهية السعادة، وهى ترتبط بالسماع عند الصوفية ، فالسعادة الحقيقية موجودة فى خزائن علم الله ومحلها القلب العارف ، وموضوعها صفات الله وأسمائه، والمعرفة الالهية أشرف أنواع المعارف ، وفى هذه المعرفة كمال الانسان وسعادته ، أما ضيق الصدر واظهار الشكوى فانه يظهر فى قلة المعرفة بالله والطمأنينة الى الكفاية ، واللذة (٣١) والسرور والفرح أمر مطلوب فى نفس العبد ، بل هى مقصود كل حى وعاقل ، أما اذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهى تذم ، فلذة السماع تكون فى المجالس الصالحة التى توافق الشرع ، وهذا ما يؤكده قول ابن عربى : « كان فناؤه طربا لحسن السماع بذكر من يهواه » (٣٢) .

ويذهب الصوفية الى أن فناء العبد عن السماع السيىء فيه لذة وطرب النفس لما تسمعه وتبقى عليه من السماع الحسن ، ذلك لأن بين الروح والنغمات تناسباً ، ولذلك تستلذ الروح عند سماع النغمات الحسنة الغير مثيرة للشهوة الجنسية وكل ما من شأنه يعارض الشرع ، وهذا ما يؤكده الغزالى والسهروردى بقولهما : « ان بين النغمات والروح تناسباً وتجانساً فلذلك تستلذ الروح بالنغمات » (٣٣) .

---

(٣٠) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ .

(٣١) اللذة : هى الصبغة الوجدانية التى تصاحب التعبير الانفعالى عن أية غريزة من الغرائز ، والسعادة هى الصبغة الوجدانية التى يتلوها حين تعبر عن الانفعالات الغريزية تعبيرا متوافقا ، انظر ج٠ ١٠ هادفيلد : علم النفس والأخلاق ، تحليل نفسى للخلق ، ترجمة محمد عبد الحميد ، مراجعة د٠ عبد العزيز القوصى ، مكتبة مصر ، ١٩٥٣ م ، ص ١١٧ .

(٣٢) الامتاع بأحكام السماع ، ص ٦٤ .

(٣٣) الامتاع بأحكام السماع ، ص ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧ .

واللذة الحقيقية تتحقق فى معرفة الحق تعالى ، وهذه اللذة أفضل وأكمل من كل لذات الدنيا وشهواتها ، ذلك لأن موضوعاتها أكمل من أى موضوع يحقق لذة فى النفس ، وهذا ما يوضحه قول مالك بن دينار : « ان الصديقين اذا قرىء عليهم القرآن طربت قلوبهم الى الآخرة »(٣٤)، وأصحاب النفوس الفاضلة تلتذ بالسماع الحسن الذى يحصل به رقة القلب والخشوع واثارة الشوق الى لقاء الله والخوف من سخطه وعذابه .

ويذهب الصوفية الى أن صاحب الذوق واللذة الروحية لا ينكر السماع ، وأن النفس التى تلتذ بالسماع وتتفهم معانيه هى من أفضل النفوس وصاحبها من أصحاب الذوق اللطيف ، كما أن عدم التذوق الروحى للسماع يرجع الى غلظة وجمود الطبع ، وهذا ما يوضحه الغزالى والسهروردى بقولهما : « من لم يحركه السماع فهو ناقص عن الاعتدال بعيد عن الروحانية زايد فى غلظ الطبع على الجمال وساير البهايم »(٣٥).

ويصرح الصوفية بأن السعادة الحقيقية الناتجة عن السماع هى سعادة القلوب بسماع اسم الله وطرب الأرواح ولذاتها بشهود النور الالهى ، وهذا ما يؤكده قول القشيرى : « ما سعدت القلوب الا بسماع اسم الله ، وما استثارت الأسرار الا بوجود الله وما طربت الأرواح الا بشهود جلال الله » (٣٦) .

كما يذهب الصوفية الى أن الأذن تستلذ باستماع الأصوات الطيبة الحسنة وتنفر من استماع الأصوات المنكرة لقول الحق تعالى :

وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ
وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

(٣٧) .

وهذا ما يؤكده الغزالى بقوله : « والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة ، وما من شىء من المدركات ألا وهو منقسم الى حسن وقبيح » (٣٨) .

---

(٣٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : ج ٢ ، ص ٣٥٨ .

(٣٥) الامتاع بأحكام السماع : ص ٦٤ ، ٦٥ ، ٨٠ ، وانظر عوارف المعارف ، ١٨٢ ، وانظر اللمع قول بندار بن الحسين ، ص ٣٤٤ .

(٣٦) لطائف الاشارات : ج ٤ ، ص ٤٧ ، ٢٣٣ .

(٣٧) سورة لقمان : آية (١٩) .

(٣٨) الغزالى (أبو حامد) : المحبة والشوق والأنس والرضا ، مكتبة الحلبى ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦١ ، ص ١٣ .

وإذا كانت لذة السماع من أهم اللذات الحسية عند الصوفية ، فانهم قد ذهبوا الى أن أفضل اللذات هى لذة العقل ، لذة المعرفة بمعانى المسموع ، واللذات مختلفة ومتباينة حسب معانى المسموع ، وهذا ما يؤكده الغزالى بقوله : « فينبغى أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى عن سائر اللذات أعنى لذة الشهوة والغضب ولذة سائر الحواس الخمس ، فان اللذات مختلفة بالنوع أولا كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع ، ولذة المعرفة للذة الرياسة » (٣٩) .

وإذا كان ابن سينا قد رفع من شأن العقل على الحواس كلها فى نظرية المعرفة ، فانه أيضا رفع من شأنه اللذة العقلية على اللذة الحسية، كما يرى أن السبب فى عدم احساس شخص ما باللذة العقلية انما يرجع الى تعلقه باللذة الحسية الشهوية التى هى من أهم ما يميز البدن ، ومن ثم تكون نفسه أسيرة لهذا البدن ، اما اذا تخلت النفس عن أهوائها وتجردت من شهواتها بانفصالها عن البدن ، فانها تنتبه لكمالها وعالمها المثالى السابق ، وهذا ما يوضحه الأستاذ الدكتور / محمد عاطف العراقى عندما يعلق على اللذة عند ابن سينا والاعلاء من شأن اللذة العقلية الروحية على اللذة الحسية البهائمية بقوله : « والواقع أننا لو رجعنا الى ما كتبه ابن سينا ، نجده يعلى من شأن اللذة العقلية على اللذة الحسية تماما كما رفع من شأن العقل على الحس فى نظريته فى المعرفة ، بالاضافة الى اصراره على أن اللذة العقلية النفسية اذا كنا لا نحس بها فى وضوح ، فسبب ذلك تعلقنا بالبدن وشهواته بحيث تكون النفس أسيرة البدن ، أما اذا انفصلنا عن البدن ، فان النفس تنتبه لكمالها بعد أن كانت غير منتبهة له بسبب اشتغالها بالبدن الذى ينسيها ذاتها معشوقها » (٤٠) .

لقد ميز الحق تعالى الانسان على سائر الحيوانات بميزة العقل والفهم والمعرفة ومن ثم لا بد له أن يستغل هذه الميزات التى انفرد بها عن غيره ويستغلها فى الاستغلال الحسن ويعمل على الاعلاء من شأنها . وهذا ما ذهب اليه الصوفية وابن سينا ومعظم الفلاسفة ، ومن يحس بهذه الميزة ويحفظها مما يشوبها من الشهوات والأهواء ، يكون ذا احساس مرهف يسمع حركة الأشجار ، وسائر الأصوات الطيبة باحساس يتمتع باللذة والراحة ، ومن ثم تعلو بنفسه الى أقصى مراحل الترقى الأخلاقى ، وهذا ظاهر فى قول ابن مسعود « وأما صفة لذتهم السمعية فهى من كل صوت أو حركة من هفيف شجر ، أو مسير ملك أو تحريك فلك أو كلام بشر أى سائر الأصوات فكل بعض بطبعه

(٣٩) المحبة والشوق والأنس والرضا : ص ٣٢ .

(٤٠) مذاهب فلاسفة المشرق ، ص ٢٩٥ .

اللذة والراحة .. ، ومن لذائذهم السمعية سماع آلات الطرب بسائر أنواعها وتبعث هممهم الى الترقى الى المعارف الالهية .. » (٤١) .

كما يذهب الصوفية أيضاً الى أن لذة السماع لا تقتصر على سماع مجالس العلم والحكمة فقط وانما تمتد لتشمل السماع عن شخص ما يتصف بصفات حسنة مثل البطولة أو الشجاعة ، فمثل هذا السماع يثمر فى قلبه فرحاً وسروراً بهذا الشخص وحبا فى قلبه لما يتصف به من الصفات فضلا عن عدم مشاهدة له وهذا ما يؤكده الغزالى بقوله : « ان الانسان ليسمع فى الحكاية شجاعة على وخالد رضى الله عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلاهما على الأقران فيصادف فى قلبه اهتزاز وفرحا وارتياحا ضرورياً بمجرد لذة السماع فضلا عن المشاهدة ، ويورث ذلك حباً فى القلب ضروريا للمتصف به » (٤٢) .

فلذة السماع الطيب أمر ضرورى عند الصوفية ، ذلك لأن من لم يلتذ بالسماع فان ذلك قصور فى حاسته ، واستحسان الصوت الطيب من الأمور المباحة التى حث عليها الشرع مثل باقى المباحات ، وسماع الخطاب الالهى يثمر فى القلب لذة روحية وسروراً وبعداً عن الأوهام والشك ، وذلك يتحقق من خلال الاستماع لمجالس الذكر والعلم وقت قراءة القرآن الكريم والاستماع له ، فان العبد قد يسمع آية من آيات الذكر الحكيم فينتج عنها لذة روحية تذهب بنفسه الى عالم الروح وتتذكر عالمها السابق قبل أن تحل بالبدن وتغنى عن كل ما حولها أثناء الوجد الناتج عن السماع ، وهذا ما يذكره أحمد الرفاعى بقوله : « ان للحق سبحانه وتعالى كلاما لا يسمع من شيطان وأن صاحب الخطاب يستلذ بذلك بسمعه كما يجد لذاذة معناه بقلبه وأن من الناس من يطلبه فيجده بقلبه وسره بعيدا عن الأوهام والتخيلات .. » (٤٣) .

وعلى الجملة : فغاية المعرفة الالهية التحلى بالصفات والأخلاق الكريمة التى تتحقق من خلال السماع القرآنى ، وهو سماع أهل المعرفة بالله والاستقامة ، وينتج عنه للعقول الخالية والصامتة معارف وعلوم تتغذى بها القلوب المستأنسة بنور الحق تعالى وتنعم باللذة الروحية ، وهذا ما يوضحه ابن قيم بقوله : « وهذا السماع القرآنى سماع أهل

---

(٤١) الطاهر (محمد أحمد بن مسعود) : رسالة المنطق الفهوانى ، مطبعة كردستان العلمية ، ١٩٥٠ ، ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ .

(٤٢) المحبة والشوق والأنس والرضا ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٤٣) الفجر المنير : ص ١٣ ، وانظر روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، ص ٢٦٧ .

المعرفة بالله والاستقامة على صراط مستقيم ، ويحصل للأذهان الصافية منه معان واشارات ، ومعارف وعلوم تتغذى بها القلوب المشرقة بنور الأنس فيجد لها لذة روحانية يصل نعيمها الى القلوب والأرواح ، وربما فاض حتى وصل الى الأجسام فيجد من اللذة ما لم يعهد مثله من اللذات الحسية » (٤٤) .

ومن ثم فالسعادة واللذة الروحية تحقق الاعتدال والثبات النفسى عند صوفى الاسلام ، على حين أن الألم يخلق التلوين واختلال التوازن النفسى ، وذلك من خلال السماع والتفهم لمعانى المسموع ، وهذا يتفق مع ما ذهب اليه ابن سينا فى مذهب اللذة والألم ، وهذا ما يوضحه د. / محمد عثمان نجاتى بقوله : « ولعل ابن سينا قد تأثر أيضا بمذهب أبيقورس فى اللذة والألم ، فاللذة عندهم عودة الجسم الى التوازن والاعتدال ، والألم اختلال التوازن » (٤٥) ، أى أن قيمة السماع لا ترجع الى الناحية الدينية فقط ، وانما أيضا الى الناحية النفسية .

ثانيا : السماع وشهود الأحدية فى الوجود .

لقد أشرنا فيما سلف الى ارتباط السماع بالمعرفة الالهية وأداتها ومنهجها وموضوعها وغايتها ، والآن سوف نوضح مذاهبهم فى الوجود من خلال الفناء فى المعرفة الناتجة عن السماع ، اذ انه على الرغم من أن التصوف فى أصله علم للأخلاق ، فقد خاض بعض الصوفية فى البحث فى الوجود الى جانب البحث فى النفس والأخلاق والمعرفة .

ويمكن تقسيم الصوفية فى تصورهم للوجود وارتباط ذلك بالسماع الى الأقسام الآتية : (٤٦)

١ ـ الصوفية السنيون الذين ينطقون بالآثنينية فى حال الصحو ولكنهم فى حال السكر والفناء ينطلقون الى شهود الأحدية .

٢ ـ صوفية الشطح الذين خضعوا لأحوال الوجد ، فمنهم من يقول بارتباط السامع بالحق تعالى (الاتحاد) ، وهو أمر معنوى شعورى على نحو ما نجده عند أبى يزيد البسطامى وأبى بكر الشبلى ، ولكن ذلك الشعور عندهم لا يدوم ، فيعود الصوفى بعدها الى الآثنينية فيفرق بين

---

(٤٤) تهذيب مدارج السالكين ، ص ٤٥٩ .
(٤٥) الادراك الحسى عند ابن سينا ، ص ٦٢ ، ٦٣ .
(٤٦) قارن بالنسبة لهذه التقسيمات ، مدخل الى التصوف الاسلامى ، ص ١٣٤ .

السماع والحق ، ومنهم من يقول بحلول الأزل فى الانسان فى لحظة أو طرفة عين ويتمادى فى سكره فلا يعود بعدها الى الصحو ، وينتفى عنده القول بالاثنينية بين السامع والأزل (الحق) مثل الحسين بن منصور الحلاج .

٣ — الصوفية المتفلسفون الذين ينكرون حقيقة السماع فى تصورهم للوجود على أساس القول بالوحدة الوجودية .

فمنهم من يقول بوحدة الشهود مثل ابن الفارض ، ومنهم من يقول بوحدة الوجود أو الوحدة المطلقة فينكرون حقيقة السماع مثل ابن عربى وابن سبعين ، فشهود الأحدية فى الوجود شهود عارض يرتبط بالسماع ، وبذلك نجد الصوفية يدرجون تحت الآثنينية لأنهم فى حال الصحو يؤكدون على هذه الأثنينية ، فيفرقون بين المستمع والحق ، أما فى وقت شهود الأحدية ، فان السامع يشهد فناء ما سوى الحق فى وجوده ، ثم يشهد فنائه عن نفسه شهوداً ، وفى هذا الشهود يفنى السامع عن سماعه ، فلا يعود له سماع لفنائه فى شهود الحق فيشهد الوجود بنظرة واحدية هى مضمون الشهود ، وهذا ما يوضحه السهروردى بقوله : « والسماع والالهام يستدعيان وعاء وجودياً ، هذا الوجود موهوب منشأ انشاء ثانياً للمتمكن فى مقام الصحو وهو غير الوجود الذى يتلاشى عند لمعان نور المشاهدة لمن جاز على ممر الفناء الى مقام البقاء » (٤٧) .

والسامع لا يتحقق بشهود الأحدية فى الوجود الا اذا فنى عن نفسه والعالم وجميع الأكوان وفنى عن السماع نفسه . أى الفناء عن شهود المحدثات فى شهود الحق تعالى بحيث تصبح فى حيز العدم ، كما كانت قبل أن توجد ، وذلك ما يؤكده قول ابن القيم : « سماع ينفى العلل عن الكشف ويصل الأبد الى الأزل ويرد النهايات الى الأول » (٤٨) .

كما يذهب الصوفية أيضا الى أن شهود الأحدية فى الوجود ، هو أن الصوفى لا يشهد الا الله ، فلا يرى الكل من حيث انه كثير ، بل من حيث انه واحد ، لكونه مضمحلا فى شهود الذات الالهية ، وعندما يصل الفناء أقصى مراحله يفقد السامع شعوره بنفسه والكون تماما لدرجة يمكن القول معها بأنه قد فنى عن الفناء ، وهذا ما يؤكده الغزالى : « سماع من جاوزوا الأحوال والمقامات فعزب عن فهم ما سوى الله تعالى حتى عزب عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها .. ، ومعها فنى عن نفسه فهو عن

(٤٧) عوارف المعارف : ص ٢١ .

(٤٨) مدارج السالكين : جـ ١ ، ص ٢٨٦ .

غيره أفنى فكأنه فنى عن كل شيء الا عن الواحد المشهود ، وفنى أيضاً عن الشهود فان القلب أيضاً اذا التفت الى الشهود والى نفسه بأنـــه مشاهد فقد غفل عن المشهود » (٤٩) .

ويقول أيضا ابن مطرف فى المعنى السابق : « الموحد يستوحش من الوجد والسماع ويكون فانيا أبداً » (٥٠) .

فالفناء هو الوجه السلبى للبقاء بالله تعالى ، ولم يتم البقاء بالله الا بالفناء عن النفس ، كما لا يتم الفناء هكذا فجأة وبدون مقدمات ، شأنه فى ذلك شأن الوصول الى البقاء بالله تعالى ، وهذا الفناء هـــو فنـــاء معنوى ، اذا يفنى فيه السامع عن الشعور بالاحساس ، كما أن شهود الأحدية هى من غايات المعرفة الالهية ، أى لا يشهد العـــارف الا الله وما عداه وهم وظلال ، وهذا ما يوضحه الغزالى بقوله : « ليس بين العبد وبين الله الا حجاب نفسه وعوارضها ، فاذا فنى عنها وعن عوارضها وعلم قيام العالم كله بقدرة الله تعالى عرف قرب الله تعالى ، فاذا نطق العارف فلا ينطق بنفسه واذا سمع فلا يسمع الا نفسه » (٥١) .

كما يقرر الصوفية السنيون — ايضا — أن المشاهدة للأحدية فى الوجود عليه تعلق القلب بالحق تعالى فى سماعه ، وأن يشهد أن الله هو الوجود الحقيقى ، اما باقى الموجودات فليس لها الوجود الحقيقى ، وانما وجودها زائف ، ذلك لأن جميع الموجودات بما فيها الانسان مستندة فى وجودها ودوام هذا الوجود الى الله ؛ فهو وحده الذى يوجـــدها باخراجها من العدم ثم يشملها بعنايته وامداده وهذا ما يوضحه قول ابن قيم الجوزية « فاذا تجردت الروح وكانت مستعدة وباشر القـــلب روح المعنى واقبل بكليته على المسموع فألقى السمع وهو شهيد وساعده طيب صوت القارىء كاد القلب يفارق هذا العالم ويلج عالما آخر » (٥٢) .

مما سبق يتضح لنا أن من كان سمعه وبصره بالله تعالى ، وجميع حركاته وافعاله بالله تعالى ، كان وجوده بالله تعـــالى ، وشهود الأحدية

---

(٤٩) احياء علوم الدين : جـ ٢ ، ص ٣٧١ .

(٥٠) المكى (أبو طالب) : علم القلوب ، تحقيق عبد القـــادر أحمد عطاء ، مكتبة القاهرة ، ١٩٦٥ م ، ص ١١١ .

(مطرف بن عبد الله بن الشخير ، وكان رضى الله عنه يقول أكثر النـــاس خطايا افزعهم لذكر خطايا الناس ، توفى رضى الله عنه بعد الطاعون الجـــارف لما تولى الحجاج بالعراق سنة سبع ومائتين ، وانظر الطبقات الكبرى : جـ ١ ، ص ٣٧ ، ٣٨ .

(٥١) الغزالى (أبو حامد) : روضة الطالبين وعمدة السالكين ، تصحيح محمد بخيت ، دار الكتب ، ١٩٣٩ م ، ص ١٨٢ ، وانظر عوارف المعـــارف : ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٥٢) مدارج السالكين : جـ ٢ ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

فى الوجود يلزم العبد نسيان السماع وقت الفناء ، والوجود بالحق تعالى فى حال البقاء ، ذلك لأن حقيقة السماع الا يدوم نظر العبد الى غير الحق تعالى ، وهذا ما يوضحه ابن عجيبة الحسنى بقوله : « فمن كان يرى سمعه بالله ، وبصره بالله ، وحركته بالله يرى وجوده بالله » (٥٣) .

وأهل الكمال عند الصوفية هم الذين حجبهم الله تعالى عن سماع كلام غير كلامه أو مشاهدة ما سواه ، فهم أهل السماع والشهود المطلق للحق تعالى ، ومن ثم ينعمون بلذة الخطاب الالهى من خلال صفات القلب ونقائه ، وهذا ما توضحه العديد من أقوال الصوفية ، من بينها قول عبد الوهاب الشعرانى : « أهل السماع المطلق والشهود المطلق هم الذين حجبهم الله تعالى عن سماع كلام غيره أو شهود واحد غيره ٠٠ ، وهم أهل الكمال الذين لا ينحجب أحدهم عن الخلق عن الحق ولا عكسه »(٥٤) .

كذلك يتضح لنا — ايضاً — أن الصوفية السنيين قد جعلوا شهود الأحدية فى الوجود من أعلى مراتب السماع الحق ، ذلك لأن السامع فى هذه الدرجة يكون قد تحقق من النور الالهى ، وذلك من خلال انصراف القلب عن كل ما يشغله من أمور الدنيا وزخرفها واشراقه بالنور الالهى وبهائه وقت السماع .

ثالثا : السماع والاتحاد والحلول عند صوفية الشطح .

وإذا كان بعض الصوفية قد ذهبوا الى القول بشهود الأحدية فى الوجود أثناء السماع ، فان البعض الآخر قد ذهب الى القول بالاتحاد والحلول أثناء السماع أيضاً ، فالصوفية الاتحاديون ، ينطقون بالأثنينية بين المستمع والحق فى حال الصحو (البقاء والاثبات) ، أما فى حال السكر (الفناء والغيبة) فانهم يشعرون باتحاد المستمع مع الحق تعالى ، بحيث لا يعود السامع مشاهداً الا حقيقة واحدة هى الحق أو الوجود المطلق ، ذلك لفناء سماعه فيه ، ولذلك أنشد الشبلى :

ذكرتك لا أنى نسيتك لمحة ... وأيسر ما فى الذكر ذكر لسانى
وكدت بلا وجد أموت فى الهوى ... وهام على القلب بالخفقان
فلما أرانى الوجد أنك حاضرى ... شهدتك موجوداً بكل مكان

---

(٥٣) ايقاظ الهمم فى شرح الحكم : ص ٢٨٠ .

(٥٤) عبد الوهاب الشعرانى : بهجة التقوى والأخلاق فيما يميز به القوم من الأدب والأخلاق ، رقم ٣٩ تصوف ، ميكروفيلم ١٠٤٠٦ ، عدد ورقة ٣٢٠ ق ، بدون ترقيم صفحات .

فخاطبت موجـــوداً بغير تكــلم ولاحظت معلوماً بغير عيان (٥٥)

ليس بين المستمع والله حجاب الا حجاب النفس الكثيفة وعلائـــق القلب الكونية ، لذا يجب قطع هذه العلائق والعوائق حتى تفيض على القلب العوارف والمعارف الربانية وذلك من خلال الذكر ، وعدم الغفلة فى وجود الذكر الناتج عن السماع وما يثمر عنه من وجد وهيام ، ومن ثم يتحقق بالوجود بالحق تعالى .

وكذلك يرى صوفية الشطــح أن العبد اذا وصـــل الى حـــالة الشعور بالاتحاد الالهى فان ذلك يرجع الى العديد من الأسباب ، منها شدة الوجد الناجم عن السماع ، وكذلك يشعر أن هويته هى هويـــة الوجود الشامل الذى هو الله ، وأيضا حال السكر الذى يشعر فيـــه المستمع بالاتحاد ، وأخيراً فناء المستمـــع عن نفســـه اثناء الســـماع ولا يسمع الا هاتفا الهياً من داخل نفسه يدعوه الى الاتحاد ، وهذا ما يوضحه قول عبد الرحمن بدوى : « هناك عناصر ضرورية لوجود ظاهرة الشطح هى : أولا شدة الوجـد ، وثانيـاً : أن تكون التجربة تجربة اتحاد ، وثالثا : أن يكون الصوفى فى حال سكر ، ورابعا : أن يسمع فى داخل نفسه هاتفاً الهياً يدعوه الى الاتحاد فيستبدل دوره بدوره ، وخامسا ان يتم هذا كله والصوفى فى حال من عدم الشـــعور ، فينطق مترجماً عما طاف به متخذاً صبغة المتكلم وكأن الحق هو الذى ينطق بلسانه » (٥٦) .

والمستمع الحق عليه الصعود الى مرحلة الاستغراق الكامل فى شهود الأحدية ، وذلك بالغيبة عن نفسه فى حال الفناء فيفنى عـــن كل اسم ووصف ورسم وكل ما هو كائن ، وذلك لاستيلاء الحق عليه فى حال الشهود حتى يشعر بالاتحاد مع الحق تعالى : « ولهــذا ســـمع ابراهيم بن أدهم وهو أحد المحبين قائلا يقول فى سياحته نظماً :

---

(٥٥) نشأة التصوف الاسلامى : ص ٢١٢ ، وانظر التصوف حياة وسلوكا : ص ٧٧ ، وانظر قدوة السالكين ، ص ٨٦ ، وانظر شرح تائية السلوك الى ملك الملوك : ص ٥٨ ، وانظر د. عبد الحليم محمود : أبو مدين الغوث ، حياته ومعراجه الى الله ، دار الكتب ١٩٧٤ ، ص ٦٢ .

(٥٦) نظرية الانسان الكامل عند عبد الكريم الجيلى ، ص ١٢٩ .

(هو أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى ، مات سنة احـدى وستين ومائتين ، وكان يقول عرفت الله بالله وعرفت ما دون الله بنور الله ، انظر طبقـات الكبرى : جـ ١ ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، وانظر د. عبد الحليم محمود أبو يزيد البسطامى ، دار التراث العربى للطباعة والنشر ، ١٩٧١ م ، ص ٢٨ .

كل شيء لك مغفور سوى الاعراض عنى
قد وهبنا منك ما فات بقى ما فات منى
فاضطرب وغشى عليه فلم يفق يوما وليلة)) (٥٧)

وهذا ما يعبر عنه بالفناء عن الارادة ، والوجود بالارادة الالهية ، أى الاتحاد الشعورى بالذات الالهية فى حال السكر والفناء .

أما القول بالحلول وهو شكل آخر من أشكال الفناء الذى يغيب فيه السامع عن نفسه وعن سماعه فى الأكوان فينطلق بشطحات منها شعوره بحلول الحق الأزلى الوجود فى الانسان المحدث الوجود فى حال السكر ، وظهور الله فى الانسان لا يعنى حلولا ، أو اتحادا بالمفهوم الحسى وانما يعنى أن الله يظهر بصفاته فحسب فى الانسان مع تمايز الله عن الانسان تمايزاً تاماً ، وهذا ما يؤكده الطوسى بقوله : « ان الصوفى فى حالة الشطح مغلوب على أمره تماماً ، ولذلك فهو معذور فيما يصدر عنه فى هذه الحالة من عبارات ، ويضرب مثلا بالماء الكثير اذا جرى فى نهر ضيق فانه يفيض عن حافتيه ، ويقال شطح الماء فى النهر ، فكذلك المريد الواجد اذا قوى وجده ، ولم يطق ما يرد على قلبه ، نطق بعبارات مستغربة مشكلة على فهم سامعها ، وعلى السامع أن يسأل عنها من يعلم علمها ولا يسارع الى الانكار » (٥٨) .

وإذا كان الفناء قد أدى بالبسطامى الى القول بالاتحاد ، فانه قد أدى بالحلاج الى القول بالحلول وهو فناء الارادة الانسانية تماما فى الارادة الالهية بحيث يصبح كل فعل صادر عن الانسان صادراً عن الله ، وهذا الحلول كما سبق أن وضحا هو حلول شعورى وليس حلولا حقيقياً ، ولهذا فان حلول الحلاج الذى يتم فى حال الفناء عن شهود السوى لا يختلف عن مذهب وحدة الوجد من خلال الفناء عن الشهود عند ابن عربى وغيره .

وينتهى الصوفية الاتحاديون الى القول بالاتحاد مع الحق تعالى ، فلا سماع عندهم الا من الحق تعالى ، فلا يشعرون بالسماع ولا بأى

---

(٥٧) قوت القلوب : ج ٢ ، ص ١١٥ ، وانظر نشأة التصوف الاسلامى : ص ٢٢٤ ، وانظر الكشكول : ج ١ ، ص ٧١ ، وانظر أيضا ترتيب السلوك فى طريق الله تعالى . ص ٧٥ .

(٥٨) اللمع : ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، وانظر مدخل الى التصوف الاسلامى : ص ١٢٠ . ١٤٤ ، وانظر الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامى : ص ٦٥ ، ٧٣ .

شيء من الأغيار والسوى وقت الاتحاد مع الحق تعالى ، وذلك فى حال الفناء ، هذا الفناء هو ثمرة وجد صوفى لا غير ، وكذلك نتيجة معاناة نفسية لا يشعر بها كل فرد ، وعندما تنتفى هذه الحالة ويعود الى حال البقاء يقول بالأثنينية بين الارادة الالهية والارادة البشرية ، وهذا ما يوضحه العديد من أحوال الصوفية ، منها شطحات الحسين بن منصور الحلاج حيث أنشد :

عجبت منك ومنى أدنيتنى منك حتى
أدنيتنى منك حتى ظننت انك أنى
وغبت فى الوجد حتى أفنيتنى بك عنى

ثم أخذ يترنم ويرقص ، وهو فى حالة من النشوة العارمة والوجد العنيف (٥٩) .

مما سبق يتضح لنا أن أصحاب نظرية الاتحاد والحلول هم أصحاب نظرية نفسية تعبر عن حالة المريد فى الوجد الناتج عن السماع الحسن والفناء فى هذا السماع ·

رابعا : السماع عند الصوفية المتفلسفين من أصحاب الوحدة ·

[١] وحدة الشهود ·

يذهب صوفية وحدة الشهود الى أن المستمع لا يتحقق بشهود الوحدة فى الوجود الا فى حال الفناء ، أى لا يشعر بجوارحه أو بالعالم الخارجى ونفسه وقت السماع الحق ، ومن ثم يشعر بشهود الأزل ، وما ذلك الا لاستغراقه فى شهوده وغيابه عما سواه بالكلية ، فعندما يكشف الحق تعالى عن وجوده تنتفى الظلمة العدمية بظهور نوره الأزلى ، فالوجود الحقيقى للحق تعالى ، وأما الصور العدمية فهى النفس والعالم والكائنات ، وعلى أساس ذلك ينصح الصوفى ابن الفارض السامع اذا أراد أن يشهد الوحدة ضرورة أن يجعل كل سماعه شهوداً للحق ، والاستغراق فى شهود الأزلية ليتحقق له نور الحق الأزلى ، ومن ثم يتخذ ابن الفارض من شعره تعبيراً عن وحدة الشهود تعبيراً ذوقياً من خلال السماع الحسن فيقول :

---

(٥٩) د· طه عبد الباقى سرور : الحسين بن منصور الحلاج شهيد التصوف الاسلامى ، دار نهضة مصر ١٩٨١ م ، ص ١٤٤ ، وانظر أخبار الحلاج أو مناجات الحلاج : ص ١٠٠ ، وانظر الكواكب الدرية ، جـ ٢ ، ص ٢٦ ·

وكلى لسان ناظر سمــع يــد لنطق وإدراك وسمــع وبطشه
ففيى ناجت واللسان مشاهــد وينطق منى السمع واليد أصغت
وسمعى عين تجتلى كل ما بدا وعين سمع أن شهد القوم تنصت(٦٠)

وهذه هى وحدة الشهود ، فلا يرى ولا يسمع ولا يحس ولا يكلم الا مولاه ، غائبا عن كل ما سواه ، فاذا عاد اليه عقله رأى الحق ، وفى مقام الجمع أو الاتحاد تتمثل الوحدة عندما يصل السالك الى هذا المقام حيث تختلف وظيفة حاسة معينة بوظيفة حاسة أخرى ، فاذا تكلم الانسان أصبحت نفسه كلها لسانا ، واذا بصر صارت نفسه كلها عينا وكذلك اذا سمع كانت نفسه كلها أذنا ، ونظرية الوحدة أى وحدة الشهود عند ابن الفارض وغيره تنفى القول بالاثنينية بين الله والانسان وتجعل الله متجليا فى كل مظاهر الوجود المتعددة ، كما أن وحدة الشهود هى فناء السوى فى حال الشهود الحسى .

كما يثبت ابن الفارض نظرية وحدة الشهود من خلال القول بالمحبة الالهية فى مقام الجمع والاتحاد ، فالاتحاد بين المحب والمحبوب ليس اتحادا وجوديا وانما هو اتحاد شعورى يشهد فيه المحــب الوجــود الواحد المطلق للحق تعالى ، ومن ثم يشعر بأن الحق تعالى هو سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ومن شأن هذا الحب الالهى عند ابن الفارض وغيره من الصوفية أن يقترن بحال الفناء الذى يغيب فيه الصوفى عن ادراكه لذاته لفنائه فى المحبوب وهو الله ، ولا يعود فى هذه الحالة يشعر بنفسه ولا بشىء من لوازمها ، وبعد ذلك الفناء يعود الصوفى الى حال البقاء الذى يشعر فيه بنفسه وبالعالم الخارجى ، وهذا ما يعبر عنه ابن الفارض بشعره :

فكن بصرا ونظراً وسمعا وعه وكن لسانا فالجمع أهدى طريقه (٦١)

وكذلك يقــول :

ليشهد سمعى من أحب وان نأى بطيف ملام لا بطيف منــام (٦٢)

كذلك يعبر جلال الدين الرومى (ت ٦٧٢ هـ) عن شهود الوحدة فى الوجود من خلال عاطفة الحب الالهى التى غلبت عليه مثل ابن الفارض ،

(٦٠) ابن الفارض والحب الالهى : ص ٢٦٤ .
(٦١) ابن الفارض والحب الالهى : ص ١٩٩ ، ٦٨ .
(٦٢) ابن الفارض والحب الالهى : ص ١٩٩ ، ٦٨ .

فالمشاهد للوحدة فى الوجود يشاهد عظمة الحق تعالى وانفراده بالوجود الحقيقى ، وكذلك لا يستطيع فى شهوده واستغراقه التام مع الحق أن يسمع أى شيء من هوى نفسه ، بل يكون فى فناء عن الأغيار والأسباب، اذن ، فالمستمع فى شهود الوحدة يفنى عن نفسه وعن السماع فلا يعود يرى موجودا سوى الحق فى الوجود ، فالله هو الحقيقة المطلقة الوجود ، وما عداه فوجوده نسبى متكثر متعدد ، ولهذا صار السماع عند ابن الرومى غذاء للعاشقين وفيه شهود الوحدة والاجماع ، وهذا ما يوضحه بقولـــه :

لقد صار السماع غذاء العاشقين وفيه خيال الاجماع (٦٣)

[٢] وحـــدة الوجـــود •

لقد ذهب صوفية الوحدة الى القول بأن وحدة الوجود يستتبع القول بالفناء عن كل شيء وقت السماع والبقاء بصفات الحق تعالى وكذلـــك الشعور بأن وجود الحق تعالى متجل فى جميع المخلوقات ، فالحق تعالى هو الوجود الواحد المطلق والأغيار لا وجود لها الا به ، كما أن الوجد أساس الوجود ، وهذا ما يضحه ابن عربى بقوله : « كل سماع لا يكون عنــه وجــد وعن ذلك الوجد وجــود فليس بسماع .. ، كما قال تعالى (**كن فيكون**) بمنزلة الوجود الذى يجده أهل السماع فى قلوبهم من العلم بالله الذى أعطاهم السماع فى حال الوجد فمن لم يســـمع ســماع وجوده فما سمع » (٦٤) .

فالوجد حال يثمره الحق تعالى عن السماع الحســـن يفنى فيـــه المستمع عن وجوده وكل ما حوله ولا يشعر بشيء الا بوجـــود النـــور الالهى ، وهذا الحال لا يدوم الا قليلا ، فلابد للمريد من العودة الى حال البقاء بعد ذلك الفناء الناتج عن الوجد ، حتى يحس بمـــا حوله ، والا يعتبر ذلك الوجد غير حقيقى ، ويسمى تواجـــدا وهو استدعاء الوجـــد والتظاهر به .

ولكى يتحقق القلب بالفناء عن السوى والبقاء بالحق لا بد له مـــن الطهارة ، (وطهارة القلب من حيث هى ضرورة للمعرفة ــ تتم بالوســـائل

---

(٦٣) التصوف فى الاسلام : ص ٥٦١ .

(٦٤) الفتوحات المكية : ج ٢ ، ص ٤٨٤ .

العملية كالمجاهدات والرياضيات ومنها الخلوة والذكر فهما معاً وسيلة القلب لقطع كل الشواغل التى تقطعه عن الحق من ناحية ، وهما معاً يسهمان — فى الوقت نفسه — فى حصول المعرفة للانسان اذا ما أحكم كل منهما فالخلوة وسيلة للقلب تمكنه من نفى الأغيار عنه بوضعهم عين الحجاب عن الحق .. ، والذكر — أيضاً — لا يقل أهمية عن الخلوة فى تحقيق التجلية للقلب من ناحية وفى حصول المعرفة بالله عن طريق من ناحية أخرى » (٦٥) .

ويذهب الدكتور / أحمد الجزار الى القول بأن معنى الفناء عند ابن عربى هو حالة الاستغراق التام من جانب الانسان فى موضوع ما ، وهو بالنسبة للصوفية ، هو الحق تعالى ، وهذا الاستغراق الذى يقصدونه من الفناء ، هو حالة قد تلازم أى انسان اذا أدام النظر والتفكير فى مسألة معينة ، فهذه أدنى درجات الفناء فى حكم المتفكر لأنه « اذا استغرق الانسان الفكر — كما يقول ابن عربى فى أمر من أمور الدنيا أو فى مسألة من العلم ، فتحدثه ولا يسمعك وتكون بين يديه ولا يراك » (٦٦) .

ويقسم ابن عربى الفناء الى العديد من الأقسام ، أما القسم الثالث من الفناء هو الذى يفنى فيه العبد عن صفات الخلق والبقاء بصفات المحبوب ، واذا ما وصل العبد الى هذه المرحلة كان قد بلغ مرتبة الانسان الكامل ، وهذا ما يوضحه ابن عربى بقوله : « وأما النوع الثالث من الفناء ، فهو الفناء عن صفات الخلق لقوله تعالى فى الحديث القدسى « كنت سمعه وبصره ويده ... » فالسمع والبصر واليد وغير ذلك هى من أعيان الصفات التى للعبد ، فاذا فنى فى المحبوب — الحق تعالى — أتيح له هذا الفناء أن يكون عين الحق بصفاته ولكنه من حيث عينه الثابتة هو نفسه التى اتخذها الحق تعالى مظهراً وظهر فيه ، فلما فنى الانسان فى الحق تعالى قامت فيه صفات الحق » (٦٧) .

فوحدة الوجود عند ابن عربى هى امتداد لوحدة الشهود ، ومن ثم يحاول ابن عربى اثبات وجود الحق من خلال الفناء فى السماع ، وهنا

---

(٦٥) د. أحمد محمود الجزار : الفناء والحب الالهى عند ابن عربى ، مكتبة نهضة الشرق ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٠ م ، ص ١٤٥ .

(٦٦) نفس المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

(٦٧) الفناء والحب الالهى عند ابن عربى : ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

الفناء ليس غاية فى ذاته وانما هو أداة للتحقق بالوحدة الوجودية . و هذا ما يؤكده قول ابن عربى (وليس مرادنا من الاتحاد الا شهود الوجود الحق الواحد المطلق الذى هو الكل به موجود ، وصح الحديث بالاتحاد (كنت سمعه) الى آخره فيجد الكل به من حيث كل شىء موجود به ، معدوم بنفسه الا من حيث أن له وجوداً خاصاً اتحد به ، فهو محال » (٦٨) .

فابن عربى يؤكد الوجود من خلال القول بالاتحاد أثناء السماع ، ولكن هذا الاتحاد ليس اتحاداً مادياً بين العبد والرب وانما هو اتحاد شعورى نتيجة للحالة النفسية التى تنتاب المريد وقت السماع ، وهذا ما يوضحه الدكتور الجزار بقوله « وهذا المعنى الذى حدده ابن عربى لوحدته من خلال الاتحاد ، يرمى به الى شهود الوجود المطلق الذى هو عين كل حقيقة كل موجود ، ومع ذلك لم يرم ابن عربى منه الى توكيد الاتحاد حقيقة بين العبد والرب أو بين الخالق والمخلوق وانما هى وحدة تتم من خلال الحالة النفسية التى يحياها المحب الفانى فى محبوبه .. » (٦٩) .

كذلك يرى صوفية الوحدة أن السماع الحق هو السماع المطلق الذى لا يتقيد بشرط أو يتعلق به قلب السامع وفيه الفناء عن السوى والنفس والسماع نفسه وقت الوجد ثم البقاء بهذا السماع بعد الفناء ، أى أن السماع أصل الوجود ، وهذا ما يوضحه شعر ابن عربى :

خذهـا اليك نصيحة من مشفق ... ليس السماع سوى السماع المطلق
واحذر من التقيد فيه فأنـه ... قـول بعيد عن كل محقـق
إن السماع من الكتاب هو الذى ... يدريه كل معـلم ومطـرق
إن التغنى بالقرآن سماعنـا ... والحق ينطـق عن كل منطق
والله يسـمع ما يقـول عبيده ... من قوله فسماعـه يتحـقق
أصل الوجود سماعنا من قول كن ... فيه نكون ونحـن عين المنطـق
فالسمع أشرف ما تحقق عارف ... يتعلق وتحقق وتخلـق » (٧٠)

---

(٦٨) الفناء والحب الالهى عند ابن عربى : ص ٢٣٢
(٦٩) الفناء والحب الالهى عند ابن عربى ، ص ٢٣٣ .
(٧٠) الفتوحات المكية : جـ ٢ ، ص ٤٨٣ ، انظر خلوة الاخوان ونصرة الخلان فى جميع اللطائف والأعيان : ص ٤٧ ، ٤٨ .

وعلى ذلك فالسماع المطلق هو وحده السماع الحقيقي وهو سماع القرآن الكريم . أى كلام الحق تعالى ، وما عداه من سماع هو سماع مقيد لا وجود له فى الحقيقة ، والله تعالى يسمع ما يقوله عبيده ومن ثم فسماعه يتحقق ، فالسماع هو أصل الوجود . ذلك لأن وجود السماع هو عين سماع الحق ، ومن ثم هو عين وجود الحق تعالى ، ولا يتحقق بهذا السماع الا عارف متحقق بالمعرفة الالهية .

كما يذهب ابن عربى الى أن العبد اذا تحقق بالسماع وفنى فى سماعه عن السوى تمت له المكاشفة ورفع الحجب والاستار بينه وبين الحق تعالى ، وهذا ما يوضحه بقوله : « كل من تحقق بسماعه من وراء حجاب تخلق على ذلك القدر بسماعه على الكشف وارتفاع الوسائط .. ، فالعبد المحقق فى السماع لا يزال يسمع بالحق حتى يسمعه الحق .. ، والعبد فى الحق موجود فى حقيقته مفقود » (٧١) .

اى أن العبد فى سماعه الحقيقى موجود ومتحقق ، فان عن كل ما سوى الحق تعالى حتى السماع نفسه فان عنه .

كما يذهب الصوفية الى القول بأن الوجود الحقيقى المطلق متحقق فى كلمات الله المسموعة ، هذا السماع الالهى هو سماع روحانى ، اذ يسمع المريد فيه من كل شيء حوله من الأصوات وحركة الأشجار وصرير الباب ، وكذلك يسمع ويرى وجود الله فى كل شيء وبكل شيء وهذا السماع الروحانى يتبعه علم ومعرفة عكس السماع الطبيعى لا يكون معه علم أصلا ، وهذا ما يوضحه ابن عربى ، عندما يقسم السماع الى : « سماع الهى ، وسماع روحانى وسماع طبيعى ، فالسماع الطبيعى لا يكون معه علم أصلا ، والسماع الروحانى فتعلقه صريف الاقلام الالهية فى لوح الوجود المحفوظ من التغير والتبديل ، والسماع الالهى بالأسرار ، وهو السماع من كل شيء ، وفى كل شيء ، وبكل شيء ، والوجود عندهم كله كلمات الله » (٧٢) .

وكذلك يقول : « والسامعون شخصان عند ابن عربى : شخص يسمع بنفسه ، وشخص يسمع بعقله ، لكن للعقل سمعان : سمع من حيث فطرته ، وسمع من حيث الوضع ، فالذى له من حيث الوضع هو الذي قيل عنه : يسمع بربه وعلامته فى ذلك البهت وخمود البشرية ،

---

(٧١) مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار ، ص ٧٨ .

(٧٢) دراسات فى التصوف الاسلامى ، شخصيات ومذاهب ، الاسكندرية ، دار الفكر العربى ، بدون تاريخ ، ص ٣٢٠ .

والذى يسمع بنفسه لا بعقله لا يسمع الا النغمات والأصوات العذبة الشهية ، وعلامته أن يتحرك عند السماع بحالة فناء عن الاحساس » (٧٣) .

كذلك يرى صوفية الاسلام أن للعبد مقاماته وأحواله ورياضاته لا يخرج عن نطاق الوحدة المطلقة وزوال الاضافة والأسباب ، وهذا ما يوضحه ابن سبعين بقوله : « المقامات والأحوال التى هى ثمرة الذكر لا تخرج عن نطاق الوحدة ، وكذلك الخلوة والعزلة والصوم والدعاء ، بل والسماع أيضاً جميع ذلك عنده ينتهى بالسالك أو المسافر الى زوال الاضافة والتحقق بالوحدة المطلقة » (٧٤) .

فالوحدة التى يقصدها ابن سبعين هى وحدة شعورية وليست وحدة مادية كما سبق أن ذكرنا عند ابن الفارض فى الحب الالهى .

ويرى الأستاذ الدكتور / التفتازانى أن ابن سبعين يتفق أيضاً مع الصوفية فى أن السماع وسيلة الى رد الفائت من الأحوال وحفظها ، والى راحة الفقراء فى سلوكهم ولكنه يختلف معهم فى أنه يفلسف السماع على طريقته ، فيجعل تلك الراحة التى تحدث للنفس فى السماع نتيجة تهيئها لقبول الأمر الذى لا من جنس ما يكتسب ، ويعنى بذلك علم التحقيق ، وتعلقها بالنظام القديم الذى هو عين الوحدة المطلقة ، فيقول : « والسماع يكون فى وقت الحاجة اليه .. ، لأن السماع يطلب به خمس فضائل : الأولى رد الفائت من الأحوال ، والثانية حفظ ما يحث الملكية ، الثالثة استجلاب ما لم يفهم بالمدرك الفقير (لعله يعنى به العقل) .. ، لأن القلوب فى السماع منشرحة ، تنتظر ما يخلق فيها وما يحدث عنها من النظام القديم (أى الوحدة المطلقة) » (٧٥) .

وخلاصة القول ان صوفية الوحدة ترى أن القول بوحدة الوجود يستتبع القول بأن كل وجود وكل عمل وحركة وسماع هى فى الحقيقة لله تعالى ، وهذه الوحدة تستلزم من العبد السامع تنزيه الله عن جميع صفات الخلق ، وكذلك الشعور بأن وجوده متجل فى جميع المخلوقات ، وأيضا المعرفة بأن الارادة الالهية المطلقة هى وحدها العلة فى وجود كل

---

(٧٣) على عبد الجليل راضى : الروحية عند ابن عربى ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٤٦ م ، ص ١٩٢ .

(٧٤) مدخل الى التصوف الاسلامى ، ص ٢٥٩ .

(٧٥) ا. د. أبو الوفا التفتازانى : ابن سبعين وفلسفته الصوفية ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٧٣ ، الطبعة الأولى ، ص ٤٥١ ، ٤٥٢ .

شيء فى العالم ، والفناء عن صفات النفس والأغيار والسوى أثناء السماع ، ومعرفة أن الأغيار والسوى لا وجود لها ، ومن ثم لا يصبح العبد سامعا ، ولا عارفا اذا ثبت للأشياء وجود فالحق تعالى هو الوجود الواحد ، والوجود المطلق والعالم والأغيار لا وجود لها الا به ، وهذا ما يوضحه ابن عربى بقوله : « فان لم تتفرغ الخواطر للسماع لم تتفرغ الأعضاء للتخلق واذا لم يصح التخلق لم يكن التحقق » (٧٦) .

---

(٧٦) مواقع النجوم ومطالع أهل الأسرار ، ص ٨٢ .

خاتمة

والآن ، بعد أن انتهينا من دراسة موضوع السماع لدى صوفية الاسلام وما ينطوى عليه من المعانى الصوفية والتصورات الفلسفية ، وجب علينا أن نلم فى هذه الخاتمة بأهم النتائج التى توصلنا اليها فى بحثنا هذا ...

أولا :

آلة السماع الأذن ، وان باقى الأجزاء الموجودة بالجسم لا تتمتع بحاسة السمع لما فى الأذن من هواء داخلى يتحرك بالهواء الخارجى ، وأن الأصوات نوعان : طبيعية ، وغير طبيعية وكلاهما ينقسم الى نوعين .

ولقد وردت العديد من الأحاديث والآيات القرآنية الكريمة التى تحث على السماع الحق (القرآن الكريم) والأشعار التى تحث على الطاعة وتذكر بيوم اللقاء ، وكذلك تعارض هذه الأحاديث السماع السيء المير للشهوة والهوى فى نفوس المستمعين ، مثل سماع الغناء والأشعار بالنغمات والألحان والموسيقا وآلات الطرب الحديثة المختلفة .

كما ينبنى على ذلك كراهة أئمة الفقه لسماع الغناء واعتباره منبت النفاق فى القلب ، لكنهم أباحوا سماع الأناشيد والأشعار التى تحث

على الطاعة والقيام بأوامر الحق ونهيه ، فاذا كان اهل الصوفية والفقه قد أباحوا سماع الأشعار فانهم كرهوا سماع هذه الأشعار بالألحان مع استخدام الآلات الموسيقية الحديثة ، وانما استخدموا مع الانشاد الدينى الدف والمزمار وهى الآلات التى استخدمت منذ عهد الرسول ﷺ عندما قام أهل المدينة باستقباله بالانشاد والضرب على الدفوف .

إذن فالزهاد الأوائل اعتبروا السماع الحق ، سماع القرآن الكريم ومجالس العلم والحكمة ، كما أنهم أيضا أباحوا سماع الترفيه قليلا من أجل الاستجمام من تعب الوقت وأعباء الحياة ، ومن ثم فالسماع من الرياضات الروحية التى يمارسها المريد من أجل التطهر والصفاء ، وهذا لا يقدر عليه الا العلماء والعارفون .

ثانيا :

وإذا كان هذا مفهوم السماع عند الزهاد الأوائل فانهم قسموا الناس فى السماع على ثلاثة أقسام وذلك على قدر المعرفة والتحمل والفهم لما يرد على قلوبهم ، سماع العوام وهو حرام ذلك خوفا لبقاء نفوسهم فى السماع واستلذاذه ، ومن ثم يصبح عادة تشغلهم عن القيام بالطاعات وأوامر الحق تعالى ، وسماع الزهاد ، وهو مباح لهم اذا كان يعمل على مجاهدتهم ويقظة قلوبهم بالحق واعتباره غذاء لأرواحهم لا يمكن الاستغناء عنه .

كما أن السماع عند الصوفية يحصل به رقة القلب وخشوعه واثارة الشوق الى لقاء الله والتشويق الى دار القرار ، والخوف من عدم استقامة الظاهر والباطن ، حتى يستخرج السماع من قلوبهم أنواعا من اللطائف والمعارف والمكاشفات ، واذا كان السماع بحق وبقلب يقظ لما يسمع بعيداً عن الغفلة وقت السماع آثار الوجد الحقيقى ، أما اذا كان تصنعا فانه يثير التواجد ، وهو استدعاء حال ليس عليه صاحبه ، هذا الوجد نتيجة لقوة الوارد من الحق تعالى فيثير فى نفس السالك الاحساس بالخوف والرهبة والرجاء من الحق تعالى ، وهذه المشاعر تنعكس على نفس السالك فتفيض عيناه بالدمع أو يقشعر جلده من خشية الحق تعالى ، ثم يلين قلبه ويصلح بذكر الحق ، ومن ثم يتحقق له الهداية .

ثالثا :

إن السماع الصوفى يتطلب من المريد صفات وفضائل أخلاقية منها اخلاص النية ويقين القلب وصدقه لما يسمع وفناؤه عن كل ما يشغله

عن السماع وقت السماع ووجوده بالصفات والأسماء والمعارفة الالهيـة .

وينبنى على ذلك انه لكى يتحقق السماع الحسن لا بد من ثلاثة أشياء هى الوقت المناسب لاجتماع أهل الصحبة ، وكذلك المكان المناسب فلا يكون فى شارع أو مكان مزدحم ، بل يكون فى زاوية حتى يسهل على المريدين الاجتماع فيها ، وأيضا أن يكون أهل الصحبة من الأخيار والصالحين حتى يكون ذلك عوناً للمريد على تحقيق مراده .

رابعـا :

إتضح أيضاً كراهة بعض الصوفية للرقص والحركة فى السماع ، أما اذا كانت هذه الاهتزازات والتمايلات نتيجة لوارد قوى من قبل الحق تعالى أثناء الوجد الناتج عن السماع فلا بأس بها ؛ ذلك لأن الوجد لا يحدث لكل السامعين ، وانما لمن هم على درجة عالية من المعرفة والاخلاص والصدق فى سماعهم وفهمهم للمعانى المسموعة ، وهذا الأمر أيضاً ينطبق على موقف الصوفية من تقطيع الخرقة .

خامسا :

يقيم الصوفية الأوائل مجالس للسماع يتلى فيها القرآن الكريم أو تنشد فيها الأناشيد الدينية التى ترقق القلب وتهذبه ويتبعون فى ذلك العديد من الآداب ، أما المجالس الصوفية الآن فقد التصق بها العديد من البدع التى لم تكن موجودة عند الصوفية الأوائل ، وانما هى أمور استحدثها مدعو التصوف ، حيث أصبحت مجالس السماع والذكر مجـالس لتخريج المغنيين .

سادسـا :

فالسماع ، إذن ، له تأثير عظيم فى نفس المستمع ، فاذا كان قلبه يقظاً ومنتبها لما يلقى عليه استلذت روحه بما يسمع ، ويعلل الصوفية أن ادعاء سماع الآلة المطربة وعدم استلذاذها يرجع الى غفلة القلب، وعدم يقظته لما يلقى عليه من أنواع السمـاع ، وكذلك الى كذب الشخص السامع بأن السماع الالهى لا يؤثر عليه ، فسماع الموسيقا والألحان الجميلة بالصوت الحسن يهتز لها الانسان وكذلك الحيوان .

سابعا :

الصوفى انسان ذو احساس مرهف يحس بمعانى الكلمات التى لا يفهمها غيره من السالكين المبتدئين ، وعندما يحس بهذه المعانى يغرب ويفنى عن كل ما حوله من المحسوسات ، ويشعر بعالم الروح ويدرك فيه لذة الخطاب الالهى ، وفى هذا العالم لا تكون له ارادة ولا حركة ولا اختيار فيما يقوم به من انفعالات واضطرابات نتيجة لقوة الوارد الالهى عليه ، لكى يصل الى العالم الروحى ، عالم الصفاء والنقاء ، واشترطوا لذلك العديد من الآداب الأخلاقية ، منها عدم الاستماع الى الباطل ، وأن يتعلم حسن الاستماع ، كما يتعمل حسن الكلام ، ذلك لأن المستمع شريك القائل .

ثامنا :

السماع الصوفى لا ينتج شىء جديد ، وانما يعمل على اثارة ما فى قلب المريد فاذا كان السماع حسنا آثار الشوق والخوف والترهيب فى القلب ، واذا كان السماع سيئا آثار الشهوة والهوى والخبائث ، اذن فرياضة النفس اخلاقيا تجعل شخصية المستمع شخصية سوية خالية من الأحقاد ، يتعامل مع الآخرين بنفس طاهرة من خلال ترك الاستماع الى الخبائث وتنزيه اللسان عن النطق بها وغير ذلك من الأخلاق الكريمة الفاضلة التى يفرضها الدين والمجتمع .

تاسعا :

لقد ربط الصوفية بين رياضة السماع والمقامات والأحوال ، فالعبد لا يتحقق له مقام التوبة والندم الا اذا سمع ما يحثه على ذلك ، فالسماع يعمل على صفاء الروح وتخليصها من كدرات النفس ، ذلك لأن الروح لا تقوى الا بضعف النفس ، ولهذا فان نهاية السماع عند الصوفية هو الفناء عن سائر الأشياء وقت السماع الحق والبقاء بالصفات الربانية .

ولقد ذهب الصوفية الى أن الجهر بالذكر لا ينكره الا نفس جاهلة غبية ؛ ذلك لأن للذكر أهمية عظيمة لدى السامعين من حيث ايقاظ قلب الذاكر وجمع همته وسمعه الى معانى المسموع وبعده عن الغفلة ، ويقظة القلب الذى اعتبره الصوفية أداة للمعرفة ومنهجهم فى ذلك الكشف الالهى أو المشاهدة الالهية نتيجة للوجد الناتج عن السماع

الحق ، وغاية المعرفة الصوفية من السماع هى الوصول الى السعادة واللذة الروحية بمعانى المسموع من خلال المشاهدة لجمال النور الالهى ، وعند ذلك يشعر المستمع بالوحدة ، وذلك بالفناء عن نفسه والعالم الخارجى ويشعر بأن ذاته هى ذات الحق تعالى وعندما يعود الى حال البقاء يقول بالأثنينية بينه وبين الذات الالهية ، كما أن هذا الاتحاد الذى يشعر به أثناء الوحدة هو اتحاد روحى وليس اتحادا ماديا ، اذ انه لا وجود الا للحق المطلق الوجود ، ومن ثم فانه لا سماع الا السماع المطلق وهو سماع القرآن الكريم والأحاديث النبوية والانشاد الدينى ، أما سماع الغناء بالايقاعات الموسيقية فهو السماع المقيد الوجود الحادث.

يمكن فى ضوء ما سبق عرضه من اختلاف الآراء حول مفهوم السماع لدى الصوفية ، أن ننتهى الى أن السماع الشرعى هو سماع القرآن الكريم وكل ما يحث على الطاعة والقيام بأوامر الشرع ونهيه ، كما كره الصوفية أيضا أن يكون السماع من المراة الأجنبية أو الأمرد خوفاً من اثارة الشهوة ولكن مع ذلك أباح الصوفية سماع الأصوات الجميلة والحسنة واستلذاذها ، ذلك لأن السماع غذاء الروح مثل الطعام غذاء الأبدان .

فالسماع ينطوى على قاعدة اخلاقية أيضا تحث المريد على الالتزام بها من خلال الالتزام بآداب السماع ، وبالرغم من كراهة الصوفية لسماع الغناء ، فانهم أباحوه فى بعض المواطن ، مثل الغناء فى المناسبات والأفراح والأعياد ، والغناء فى العمل للترفيه من مشقة العمل ، وكذلك الانشاد الدينى فى الحجيج الذى يرقق القلب ويذكره بالله تعالى ، وكذلك الغناء فى المعارك لرفع حماسة الجنود .

لقد سبق الصوفية علماء النفس فى ادراك الأهمية النفسية للسماع الحسن من حيث انهم ذهبوا الى أن السماع فيه ترقيق ولطف للقلب وصرفه عن القسوة ونقائه من الأحقاد ، وكذلك فان لسماع الموسيقا فى بعض الأوقات أهمية عظيمة فى علاج الكثير من الأمراض النفسية وهذا ما توصل اليه علماء النفس فى الوقت الحال ، فالموسيقا لا تؤثر فى نفس الانسان فحسب ، وانما تستلذها أيضا بعض الحيوانات مثل الجمال التى تستلذ بصوت الحداء والأغنام بصوت المزمار وغيرها من الحيوانات .

وعلى الجملة : فان السماع الصحيح يعمل على التوازن النفسى

للانسان وكذلك أيضا على تكوين شخصية سليمة بوضع يقبله المجتمع والدين ، كما أن السماع الحسن يعمل على التماسك الاجتماعى ، إذ انه يدعو الفرد الى تحمل سماع الأذى والصبر على البلاء والبعد عن سماع المعاصى والندم والتوبة من الذنوب ، والشكر للحق تعـــالى ، لذلك فان السماع بالمعنى الكامل يجعل الفرد يتحقق بالكمال الأخلاقى وهذا هو ما يطلبه كل من الفرد والمجتمع .

إذن نستطيع القول بأن الصوفية الأوائل أصحاب نظرية أخلاقية هامة نحن الآن فى مسيس الحاجة اليها والالتزام بها من أجل المحافظة عـــلى عقيـــدتنا .

ثبت

المصادر والمراجع

أولا : المخطوطات العربية :

١ ـ **ابن عربي (محيى الدين)** : مخطوط شمس الطريق رقم ٩٦ مجاميع ، ميكروفيلم ٣٠٥٥ ، عدد ورقة ١٧ ق .

٢ ـ **أبو الفضل (كمال الدين)** : الامتاع بأحكام السماع ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٦٨ تصوف ، ميكروفيلم ١٢٣٢٥ .

٣ ـ أبو المواهب (زين العابدين محمد العمرى المرصفى) : **أحسن** التلقى فى معرفة السير والترقى ، مخطوط بدار الكتب رقم ٧٠٤ تصوف ، ميكروفيلم ٣٣٨٨٠ ، عدد ورقة ٤٠ ق .

٤ ـ **ابو المواهب (زين العابدين)** : الأجوبة المسكتة عن مسائل السماع المبهمة ، مخاوط بدار الكتب رقم ٧٠٤ تصوف ، ميكروفيلم ٣٣٨٨٠ عدد ورقة ٤٠ ق .

٥ ـ **الاسكدارى (محمود بن محمد)** : كشف القناع عن وجه السماع ، مخطوط بدار الكتب المصرى رقم ٢٦٤ فقه تيمور ، ميكروفيلم ٥٠٠٩٥ ، تاريخ النسخ ١٢٨٢ هـ ، عدد ورقة ١٥ ق .

٦ ـ **السهروردى (عبد القاهر أبو النجيب)** : آداب المريدين ، مخطوط بدار الكتب رقم ١١٧ م تصوف ، ميكروفيلم ٥١٨٢٨ ، عدد ورقه ٧٤ ق ، المقاس ١٩ × ١٤ سم .

٧ ـ **الشعرانى (عبد الوهاب)** : بهجة النفوس والأخلاق فيما يميز به القوم من الأدب والأخلاق ، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩ تصوف ، ميكروفيلم ١٠٤٠٦ عدد ورقة ٣٢٠ ق .

٨ ـ **الشعرانى (عبد الوهاب)** : لطائف المنن والأخلاق ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٥٠ تصوف ، ميكروفيلم ٣٣٥٦٥ ، عدد ورقة ٣٥٤ ق .

٩ ــ **الشعرانى (عبد الوهاب)** : المنن الكبرى والأخلاق ، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٢٢ تصوف ، ميكروفيلم ٣٣٠٦٠ .

١٠ ــ **الغزالى (جمال الدين أحمد بن محمد)** : بوارق الالماع فى تكفير من يحرم السماع ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٧٨ مجاميع ميكروفيلم ٤٥٣٢ .

١١ ــ **الكورانى (نفيس الكردى)** : بوارق الالماع فى تكفير من يحرم السماع مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ١٧٨ مجاميع ميكروفيلم ٤٥٣٢ .

١٢ ــ **النابلسى (عبد الغنى)** : إيضاح الدلالات فى سماع الآلات ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٦٠ تصوف ، ميكروفيلم ٣٤٩٥٩ ، عدد ورقة ٤٠ ق .

١٣ ــ **الهجويرى (ابن الجلاد)** : كشف المحجوب ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٧٩٣ ، تاريخ النسخ القاهرة ١٩٦٧ م .

١٤ ــ **الهروى (على بن محمد سلطان)** : فتح الاسماع فى شرح السماع ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨ م تصوف، ميكروفيلم ١٨٦١ .

١٥ ــ **مخطوط بدون مؤلف** : رسالة فى السماع والتواجد ، رقم ٦٩٥ تصوف ميكروفيلم ٣٧٥١٢ ، عدد ورقة ٨ ق .

ثانيا : أ ــ المصادر والمراجع العربية :

ــ **معجم اللاهوت الكتابى** ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٨٦ م .

١ ــ **الحافظ (ابن أبى الدنيا)** : كتاب الورع ، حققه وأخرج أحاديثه مسعد عبد الحميد السعدنى ، مكتبة القرآن الكريم ، ١٩٩٣ م .

٢ ــ **ابن بطوطة** : رحلة الى بلاد الهند ، طبعة باريس ، ١٨٧٩ .

٣ ــ **ابن تيمية (تقى الدين)** : الرسالة التدميرية ، للسيد ابى عثمان ابن سهل الصابونى ، المطبعة الحسنية المصرية ، بدون تاريخ .

٤ ـ **ابن تيمية (تقى الدين)** : رسائل وفتوى شيخ الاسلام فى التفسير والحديث والأصول والعقائد والآداب والأحكام ، حققه وعلق حواشيه السيد / محمد رشيد رضا ، قدمه وراجعه محمد أنور أحمد البلتاجى ، مكتبة وهبه عابدين ، الطبعة الثانية ، ١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢ هـ .

٥ ـ ــــــــــ : الفتوة الحموية الكبرى ، القاهرة ، ١٣٧٨ هـ .

٦ ـ ــــــــــ : الصوفية والفقراء ، مراجعة أسامة محمد عبد العظيم حمزة ، دار الفتح ، ١٩٨٥ م ، وانظر الصوفية والفقراء تقديم د. / محمد جميل غازى ، مطبعة المدنى ، المؤسسة السعودية بمصر .

٧ ـ **ابن الجوزى (أبى الفرج عبد الرحمن)** : صفة الصفوة ، دار الكتب ، ١٣٩٣ هـ .

٨ ـ ــــــــــ : صفة الصفوة ، تحقيق وتعليق محمود فاخورى ، مكتبة النهضة الجديدة ، ١٩٧٠ م .

٩ ـ ــــــــــ : مختصر منهاج القاصدين ، تصحيح ونشر محمد أحمد دهمان ، دمشق ١٣٧٧ هـ ، أو دار الكتب ، ١٩٧٦ م.

١٠ ـ **ابن حزم (على بن أحمد)** : الأخلاق والسياسة ، تحقيق صلاح الدين بسيونى رسلان ، دار نهضة الشرق ، ١٩٨٥ م .

١١ ـ **ابن حنبل (الامام أحمد)** : مسند ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .

١٢ ـ **ابن حمد دبن (محمد بن أحمد نور)** : قطع النزاع وكشف القناع عن دليل جواز السماع ، مكتبة الحلبى ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٤ م .

١٣ ـ **ابن الخطيب (لسان الدين الخطيب بن الوزير)** : روضة التعريف بالحب الشريف ، تحقيق د. / عبد القادر أحمد عطا ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦ م .

١٤ ـ **ابن رشد (الوليد)** : كتاب النفس ، تحقيق د. / أحمد فؤاد الأهوانى ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٠ م .

١٥ ـ **ابن سبعين (عبد الحق)** : الرسائل ، تحقيق د. / عبد الرحمن بدوى ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٥م.

١٦ ـ **ابن سينا (أبى على الحسين)** : الاشارات والتنبيهات ، مطبعة ليدن ، ١٨٩٣ م .

١٧ ـ ــــــــــ : رسالة الإنسانية وإدراكاتها ، مطبعة كردستان العلمية ، ١٩٥٠ م .

١٨ ـ ــــــــــ : القانون فى الطب ، مكتبة دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٣ م .

١٩ ـ ــــــــــ : كتاب الشفاء ، بدون تاريخ طبع .

٢٠ ـ **ابن شاهاور (أبو بكر عبد الله)** : منارات السائرين ومقامات الطائرين ، تحقيق سعيد عبد الفتاح ، دار سعاد الصباح، ١٩٩٣ م .

٢١ ـ **ابن عباد الرندى** : غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العطائية ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣١٠ هـ .

٢٢ ـ **ابن عبد ربه** : العقد الفريد ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٦١ هـ ـ ١٩٤٢ م .

٢٣ ـ **ابن عبد السلام (عز الدين)** : حل الرموز ومفاتيح الكنوز ، مكتبة جريدة الاسلام ، القاهرة ، ١٣١٧ هـ ـ ١٨٩٩ م .

٢٤ ـ **ابن عجيبة الحسنى** : الفتوحات الالهية فى شرح المباحث الأصلية ، مطبعة الجمالية بحارة الروم ، ١٣٣١ هـ ـ ١٩١٣ م .

٢٥ ـ **ابن عربى (محيى الدين)** : ترجمان الأشواق ، مطبعة بيروت ، ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م .

٢٦ ـ ــــــــــ : رسائل ابن عربى . رسالة الموعظة الحسنة ، رسالة عقيدة فى التوحيد أو عقيدة أهل الاسلام ، مراجعة عبد الرحمن حسن محمود ، رسالة روح القدس ، تقديم طه بدوى علام ، مكتبة عالم الفكر ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٧م.

٢٧ ـ ــــــــــ : رسالة تهذيب الأخلاق ، مطبعة كردستان العلمية ، ١٩٥٠ م .

٢٨ ـ ــــــــــ : الفتوحات المكية ، مطبعة بولاق ، القاهرة ، ١٨٧٦ م .

٢٩ ــ ـــــــــــ : فلسفة الأخلاق ، دار الكتب ، ١٩٤٥ م .

٣٠ ــ ـــــــــــ : كتاب الأخلاق ، مطبعة التقدم ، ١٩٢١ م .

٣١ ــ ـــــــــــ : مواقع النجوم ومطالع أهل الأسرار ، مكتبة صبيح ، ١٣٨٤ هـ ــ ١٩٦٥ م .

٣٢ ــ **ابن عطاء الله السكندرى** : تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس مكتبة صبيح ، ١٣٤٥ هـ .

٣٣ ــ ـــــــــــ : التنوير فى اسقاط التدبير وبهامشه تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس ، المطبعة الميمنية ، ١٣٢١ هـ .

٣٤ ــ ـــــــــــ : لطائف المنن ، دار الكتب ، القاهرة ، ١٣٢٢ هـ .

٣٥ ــ **ابن العماد الحنبلى** : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، مكتبة القدس ، ١٩٣٤ م .

٣٦ ــ **ابن الفارض (عمر)** : كشف الوجوه الغر لمعانى نظم الدر ، شرح تائية ابن الفارض المسماة بنظم السلوك ، شرح عبد الغنى النابلسى ، وحسن البورينى ، جمع رشيد غالب ، المطبعة الأزهرية ، ١٣١٩ هـ ــ ١٩٢١ م .

٣٧ ــ **ابن قتيبة الدنيورى** : عيون الأخبار ، مطبعة دار الكتب المصرية ، المطبعة الأزهرية ، ١٣١٩ هـ ــ ١٩٢١ م .

٣٧ ــ ـــــــــــ : عيون الأخبار ، مطبعة دار الكتب المصرية ، المطبعة الأولى ، ١٣٤٦ هـ ــ ١٩٢٨ م .

٣٨ ــ **ابن قدامة (محمد عبد الله)** : فتيا فى ذم الشبابة والرقص والسماع ، تحقيق عبد الرحمن محمد بن عقيل الظاهرى ، مراجعة سهير مختار ، دار الكتب المصرية ، ١٩٧٦ م .

٣٩ ــ **ابن القيسرانى (طاهر المقدسى)** : كتاب السماع ، تحقيق أبو الوفاء المراغى ، مكتبة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة احياء التراث الاسلامى ، القاهرة ، ١٣٩٠ هـ ــ ١٩٧٠ م .

٤٠ ــ **ابن قيم الجوزية** : اغاثة اللهفان فى مصايد الشيطان وبهامشه كتاب الهجرتين وباب السعادتين ، المطبعة الميمنية ، ١٣٢٠ هـ .

٤١ ـــ ـــــــــــ : تلبيس ابليس ، مطبعة النهضة ، ١٩٢٨ م .

٤٢ ـــ ـــــــــــ : تهذيب مدارج السالكين ، هذبه عبد المنعم صالح العلى ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، ١٩٨٣ م .

٤٣ ـــ ـــــــــــ : حكم الاسلام فى الغناء ، تحقيق أبو حذيفة ابراهيم بن محمد ، مكتبة الصحابة بطنطا ، ١٩٨٥ م .

٤٤ ـــ ـــــــــــ : الروح ، دار المعارف ، ١٣٢٤ هـ ـــ ١٩٣٠ م .

٤٥ ـــ ـــــــــــ : روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، مكتبة الفجالة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٧٣ م .

٤٦ ـــ ـــــــــــ : كتاب الفوائد ، دار الريان ، ١٩٨٧ م .

٤٧ ـــ ـــــــــــ : مدارج السالكين ، شرح منازل السائرين للهروى ، القاهرة ، ١٩٥٦ م .

٤٨ ـــ ـــــــــــ : مدارج السالكين ، تعليق السيد محمد رشيد رضا ، مكتبة المنار ، القاهرة ، ١٣٣١ هـ .

٤٩ ـــ **ابن ماجه (الإمام)** : سنن ابن ماجه ، دار الكتب بدون تاريخ .

٥٠ ـــ **ابن المنور (محمد)** : أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد ترجمة د. / اسعاد عبد الهادى قنديل ، مراجعة د. / يحيى الخشاب ، دار الكتب المصرية ، ١٩٦٨ م .

٥١ ـــ **أبو داود السجستانى** : سنن أبى داود ، مراجعة محمد محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة الحلبى ، ١٣٥٤ هـ ـــ ١٩٣٥م.

٥٢ ـــ **أبو ذر القلمونى** : ففروا الى الله ، المكتبة التوفيقية ، ١٤٠٤ هـ.

٥٣ ـــ **اخوان الصفا** : الرسائل ، مطبعة نخبة الأخيار ، القاهرة ١٣٠٥ هـ .

٥٤ ـــ **أرسطو طاليس** : الأخلاق ، ترجمة اسحق بن حنين ، تحقيق د. / عبد الرحمن بدوى وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٨٢ م .

٥٥ ـــ **آسين بلاثيوس** : ابن عربى حياته ، مذهبه ، ترجمة د. / عبد الرحمن بدوى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٥ م .

٥٦ — **الأشبيلى (ابن سلام الباهلى)** : الذخائر والأعــلاق فى آداب النفوس ومكارم الأخلاق ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣٥م.

٥٧ — **الأصفهــانى (أبو نعيم)** : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، مكتبة الخــانجى والسعــادة ، ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م ، وأيضا دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٦٧ م .

٥٨ — **افلاطـــــون** : الجمهورية ، ترجمـــة ودراســـة د. / فـؤاد زكريا ، دار الكتب ، ١٩٧٤ .

٥٩ — **الاهوانى (د. / أحمد فؤاد)** : كتاب النفس لأرسطو طــاليس ، مراجعة الأب جورج شحاته قنواتى ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ — ١٩٦٢ م .

٦٠ — **البخارى (أبى عبد الله محمد بن اسماعيل)** : صحيح البخارى ، مطبعة الحلبى ، ١٣٤٥ هـ —١٩٢٨ م .

٦١ — **برجســـون (هنرى)** : منبعا الأخلاق والدين ترجمة ســامى الدروبى وعبد الله عبد الدائم ، مكتبـــة نهضـــة مصر ، ١٩٤٠ م .

٦٢ — **بسيونى (د / ابراهيم)** : الامام القشيرى ، سيرته ، أثاره ، مذهبه فى التصوف ، مطبوعات ، ١٣٩٢ هـ — ١٩٩٣ م .

٦٣ — ــــــــــــــ : نشأة التصوف الاسلامى ، دار المعارف ، ١٩٦٩م،

٦٤ — **البناتى (أبى بكر)** : اتحاف أهل العناية الربانية فى اتخاذ طريق أهل الله وان تعددت مظاهر الحقانية ، المطبعة العامرة الشرقية ، ١٣٢٤ هـ .

٦٥ — ــــــــــــــ : تحفة أهل الفتوحات والأذواق ، مطبعة التقدم ، ١٩٧٧ م .

٦٦ — **التاذقى (محمد بن يحيى)** : قلائد الجواهر فى مناقب عبد القادر ، وبهامشه فتوح الغيب لمحيى الدين عبد القادر الجيلانى ، مطبعة مصطفى الحلبى ، الطبعة الثالثة ، ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م .

٦٧ — **الترمذى (أبى عبد الله محمد)** : صحيح الترمذى ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣١ م .

٦٨ ــ **الترمذى (أبى عبد الله محمد** : كتاب الرياضة وآدب النفس ، أخرجه د. / أ.ج أربرى ، ود. / على حسن عبد القادر ، مكتبة الحلبى ، ١٣٦٦ هـ ــ ١٩٤٧ م .

٦٩ ــ **التفتازانى** (د. / أبو الوفا الغنيمى) : ابن سبعين وفلسفة الصوفية ، بيروت ، دار الكتاب اللبنانى ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣ م .

٧٠ ــ ــــــــ : ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٥٨ م .

٧١ ــ ــــــــ : مدخل الى التصوف الاسلامى ، دار الثقافة ، ١٩٧٤ م .

٧٢ ــ ــــــــ : مقال بمجلة المعرفة ، عدد يونية ، ١٩٣١ م .

٧٣ ــ **التهانوى (محمد أعلى بن على)** : كشاف اصطلاحات الفنون ، طبعة كلكته ، ١٨٦٢ م .

٧٤ ــ **التوحيدى (أبو حيان)** : الاشارات الالهية ، تحقيق وداد القاضى ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٣ م .

٧٥ ــ **ج. أ. هادفيلد** : علم النفس والأخلاق ، تحليل نفسى للخلق ، ترجمة محمد عبد الحميد ، مراجعة د. / عبد العزيز القوصى ، مكتبة مصر ، ١٩٥٣ م .

٧٦ ــ **الجرجانى (الشريف على بن محمد)** : التعريفات ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٢٨٣ هـ .

٧٧ ــ **الجزار (د. / أحمد محمود)** : الأمام المجدد ابن باديس والتصوف ، دار الوزان ، ١٩٨٨ م .

٧٨ ــ ــــــــ : الفناء والحب الالهى ، مكتبة نهضة الشرق ، ١٩٩٠ م .

٧٩ ــ **الجيلانى (عبد القادر)** : الفتح الربانى والفيض الرحمانى ، دار الكتب المصرية ، ١٣٤٦ هـ .

٨٠ ــ ــــــــ : آداب المريدين ، المطبعة الرسمية التونسية ، الطبعة الأولى ، ١٣١٣ هـ .

٨١ ــ **الدفنى (د. / عبد المنعم)** : معجم المصطلحات الصوفية ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٨٣ م .

٨٢ ــ **الحكيم (د. / سعاد)** : المعجم الصوفى ، الحكمة فى حدود الكلمة ، مطبعة دندرة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨١م.

٨٣ ــ **حلمى (د. / محمد مصطفى)** : ابن الفارض والحب الالهى ، مكتبة دار المعارف ، ١٩٧١ م .

٨٤ ــ ــــــــــــ : الحب الالهى فى التصوف الاسلامى ، دار الكتب، ١٩٦٠ م .

٨٥ ــ ــــــــــــ : الحياة الروحية فى الاسلام ، دار احياء الكتب العربية ، ١٣٦٤ هـ ــ ١٩٤٥ م .

٨٦ ــ ــــــــــــ : علم التصوف ، القاهرة ، ١٩٨٣ م .

٨٧ ــ ــــــــــــ **ومحمد فوقى حجاج** : فى التصوف الاسلامى ، دار الكتب ، ١٩٧٨ م .

٨٨ ــ **خورشيد (د. / ابراهيم زكى)** : دائرة المعارف الاسلامية ، مكتبة دار الشعب ، ١٩٧٤ م .

٨٩ ــ **دسوقى (د. / كمال)** : ذخيرة علوم النفس ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩١ م .

٩٠ ــ **الدمياطى (أبى بكر السيد محمد شطا)** : كفاية الأتقياء ومنهاج الأصفياء المطبعة الخيرية ، ١٣٠٣ هـ .

٩١ ــ **الذهبى (أبى عبد الله محمد بن أحمد)** : ميزان الاعتدال فى فقد الرجال ، تحقيق على محمد البيجاوى ، مطبعة عيسى الحلبى ، ١٩٦٤ م .

٩٢ ــ **رضا (محمد رشيد)** : تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، مطبعة المنار ، ١٣٥٠ هـ ــ ١٩٣١ م .

٩٣ ــ **راضى (على عبد الجليل)** : الروحية عند ابن عربى ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٤٦ م .

٩٤ ــ **رضوان (حسن)** : مطهرة النفوس وروضة القلوب ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢١ م .

٩٥ ــ **الرفاعي (أحمد)** : الفجر المنير ، مطبعة بولاق ، ١٣٠٠ م.

٩٦ ـــ ـــــــــــــ : النظام الخاص لأهل الاختصاص ، المطبعة العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٣١٣ هـ .

٩٧ ـــ **زروق (أحمد بن محمد)** : قواعد التصوف ، صححه محمد زهرى النجار ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٦٨ م .

٩٨ ـــ **السبكى (تاج الدين عبد الوهاب)** : معيد النعم مبيد النقم ، مطبعة ليدن ، ١٩٠٨ م .

٩٩ ـــ **السبكى (محمود محمد خطاب)** : العهد الوثيق لمن أراد سلوك الطريق ، مطبعة الفتوح الأدبية ، القاهرة ، ١٩٣١ م .

١٠٠ ـــ **السراج (أبى نصر)** : اللمع ، تحقيق د . / عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقى سرور ، دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٠ هـ .

١٠١ ـــ **سرور (طه عبد الباقى)** : الحسين بن منصور الحلاج شهيد التصوف الاسلامى ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٨١م .

١٠٢ ـــ **السلمى (أبى عبد الرحمن)** : طبقات الصوفية مطبعة ليدن ، ١٩٦٠ م .

١٠٣ ـــ ـــــــــــــ : أصول الملامتية وغلطات الصوفية ، تحقيق عبد الفتاح أحمد الفاوى ، مكتبة الارشاد ، القاهرة ، ١٤٠٥ هـ ـــ ١٩٨٤ م .

١٠٤ ـــ **السمانى (عبد المحمود نور الدائم)** : النصرة العلمية لأهل الطريقة الصوفية ، دار الكتب ، ١٣٧٥ هـ ـــ ١٩٥٦ م .

١٠٥ ـــ **السمرقندى (نصر بن محمد بن ابراهيم)** : بستان العارفين هامش على تنبيه الغافلين ، مكتبة الجمهورية المصرية ، بدون تاريخ طبع .

١٠٦ ـــ ـــــــــــــ : قرة العيون ومفرح القلب المحزون ، هامش على مختصر تذكرة الامام القرطبى ، تأليف عبد الوهاب الشعرانى ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأزهرية ، القاهرة ، ١٣٤٤ هـ ـــ ١٩٢٦ م .

١٠٧ ـــ **السهروردى (أبو حفص شهاب الدين)** : عوارف المعارف ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٧٤ م ، أو الجزء الخامس من احياء علوم الدين للغزالى ، مكتبة الحلبى ، القاهرة ، ١٣٨٧ هـ ـــ ١٩٦٨ م .

١٠٨ ـ **السهروردى (عبد القاهر ابو النجيب)** : آداب المريدين ، تحقيق محمد فهيم شلتوت ، القاهرة ، بدون تاريخ طبع .

١٠٩ ـ **السيوطى (الحافظ)** : الجامع الصغير ، دار الكتب ، ١٩٥٠ .

١١٠ ـ **الشافعى (محمد بن علان)** : دليل الفالحين لطرق ورياض الصالحين ، مكتبة مصطفى الحلبى ، ١٩٥٧ م .

١١١ ـ **شحاتة (محمود مصطفى)** : أهمية الذكر عند الصوفية مؤيد بالكتاب والسنة ، ابن تيمية وابن قيم الجوزيــة ، دار الكتب ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م .

١١٢ ـ **الشرباصى (د. / أحمد)** : فى رحاب الصوفية ، دار التاليف، ١٩٥٠ م .

١١٣ ـ **شرف (د. / محمد جلال)** : التصوف الاسلامى فى مدرسة بغداد ، دار المطبوعات الجامعية بالاسكندرية ، ١٩٧٥ م .

١١٤ ـ ــــــــ : دراسات فى التصوف الاسلامى ، شخصيات ومذاهب الاسكندرية ، دار الفكر العربى ، بدون تاريخ .

١١٥ ـ **الشرنوبى (د. / عبد المجيد)** : شرح تائية السلوك الى ملك الملوك وبهامشة شرح حكم ابن عطاء الله السكندرى ، القاهرة ، ١٨٨٧ م .

١١٦ ـ **الشعرانى (عبد الوهاب)** : تنبيه المغترين وبهامشه الكشف والتبيين ، المطبعة المحمودية ، ١٣١٥ هـ .

١١٧ ـ ــــــــ : الطبقات الكبرى المسماه بلواقح الأنــوار ، وبهامشة كتاب الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية ، مكتبة صبيح ، القاهرة ، ١٣٤٣ هـ .

١١٨ ـ ــــــــ : لواقح الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية، وبهامشه البحر المورود فى المواثيق والعهود ، المطبعــة الميمنية ، ١٣٢١ هـ .

١١٩ ـ **الشيرازى (صدر الدين محمد ابراهيم)** : رسالة فى علم الأخلاق ، مطبعة الموسوعات ، ١٣١٩ هـ .

١٢٠ ـ **صبحى (د. / أحمد محمود)** : الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الاسلامى ، الذوقيون والعقليون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ م .

١٢١ — **صبحى (د٠ / أحمد محمود)** : التصوف ايجابيات وسلبيات ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ م .

١٢٢ — **الطاهر (محمد بن مسعود)** : رسالة المنطق الفهوانى ، مطبعة كردستان العلمية ، ١٩٥٠ م .

١٢٣ — **طاهر (د٠ / محيى الدين عبد الحميد)** : سيكولوجية الأخوة والصداقة عند صوفية الاسلام ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٩٢ م ٠

١٢٤ — **الطرابلسى (عبد القادر)** : إحياء القلوب ، المطبعة العلمية ، ١٣١٥ هـ .

١٢٥ — **الطرطوشى (أبو بكر محمد بن الوليد)** : سراج الملوك وبهامشه التبر المسبوك فى نصائح الملوك ، المطبعة الخيرية ، ١٣٠٦ هـ .

١٢٦ — **عامر (د٠ / كوكب)** : السماع عند الصوفية خاصة الغزالى ، مطبعة اخوان زريق ، ١٩٨٨ م .

١٢٧ — **العاملى (محمد بهاء الدين)** : الكشكول ، دار الكتب ، ١٩٢٢م.

١٢٨ — **عبد العزيز (هشام)** : بوارق الألماع فى تكفير من يحرم السماع ، نص لأحمد الغزالى الشقيق الأكبر لأبو حامد الغزالى ، مجلة القاهرة ، عدد ١٤٨ مارس ، ١٩٩٥ م .

١٢٩ — **العراقى (د٠ / محمد عاطف)** : الفلسفة الاسلامية ، دار المعارف ، ١٩٧٨ م .

١٣٠ — ———— : مذاهب فلاسفة المشرق ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ، ١٩٧٨ م .

١٣١ — **عزام (د٠ / عبد** الوهاب) : التصوف وفريد الدين العطار ، دار احياء الكتب العربية ، مطبعة عيسى الحلبى ، ١٣٦٤هـ — ١٩٤٥ م .

١٣٢ — **عطيه (أحمد)** : القاموس الاسلامى ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م .

١٣٣ — **عفيفى (د٠ / أبو العلا)** : التصوف ، الثورة الروحية في الاسلام ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٣ م ٠

١٣٤ — عكاشة (د. / احمد) : علم النفس الفسيولوجي ، دار المعارف ، ١٩٦٨ م .

١٣٥ — الغزالى (أبو حامد) : احياء علوم الدين ، مكتبة الحلبى ، ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م .

١٣٦ — ———— : بداية الهداية ، مكتبة الحلبى ، الطبعة الثالثة، ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م .

١٣٧ — ———— : تهافت الفلاسفة ، تحقيق الفلاسفة ، تحقيق د. / سليمان دنيا ، دار المعارف ، ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٦م.

١٣٨ — ———— : رسالة الأدب فى الدين ، مطبعة كردستان العلمية ، ١٩٥٠ م .

١٣٩ — الغزالى (أبو حامد) : روضة الطالبين وعمدة السالكين ، تصحيح محمد بخيت ، دار الكتب ، ١٩٣٩ م .

١٤٠ — ———— : العقود واللآلىء من رسائل الامام الغزالى ، المطبعة المحمودية ، ١٩٣٤ م .

١٤١ — ———— : مجموعة الرسائل روضة الطالبين وعمدة السالكين ، قواعد العقائد فى التوحيد ، خلاصة التصانيف فى التصوف ، دار الكتب العلمية — بيروت — لبنان ، ١٤٠٦ هـ .

١٤٢ — ———— :المحبة والشوق والأنس والرضا ، مكتبة الحلبى ، ١٣٨٠ هـ — ١٩٦١ م .

١٤٣ — ———— : المرشد الأمين الى موعظة المؤمنين من احياء علوم الدين ، الطبعة الثالثة ، مطبعة الحلبى ، ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م .

١٤٤ — ———— : معارج القدس فى مدارج النفس ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٥٦ م .

١٤٥ — ———— : مكاشفة القلوب المقرب الى حضرة علام الغيوب ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٨٠ م .

١٤٦ — ———— : المنقذ من الضلال ومعه كمياء السعادة والقواعد العشر والأدب فى الدين ، بقلم أنيس منصور ، مكتبة الجندي ، ١٩٧٣ م .

١٤٧ ــ **الغزالى (ابو حامد)** : منهاج العابدين الى الجنة ، المطبعة الكاستلية ، ١٢٨٨ هـ .
١٤٨ ــ ــــــــــــ : التبر المسبوك فى نصائح الملوك ، المطبعة الخيرية ، ١٣٠٦ هـ .
١٤٩ ــ **غلاب (د. / محمد) ، ود. / توفيق الطويل** : الكتاب التذكارى ، محيى الدين ابن عربى فى الذكرى المئوية الثامنة لميلاده ، دار الكتاب العربى ، ١٣٨٩ هـ ــ ١٩٦٩ م .
١٥٠ ــ **غنى (د. / قاسم)** : تاريخ التصوف فى الاسلام ، ترجمة صادق نشأت ، مراجعة أحمد ناجى القيسى ، ود. / محمد مصطفى حلمى ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠ م .
١٥١ ــ **الفنيمى (د. / نجاح محمود)** : المناظر الالهية ، عبد الكريم الجيلى ، دار المنار ، ١٩٧٨ م .
١٥٢ ــ **القادرى (ابراهيم بن محمد الحسينى)** : لسان البيان ومنهل العرفان فى الاسلام والايمان والاحسان ، مطبعة الظاهر ، ١٣٢٣ م .
١٥٣ ــ **القشيرى (عبد الكريم بن هوازن)** : ترتيب السلوك فى طريق الله تعالى ، تحقيق ابراهيم بسيونى ، مطبعة التيسير ، ١٩٨٥ م .
١٥٤ ــ ــــــــــــ : الرسالة القشيرية فى علم التصوف وبهامشه شرح شيخ الاسلام زكريا الأنصارى ، مطبعة على صبيح ، ١٩٧٢ م ، تحقيق د. / عبد الحليم محمود ، ومحمود بن الشريف ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٧٤ م .
١٥٥ ــ ــــــــــــ : شرح أسماء الله الحسنى ، تحقيق وشرح أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى ، القاهرة ، مجمع البحوث الاسلامية ، ١٣٩٠ هـ ــ ١٩٧٠ م .
١٥٦ ــ ــــــــــــ : لطائف الاشارات ، تفسير صوفى كامل للقرآن الكريم ، تحقيق د./ ابراهيم بسيونى ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٨ م .
١٥٧ ــ **القوصى (أحمد حنفى نصار)** : مع التصوف الاسلامى ، معارج ونماذج ، دار وهدان للطباعة ، ١٩٩٢ م .
١٥٨ ــ **الكاشانى (عبد الرزاق)** : اصطلاحات الصوفية ، تحقيق

عبد الخالق محمود ، دار المعارف ، ١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤م،
وانظر تحقيق محمود كامل جعفر .

١٥٩ — **الكلاباذى (أبو بكر محمد)** : التعرف لمذهب أهـل التصوف ، تحقيق محمود أمين النواوى ، الطبعـة الثانية ، مكتبـة الكليات الأزهرية ، ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م .

١٦٠ — **ماسينون (وب كراوس)** : أخبار الحلاج أو مناجيات الحلاج ، مطبعة القلم ، ١٩٣٦ م .

١٦١ — **ماسينـون (لـويس)** : الاسلام والتصـوف ، ومصطفى عبد الرازق ، اعداد ابراهيم زكى خـورشيد ، د. / عبد الحميد يونس ، دار الشعب ، ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩م.

١٦٢ — **الماوردى (أبى الحسن البصرى)** : كتاب آدب الدنيا والدين ، المطبعة الأميرية ، ١٣٤١ هـ — ١٩٢٣ م .

١٦٣ — **مبارك (د. / زكى)** : التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق ، مكتبة دار الكتاب العـربى ، القاهـرة ، ١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م أو مطبعة الاعتماد ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م .

١٦٤ — **المحاسبى (الحارث بن أسد)** : كتاب التوهم ، دار الوعى ، حلب ، ١٣٩٩ هـ .

١٦٥ — ———— : الرعاية لحقوق الله ، تحقيق د. / عبد الحليم محمود ، مكتبة دار الكتب الحديثة بالقـاهرة ، والمتنبى ببغداد ، ١٩٦٠ م .

١٦٦ — ———— : المسائل فى أعمال القلوب والجوارح والمكاسب والعقل ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، الطبعة الأولى ، مكتبة عالم الكتب ، ١٩٦٩ م .

١٦٧ — ———— : الوصايا أو النصائح الدينيـة والنفحـات القدسية ، تحقيق عبد القادر أحمد عطاء ، مكتبة عـلى صبيح ، ١٩٦٦ .

١٦٨ — **المروزى (عبد الله بن المبارك)** : كتاب الزهد والرقائق حققه حبيب الرحمن الأعظمى ، بيروت ، ١٩٧٤ م .

١٦٩ — **مراد (د. / يوسف)** : مبادىء علم النفس ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ م .

١٧٠ — **المسلوت (د. / محـمد عبد الرحـمن)** : موقف المسـلم من

التصوف ، الطبعة الأولى ، دار الهـدى ، ١٤٠١ هـ ـــ ١٩٨١ م .

١٧١ ـــ **مسـلم (الامـام)** : صحيح مسلم ، مكتبة الحلبى ، القاهرة، ١٣٠٤ هـ .

١٧٢ ـــ **المكى (أبو طالب)** : علم القلوب ، تحقيق عبد القادر أحمـد عطـا ، مكتبة القاهرة ، ١٩٦٥ م .

١٧٣ ـــ ــــــــــــ : قوت القلوب فى معاملة المحبوب ، مكتبة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .

١٧٤ ـ **المناوى (عبد الرؤوف)** : الكواكب الدرية ، مكتبة الأزهر ١٣٥٧ هـ ـــ ١٩٣٨ م .

١٧٥ ـــ **المنوفى (محمود أبو الفيض)** : التصوف الاسلامى الخالص ، دار نهضة مصر ، ١٩٨٠ .

١٧٦ ـ **المنوفى (محمود أبو الفيض)** : التمكين فى شرح منـازل السائرين ، لأبى اسماعيل الأنصارى الهروى ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ١٩٦٩ م .

١٧٧ ـــ **النابلسى (عبد الغنى)** : الحديقة النديـة شرح الطريقـة المحمدية ، دار الكتب ، ١٩٢١ م .

١٧٨ ـــ **نجاتى (د. / محمد عثمان)** : الادراك الحسى عند ابن سينا ، دار الشروق ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٨٠ م .

١٧٩ ـــ **النجار (د. / عامر)** : الطرق الصوفية فى مصر ، نشأتها ، ونظمها وروادها ، (الرفاعى ـــ الجيلانى ـــ البدوى ـــ الشاذلى ـــ الدسوقى) ، دار المعـارف ، الطبعـة الثامنة ، ١٩٨٠ .

١٨١ ـــ **النفرى (محمد عبد الجبار)** : كتاب المواقف والمخاطبات ، تصحيح أرثر يوحنا أربرى ، دار الكتب ، ١٩٣٤ م .

١٨٢ ـ **النيال (محمد البهلى)** : الحقيقة التاريخية للتصوف الاسـلامى ، مكتبة النجاح ، ١٩٧٥ م .

١٧٣ ـــ **نيكلسون (رينولـد)** : الصوفية فى الاسـلام ، ترجمـة نور الدين حسين شريبة ، مكتبة ١٣٧١ هـ ـــ ١٩٥١ م .

١٨٤ ـــ ــــــــــــ : فى التصوف الاسلامى وتاريخه ، طائفة مـن

الدراسات ، تعليق أبو العلا عفيفى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٩ م .

١٨٥ ـ **الهروى (أبى اسماعيل الأنصارى)** : كشف القناع عن حكم الوجد والسماع ، تحقيق ودراسة قسم التحقيق بدير الدومينكين ، دار الصحابة للتراث بطنطا ، ١٩٩٢م.

١٨٦ ـ **الهجويرى (أبو حسن بن عثمان الجلاد)** : كشف المحجوب ، دراسة وترجمة د. / اسعاد عبد الهادى قنديل ، مراجعة الترجمة د. / أمين عبد المجيد بدوى ، اشراف محمد توفيق عويضة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٧٤ م .

١٨٧ ـ **الهيثمى (ابن حجر)** : كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع ، حكم الاسلام فى الغناء والموسيقى والشطرنج، تحقيق عادل عبد المنعم أبو العباس ، مكتبة القرآن ، ١٩٨٩ م .

ب ـ الرسائل العلمية :

١ ـ **الترجمان (سهيلة عبد الباعث)** : نظرية الانسان بالكامل عند عبد الكريم الجيلى ، رسالة ماجستير ، اشراف أ. د / أبو الوفا التفتازانى ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٨م.

٢ ـ **سليمان (مسعد أمين)** : الفكر الصوفى عند اخوان الصفا ، رسالة ماجستير ، اشراف أ. د / محمد عاطف العراقى، جامعة القاهرة ، ١٩٨٣ م .

٣ ـ **طاهر (محيى الدين عبد الحميد)** : أبى مدين المغربى ، حياته وتصوفه ، رسالة دكتوراه ، اشراف أ. د / أبو الوفا التفتازانى ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٥ .

٤ ـ **عبد البارى (عبد البارى محمد)** : الفناء عند صوفية الاسلام ، رسالة دكتوراه ، اشراف أ. د / محمد جلال شرف ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٩٢ م .

٥ ـ **عبد الحميد (فاطمة فؤاد)** : مقام التوكل عند صوفية الاسلام، رسالة ماجستير ، اشراف أ. د / محمد عاطف العراقى، آداب بنها ، جامعة الزقازيق ، ١٩٩٣ م .

٦ ـ **ياسين (ابراهيم ابراهيم)** : حـــال الفناء فى التصوف الاسلامى، رسالة ماجستير ، اشراف ١٠د٠ / أبو الوفا التفتازانى ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٠ م ٠

ذ ـ المصـــادر الأجنبية :

1. *Al-R-Hartman :* Kusharits sufitums, perlin, 1914.
2. *Nicholson (R.)* : The mystics of Islam, Khayats, 1966.
3. *Nicholson (R.)* : « Sufis » Encyclopedia of Religion and Ethics, 1914.

الفهـــــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٠٦٩١/١٩٩٧

ISBN — 977 — 01 — 5447 — 4

سبق الصوفية علماء النفس فى إدراك الأهمية النفسية للسماع الحسن من حيث إنهم ذهبوا إلى أن السماع فيه رقة القلب ولطفه وصَرْفه عن القسوة ونقاؤه من الأحقاد ولقد عُنِى هذا الكتاب بدراسة وعرض موقف الصوفية منذ الزهاد الأوائل حتى الصوفية المتفلسفين وآراء أئمة الفقه حول سماع القرآن والإنشاد الدينى وبيان أن السماع الحق يكون للقرآن الكريم، وأيضا مجالس العلم والحكمة ، السماع الصحيح يعمل على ترقيه الأخلاق والتوازن النفسى فالسماع غذاء الروح. ويعتبر الصوفية السماع إحدى الرياضات الروحية التى يمارسها المريد من أجل التطهر والصفاء.

٤٢٥ قــرشـــاً مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب